شاعر الدولة الفاطمية
تميم بن المعز

د. إبراهيم الدسوقي جاد الرب
أستاذ أدب مصر الإسلامية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

شاعر الدولة الفاطمية :
تميم بن المعز

الدكتور ابراهيم الدسوقى جاد الرب
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

شبكة كتب الشيعة

مركز النشر لجامعة القاهرة
١٩٩١

shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

مقدمـــة

ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى جدير بترحيب الدارسين للأدب ، لأنه أقدم الدواوين المصرية التى وصلتنا . وقد راقنى أن يكون موضوع كتابى لأنه جدير بالبحث من جهة ، ولأنه نص عربى مصرى من جهة أخرى . وما أجدرنا ـ نحن العرب المصريين ـ أن ندرس أدب بيئتنا فإنه لم يزل فى حاجة شديدة الى الدراسة .

وقد بدأت العمل بقراءة الديوان ، فلما فرغت منه عزمت منذ البداية أن أبرز صلته بالأدب العربى ، وأن أبين تأثره بمصر ، وأن أتحدث عما فيه من تشيع ، وأن أتناوله بالنقد .

ورأيت من الخير أن أقرأ كثيرا من الشعر السابق لتميم والمعاصر له والمتأخر عنه ، لأرى أكبر عدد ممكن من العلاقات بينه وبين الشعراء المختلفين ، ولأقلل ـ قدر المستطاع ـ من الأخطاء المبنية على نقص المعرفة . وتصورت أن هذه القراءة الواسعة ستنفعنى فى الحديث عن العروبة والمصرية والتشيع والنقد . واقتضى البحث أن أقرأ مصادر أخرى غير الشعر منها ، الكتب الاسماعيلية ، والمؤلفات التاريخية والجغرافية والبلاغية القديمة ، وأن أراجع كتب الرجال ومعاجم اللغة ، وأن أقرأ بعض الكتب غير العربية ، وأحببت أن أرى الصلة بين النثر والشعر فى القرن الرابع الهجرى فقرأت ما استطعت من نثره .

وفى المرحلة الثانية من البحث أخذت أقرأ الكتب الحديثة . ثم عن لى أن أعرف أكبر مجموعة من الكتب تتصل ببحثى ، فقرأت فهارس الأدب فى مكتبة جامعة القاهرة ، وانتخبت منها ما يتصل بموضوعى .

وعندما بدأت الكتابة حددت لنفسى المنهج الذى سرت عليه . فجعلت البحث أربعة أبواب ، الباب الأول يتناول ظروف الشاعر ، وهو ذو فصلين يدور الفصل الأول منه حول الظروف العامة ، ويدور الثانى حول ظروف الشاعر الخاصة . ويعالج الباب الثانى القسم الحزبى من الديوان وهو ذو فصلين يتناول فى الفصل الأول منه قصة الحزب وفى الفصل الثانى معتقداته ، ويعالج الباب الثالث القسم غير الحزبى من

الديوان وهو أربعة فصول تدور حول الموضوعات التقليدية وأما الباب الرابع فنظرات متفرقة فى الديوان ، للمصرية منها نظرة وللزينة نظرة ، وللنقد نظرة ثالثة . وينتهى البحث بخاتمة فيها خلاصته وما لم يسمح المنهج بمعالجته فى أبوابه وفصوله .

والباب الأول هو خلفية الشعر . والثانى والثالث نظرتان جانبيتان متكاملتان ، تتقيد إحداهما التشيع فتتعرض لأساليبه ومعانيه فى إطارين هما : تاريخ الحزب وعقائده .وتتقيد النظرة الثانية بما كان غير شيعى ، فتبين أساليبه ومعانيه فى أطر الفنون الشعرية المعروفة . وتتعاون النظرتان معا على تبيان ما فى ديوان تميم من معان وأساليب ، وما كان منها ملكا له وما كان مقترضا . والباب الرابع ثلاث نظرات طليقة ، لا تتقيد الواحدة منها بفن أو عقيدة ، بل تنطلق فى الديوان تستشف ما يعنيها .

وقد رأيتُ أن أرجع إلى المصادر المعاصرة للشاعر ما أمكن ، فعندما أردت الحديث عن ظروفه انتقيتُ كتابىْ « أحسن التقاسيم » و « صورة الأرض » للمقدسى وابن حوقل — وهما معاصران لتميم — لأنهما قد عاينا الأحوال فى المغرب ومصر إبان حياة الشاعر ، فصار حديثهما عن هاتين البيئتين ذا قيمة عظيمة . وتابعت الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين فى الانتفاع بسيرة جوذر ، لأنهما ترجع إلى الحقبة التى عاش فيها تميم أيضا . ولا شك أن كتابى المقدسى وابن حوقل خير للبحث من أمثال « المغرب » للبكرى الذى يرجع إلى زمن متأخر ، كما أن سيرة جوذر أفضل من أى مصدر تاريخى يتناول حياة تميم . ومن أهم المواضع التى اهتممت فيها بمعاصرة المصادر للشاعر فصل التشيع . فقد كان فى الإمكان أن أستعين على تفسير التشيع فى شعر تميم بالمجالس المؤيدية أو المجالس المستنصرية ولكننى آثرت الرجوع إلى « دعائم الإسلام » و « تأويل دعائم الإسلام » و « الهمة » للقاضى النعمان — وهو مؤلف أقدم مولدا ووفاة من تميم — ليكون لما أذهب إليه سند مادى . وهناك مواضع أخرى اتبعتُ فيها هذه الخطة .

والهوامش مما عنيت به كثيراً ، فهى تعاون المتن معاونة كبيرة على خدمة البحث ، وتتحمَّل عنه ما لم يسمح له المنهج بحمله . وقد بذلت فيها جهداً .

ومن مصاعب البحث أن بيئة الشاعر الأولى غامضة من جوانبها ولا سيما الأدب ، وحياته هو نفسه غامضة . وقد تحايلت على القاء بعض الضوء على ظروف

تميم العامة والخاصة ، فاستعنت بالكتب القديمة والحديثة فأفادتنى فى تحقيق الغرض المطلوب . وستظهر الحاجة إلى الفصل الأول من الباب الأول كلما مضينا فى قراءة البحث .

ومن مصاعب البحث أيضاً أن تميما ليس شاعراً مصرياً خالصاً ، لأنه وفد على مصر شاباً . وهذا من شأنه أن يُضعف المصرية فى شعره ويصعّب التماسها . ثم ان الحاجة ماسة إلى إثبات أن شعره مقول فى مصر ليستقيم البحث عن المصرية فيه . والبحث عن المصرية فى الشعر المصرى عموماً من القضايا الأدبية المعقدة ، اختلفت حولها الآراء وتباينت وجهات النظر . وكان فى الإمكان أن أكتفى بالحديث عن أوصاف البيئة المصرية فى شعر تميم . ولكننى لم أقنع بهذا المستوى ، وطمعتُ فى مصرية من الدرجة الأولى . ورأيت أن أطلع على ما يمكننى الاطلاع عليه من الشعر المصرى ، فكان مما قرأت جزءا الخريدة المتعلقان بمصر ، وما فى الجزء الأول من اليتيمة من الشعر المصرى ، وما فى « ديارات » الشابشتى منه . وقرأت كذلك دواوين : الشريف العقيلى وابن وكيع وابن مطروح وابن النبيه والبهاء زهير وابن نباتة وديوان الشاب الظريف . وكان الهدف من هذه القراءة أن أتبين كيف تتراءى مصر فى شعر أبنائها . ولم يفتنى أن أقرأ ما عرفته من كتابات المحدثين فى هذا الموضوع . ولما شرعت فى كتابة فصل المصرية لقيت مشقة ، واضطررت إلى إعادة كتابته عدة مرات . وجعل هذا الفصل يتضاءل كلما أعدت كتابته حتى انتهى إلى وضعه الراهن . وقد خرجت منه بنتيجة هامة ، هى أن المصرية قضية يمكن حلها حلا مرضياً . وأرجو أن أنتفع بمعالجتى إياها هذه المرة عندما أعود إليها فى دراسات أخرى .

وأهم المراجع التى أعانتنى على البحث مؤلفات الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين ولاسيما « فى أدب مصر الفاطمية » و « المؤيد فى الدين داعى الدعاة » « ونظرية المثل والممثول » . وقد رأيت فى الكتاب الأول دراسة واسعة للأدب المصرى الفاطمى ، وفى الثانى دراسة أخرى للتشيع فانتفعت بهما أيما انتفاع ، وان سلكت طريقاً خاصاً . وفى ضوء نظرية المثل والممثول ذهبت أفسّر كثيراً من العقائد فى شعر تميم . وقد نشر السيد الأستاذ طائفة من الكتب الإسماعيلية أفادتنى إفادة جمة ، وأغرتنى بالرجوع إلى مخطوطين منها هما : « المجالس والمسايرات » و « تأويل دعائم الاسلام » للقاضى النعمان . ومن يطالع هذه الرسالة يجدنى كثير الاعتماد على

كتب القاضى النعمان فى الباب الأول والباب الثانى ، وما ذلك إلا لأنها كانت موجودة بين يدى تميم نفسه .

وقد انتفعت فى فصل المصرية بكتاب الأستاذ أمين الخولى « فى الأدب المصرى : فكرة ومنهج » ، وبما قرأت من كتابة الدكتور عبد اللطيف حمزة فى هذا الموضوع[1] ؛ فحاولت أن أحقق شيئا مما دعا إليه الأول ، وأفادنى تصور الثانى للمصرية ودفاعه عنها .

وكان لكتابىْ « الفاطميون فى مصر » و « المعز لدين الله » يد على هذا البحث ، إذ ألقيا الضوء على المجال الذى عاش فيه تميم ، وكذلك فعل كتابا « الحالة الاقتصادية فى مصر فى عهد الفاطميين » للدكتور راشد البراوى ، وكنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن .

أما ديوان تميم فيحسن أن أقف عنده قليلا لأحدد مقدار انتفاعى به . لهذا الديوان مقدمة ، وعليه شروح لغوية وأخرى تتعلق بالتشيع . وقد أفادتنى مقدمته فى الفصل الثانى من الباب الأول فأخذت منها حقائق بعد أن رجعت إلى المصادر الأولى ، ولكننى رأيت رأيا مخالفا لرأى فيها مرة ، وعرفت لأحد نصوصها مصدرا أقدم من المصدر الذى أشارت إليه مرة أخرى . وكانت فائدة الشروح محدودة بالنسبة إلى فى البابين الثانى والثالث ، لأن ما جاء فيها عن التشيع قد سبق أن قرأته فى كتب مثل « ديوان المؤيد فى الدين » ، ولأن أعتمادى فى تحليل الجانب غير الحزبى من شعر تميم إنما كان على معلوماتى وقراءاتى فى الشعر العربى . ولكن هذه الشروح أفادتنى فى الحديث عن انحرافات تميم اللغوية ، وإن كنت قد أضفت إليهْا ، وأكثرت من ضرب الأمثلة .

ومهما أنس فلن أنسى فضل إشراف المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين على بحث الماجستير الذى هو أصل هذا الكتاب ، ذلك الهادى السالكين دربَ الأدب العربى فى مصر ؛ ولا أنسى فضلَ المناقشة المثمرة للأستاذين الجليلين : الدكتور عبد العزيز الأهوانى رحمه الله ، والدكتور شَوقى ضيف متعنا الله بطول بقائه معافى . فجزى الله أساتذتى الثلاثة أوفى الجزاء .

---

(١) راجع مقدمة « الحركة الفكرية فى مصر » و « بعض بذور الشخصية المصرية » بمجلة كلية الآداب ـ المجلد الخامس عشر جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٣ .

البـــــاب الأول

الفصل الأول

الحياة العامة

عاش تميم فى ظل ثلاثة من الخلفاء الفاطميين ؛ فقد ولد فى الأعوام الأخيرة من حكم المنصور ، وشب فى كنف والده العظيم ، واستغرق كل أيامه ، وذهب بتسعة أعوام من عهد أخيه . فكانت الفترة التى عاشها الشاعر هى خير أيام الدولة الفاطمية . فلننظر نظرة عامة إلى الحياة من حوله .

أ ـ الحالة السياسية

سياسة المغرب :

الحالة الداخلية : عرف المغرب عصبية تشبه تلك التى كانت فى شبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان البربر طائفتين متنافرتين : بترا وبرانس[1] . وبرز من البتر قبيلة زناتة ، ومن البرانس قبيلتا كتامة وصَنْهَاجَة ـــ . ولما اتصل الدعاة الفاطميون بالبربر وجدوا من كتامة ترحيبا . وحينما نزل عليها أبو عبد الله الشيعى وعبيد الله المهدى التفت حولهما ، واحتضنت الدعوة الفاطمية ، وقدمت من أجل نصرتها الكثير[2] ؛ لأنها كانت تريد أن يقوم فيها ملك يعزُّ به جانبها ، وترجح به كفة البرانس[3] .

وقد فطن البتر لمرامى خصومهم ، فعارضوا الدعوة الجديدة ، وحاربوها حربا سافرة منذ أيام المهدى[4] . ولما كان الفاطميون يجتهدون فى نشر مذهبهم فى المغرب فإنهم اصطدموا بأهل السنة والخوارج المنتشرين هنالك ، فواجهوا عدوا تدفعه

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢ .

(٣) راجع بحث الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود عن « بنى زيرى » وتاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٣ .

(٤) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٣٦ .

العصبية ، وتحفزه العقيدة . وكانت الثورة الجامحة التى قام بها أبو يزيد مَخْلد بن كيداد هى ذروة الصراع بين الفريقين . وقد لعبت صنهاجة دورا بارزا فى مناهضة هذه الثورة ، وكان لها فضل كبير فى القضاء عليها[١] . ولم تنته ثورة أبى يزيد بموته ؛ فقد اتفق ابنه فضل مع معبد بن خزر على تجديدها . وهزم الخليفة المنصور معبدا أولا ثم هزمه وفضلا ثانيا . وعاد فضل ابن أبى يزيد فثار مرة أخرى فى جبال أوراس معقل الثائرين ، ولكنه قُتِل غيلة[٢] . ومضى زميله معبد بن خزر فى الثورة حتى هُزِم أخيرا ، وأرسل مع ابنه إلى المنصور فقتلهما عام ٣٤١ هـ[٣]

وبعد لأى انقلب على المعز لدين الله واليه محمد بن على الزناتى ثم عمت الثورة المغرب الأقصى ، واعْلِنَ هنالك خليفة رابع . فانطلق جوهر الصقلى فى حملته الكبيرة يصحبه زيرى بن مناد الصنهاجى وغيره . وأخذت الحملة تخضع الثوار ، وتتوغل فى المغرب حتى بلغت المحيط الأطلسى .

وفى الوقت الذى كان فيه جوهر ـ وقد فتح مصر ـ يرتعد من خوف القرامطة فى المشرق ويحث سيده على القدوم ، كان المعز يقاوم فى المغرب الفتنة التى اشعلها محمد بن خزر . فقد راح هذا الثائر يجاهد الفاطميين جهاداً عنيفاً ، فلما واجه الهزيمة انتحر عام ٣٦٠ هـ . فسر المعز بموته سروراً عظيماً وجلس ليتلقى التهنئات من الناس[٤] . وأنشده شاعره محمد بن هانى الأندلسى قصيدة طويلة فى تلك المناسبة السعيدة[٥] . ورأى الخليفة المعز إذ ذاك أن وقت الانتقال إلى مصر قد حان . وما إن أزمع الرحلة حتى نشب خلاف بين جعفر بن على واليه على المسيلة وزيرى بن مناد . وارتمى جعفر فى أحضان إحدى القبائل البترية ، وتمرد على المعز لدين الله ، وخلع طاعته ، فسار إليه زيرى الصنهاجى . ولكن النصر كان حليف البتر هذه المرة ، فأوقعوا الهزيمة بخصومهم التقليديين ، وقتلوا الزعيم القوى[٦] . وما أسرع ما قام فى

---

(١) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٥٣ .

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٩ .

(٥) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٥٩٣ .

(٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٤ .

صنهاجة بلكين ابن الزعيم المقتول ، فلم شعث قومه ، واندفع نحو البتر ، وروى غلته من دمائهم ، وانتزع منهم النصر[١] . فاطمأن المعز إلى زعامته ، وولاه شئون المغرب ، وتركه يصارع الثائرين[٢] .

الفاطميون والأمويون : لما ظهر عبيد الله المهدى ، وأعلن خلافته فى المغرب جعل يشيع فى الناس أنه الخليفة الحق . وكان يطمع أن يدحر سائر الحكومات ، ويسترد ما عده حقاً إلاهيا فى حكم المسلمين . وما كان الأمويون ليهدأ لهم بال وقد قامت على مقربة منهم خلافة جديدة متوثبة ، تريد السيطرة على العالم الإسلامى . فساءت العلاقة بينهم وبين الفاطميين منذ وقت مبكر . وأخذ عبيد الله المهدى يتدخل فى شئون الأندلس ، ويحرض الثائرين[٣] . وراح عبد الرحمن الناصر يستغل العصبية البربرية ، ويحرض الخارجين على الفاطميين ، فمالأ محمد بن حزر وموسى بن أبى العافية عليهم[٤] . وظل يتبع هذه السياسة أيام القائم بن المهدى والمنصور بن القائم[٥] . فلا عجب أن يدعو أبو يزيد نَفْسُه للناصر[٦] ، وأن يتآمر مع الناصر محمد بن يعلى ، وأن يرسل جعفر بن على رأس زيرى بن مناد إلى قرطبة[٧] .

ولم ينحصر نشاط الأمويين المعادى فى بر المغرب ، وإنما انتقل إلى البحر الأبيض المتوسط . ففى عام ٣٤٣ هـ هاجم أسطول الناصر إحدى السفن الفاطمية قرب صقلية ، فأرسل المعز أسطوله ليطارد سفن أعدائه ، فتمكن أن ينتصر عليهم أمام شواطىء الأندلس ، وأن يعود بالغنائم . وثأر الناصر بأن فاجأ شواطىء المغرب بأسطوله ، وأحرق مرسى الخزر وهى إحدى الموانى المغربية . ثم عاد أسطوله بعد ذلك فانتصر على الأسطول الفاطمى ، ونزل جيشه المغرب[٨] . فلم يجد المعز بدا

---

(١) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٥٥ .

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٨ ص ٢٦٤ وتاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٣٧ .

(٤) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٣٥

(٥) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٣٥ ـ ١٣٦

(٦) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١

(٧) المصدر السابق جـ ٦ ص ١٥٤ ـ ١٥٥

(٨) المصدر السابق ج ٤ ص ٤٦ والمعز لدين الله ص ٣٩ .

بسبب هذه النكسة وبسبب الفتنة التى كانت مشتعلة من أن يرسل حملة جوهر الكبيرة ، فأخضعت المغرب كله إلا مدينة سبتة التى ظلت تابعة للأمويين[١] .

وكانت الظروف تحمل المعز والناصر على المهادنة أحيانا ، فتغدو بينهما الرسل وتروح ، وتدور مفاوضات[٢] ، ثم لا يطرأ على موقف كل من صاحبه تغير ذوبال ؛ فقد كان الصراع بين الجانبين أكبر من أن يلتئم . وما هى إلا برهة ثم تنقضى الهدنة ، ويعود الطرفان إلى الصراع . ولم يتحسن الموقف برحيل المعز إلى المشرق ؛ فقد ورث بلكين بن زيرى كره سيده للأمويين ، وسار فيهم سيرته[٣] .

الفاطميون والروم : استولى الفاطميون على صقلية منذ قيام دولتهم ، وراحوا يغيرون على شواطىء إيطاليا[٤] التابعة للدولة البيزنطية ، فأحس البيزنطيون خطرهم وأظهروا لهم العداء منذ البداية . وقد حمل القائم لواء الصراع بعد وفاة أبيه المهدى[٥] ، وتناوله بعده ابنه المنصور[٦] . واحتدم النزاع بين الفاطميين والبيزنطيين أيام المعز ، فحالفوا الأمويين وشاركوهم محاربته[٧] .

وكانت صقلية ميداناً من الميادين التى اقتتل فيها جنود المعز والبيزنطيون ، فوقعت هناك حروب عنيفة من أهمها تلك التى دارت رجاها فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع . فقد استولى أحمد بن الحسن على طبرمين وبعض المدن ، وحاصر رمطة ؛ فاستصرخت المدينة المحصورة القسطنطينية ، فجاءها مَدَدٌ بلغ أربعين ألفا . وأمد المعز جيش صقلية بمدد على رأسه الحسن والد حاكم الجزيرة . وقاتل الفاطميون بشجاعة فائقة حتى انتزعوا النصر من الأعداء ، وأسروا الألوف منهم ، وقتلوا مانويل القائد ، وأسروا زميلا له ، ووقعت فى أيديهم غنائم جمة ، واستسلمت لهم رمطة الحصينة . ثم طاردوا فلول البيزنطيين ، وانتصروا عليها فى معركة بحرية تسمى معركة

---

(١) O'leary, Ashort History of The Fatimide khalifite, P.qq.

(٢) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٤٢ .

(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٥٤ .

(٤) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٠٨ ، واتعاظ الحنفا للمقريزى ص ١٠٨ .

(٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٧) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٤٠ .

ذى الحجاز عام ٣٥٤ . ولم تقو أعصاب الحسن على تحمل النصر ، فمات من شدة الفرح[١] .

وفى تلك الأثناء ظهر فى أوربا أوتو الجرمانى ، وكان يسعى إلى توحيد إيطاليا والقضاء على نفوذ الفاطميين والبيزنطيين فيها . فرأى الأمبراطور البيزنطى نقفور فوكاس أن يحالف المعز ليدفع به خطر أوتو من جهة ، وليأمن عادية الفاطميين من جهة أخرى . فأرسل رسوله إلى المنصورية ، ورحب المعز بالرسول البيزنطى ، لأنه كان يوشك أن يغزو مصر ، فمن الخير له أن يوادع الروم البيزنطيين وينفرغ للمشرق[٢]

سياسة المشرق :

الفاطميون والدولة العباسية : روى القاضى النعمان عن المعز لدين الله قوله : « . . وسمعتُ المنصور بالله (صلعم) : أمر المهدى بالله القائم بأمر الله ع . م . بالنهوض إلى مصر . فقال : ياأمير المؤمنين ، قد خوَّلك الله وملَّكك ، وأعطاك من الدنيا ما فيه سعة وكفاية ، فعلام تغمّ نفسك ، وتشغل صدرك ؟ دع هذا حتى يأتى به الله عفوا . فقبض (ص . ع) كفه اليسرى وقال : نعم ، هذا المغرب فى قبضتى هذه . وبسط اليمين وقال : ولكن كفىّ من المشرق صفر . إن ثقل عليك ما أمرت به خرجت له بنفسى . قال : بل أنفد لما أمرتَ به ياأمير المؤمنين ، وأسارع إليه[٣]» وهذه الرواية تصور طمع عبيد الله المهدى فى المشرق خير تصوير . والحق أن التوسع شرقا كان من أكبر أهداف الخليفة الأول المهدى ، فحاول مرارا أن يستولى على مصر[٤] ليحرم العباسيين واحدا من أغنى الأقاليم ، وليتخذها معبراً إلى الشام والعراق .

ويعبر شاعر المهدىّ الورجيلىُّ عن أمنية سيده هذه فيقول :

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٠٩ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٥٩ ـ ٦٠ .
(٣) القاضى النعمان ـ المجالس والمسايرات م٢ جـ ١ ورقة ١٩ ـ ٢٠ .
(٤) الدكتور حسن ابراهيم ـ الفاطميون فى مصر ص ٨١ ـ ٨٦ .

كفىً عن التفنيد إنى زائر ... من أهل بيت الوحى خير مَزُورِ
هذا الإمام الفاطمى ومَنْ به ... أمنتْ مغاربها من المحذورَ
والشرق ليس لشامه وعراقه ... مِنْ مَهْرَبٍ مِنْ جيشه المنصور
حتى يفوز من الخلافة بالمنى ... وَيُفَازَ منه بعدله المنشور(١)

وقد حاول القائم أن يفتح مصر فى أول عهده ، ثم شغلته فتنة أبى يزيد(٢)فلم يفرغ للعباسيين . فلما آلت الخلافة إلى حفيده المعز كانت الدولة الفاطمية فى أوج قوتها ؛ فكان حريا لمن يطمع فى التوسع شرقاً والقضاء على الخلافة العباسية . ولذلك لهج بمطمعه كثيراً . قال لشيوخ كتامة : « . . . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم(٣) . وقال متحدثاً عن أحد كبار موظفيه وهو الأستاذ جوذر : « . . . وأرجو أن يمد الله فى عمره حتى يحج معنا ، ونعطيه مما يُضْرَبُ لنا ببغداد »(٤) . فهو يتمنى أن تخضع له الحجاز والعراق ، فيحج هو وجوذر آمنيْن ، وتضرب باسمه العملة فى بغداد ، ويعطى تابعه دنانير منها ودراهم . وهذا المطمع تغنى به فى المغرب شاعر البلاط ابن هانىء الأندلسى(٥) .

وكانت الدعاية الفاطمية فى ذلك الوقت نشيطة فى المشرق ، تبشر المسلمين بالدولة المهدية ، وتعدهم العدل والهدى . وكانت موفقة حتى إنها استمالت كافورا نفسه ، فقبل عددا من الدعاة فى بلاطه(٦) ، كما اجتذبت قلوب البويهيين المسيطرين على بغداد وخلافتها ، وحببتهم فى الفاطميين(٧) .

---

(١) المقريزى ـ اتعاظ الحنفاص ١٠٦ واسم هذا الشاعر : الورجينى فى رياض النفوس للمالكى ج١ ص ٤٠٤ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم ـ الفاطميون فى مصر ص ٨٦ ـ ٨٧ .
(٣) المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ص ١٣٨ .
(٤) سيرة الأستاذ جوذر ص ١١ . أنظر كذلك ص ١١٢ ، ١٣٧ .
(٥) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٣٣٥ ـ ٣٥١ ، ٤٠٧ ، ٤٣٢ ـ ٤٣٧ ، ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ، ٦٨٢ ـ ٦٨٣ ، ٧٣٨ ـ ٧٤٠ .
(٦) O'leary, A short History of the Fatimide Khalifate, P.94
(٧) الدكتور حسن ابراهيم ـ تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ١٠٢ .

وفى عام ٣٥٦ ه رأى المعز أن فتح مصر قد حان ؛ فقد مات كافور ، وانتشرت المجاعة بمصر وفشا الطاعون . فحفر الآبار ، وأنشأ المحاط للجيش ، ثم سير إليها جوهرا الصقلى ففتحها عام ٣٥٨ هـ[١] . وأرسل جوهر جعفر بن فلاح إلى الشام ، فقضى على الاخشيديين هناك ، وأرسل زعيمهم الحسن بن عبد الله بن طغج أسيراً إلى مصر[٢] . وقد بادر حسن بن جعفر الحسنى ـ وهو ممن شملهم إحسان المعز ـ فسيطر على مكة المكرمة ، ودعا فيها للمعز[٣] .

وورث العزيز بالله ملك أبيه الواسع ، فحافظ عليه وزاده اتساعا[٤] . وكان يريد الاستيلاء على بغداد كما تدلُّ الأحداث وكما يدل شعره[٥] . فحاول أن يستميل إليه البويهيين الذين تنكروا لأبيه ، وأرسل إليهم الرسل[٦] . ولكن حكام بغداد كانوا لا يزالون يخشون أن يصيروا غثاء التيار الإسماعيلى ؛ فلم يستجيبوا للعزيز ، ولم يتمكن هو من اغتصاب بغداد ، لقوة البويهيين ، وانشغاله بفتن الشام المتصلة . فصار ما كان يريده حلما أورثه ذريته من بعده[٧] .

الحالة الداخلية : قدم جوهر للمصريين ميثاقا فيه رفق[٨] ، ففرحوا به ، وتفاءلوا بالعهد الجديد ، فقد وعدهم جوهر العدل وحرية العقيدة فيه . ولكن ما حدث أنّ الفاطميين لم يدعوا المصريين أحرارا فى عقيدتهم ؛ فبعد شهور قليلة من الفتح أدخل جوهر على الصلاة سننا شيعية[٩] . وفى جمادى الأولى من عام ٣٥٩ هـ أدخلت عبارة « حىّ على خير العمل » فى الأذان ، فأُذّن بها فى جامع أحمد بن طولون ، وعمت جوامع الجيش[١٠] . وانتقلت هذه العبارة إلى جامع عمرو بن العاص فى آخر

---

(١) Lane Poole, History of Egypt, P. 101

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ٨ ص ٢٣٣ .

(٣) المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ص ١٤٦ .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم ـ تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٥٧ .

(٥) الدكتور محمد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية ص ١٣٢ .

(٦) ابن العماد ـ شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٦٨ .

(٧) انظر مؤامرة البساسيرى ص ٤١ ـ ٤٨ ـ من ديوان المؤيد فى الدين ، وانظر خطط المقريزى جـ ١ ص ٤١٨ .

(٨) المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ص ١٤٨ .

(٩) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

الشهر فأذن بها هناك[١] . ولم ينس جوهر أن يجرى طريقة الفاطميين فى الصيام الذى يبدأ برؤية الإمام لا الهلال . ولما بلغه أن القاضى السنىّ أبا طاهر قد راقب الهلال من فوق سطح الأزهر هدده[٢] . ولما اضطر الفاطميون إلى الإبقاء على أبى طاهر قاضيا مراعاة لشعور السنيين أشركوا معه عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان فى القضاء . فلما مات عبد الله أحلوا محله على بن النعمان الشيعى[٣] ، وظلوا يضيقون على أبى طاهر[٤] . وكانت سياستهم منذ البداية أن يجعلوا شريكا شيعيا لكل عامل سنى[٥] . وكانوا يرمون من وراء هذه السياسة إلى نشر المذهب الإسماعيلى فى مصر . ولكن المصريين — وإن أحبوا أهل البيت — لم يكونوا مستعدين لتقبل الإسماعيلية ، أو الرضا بما فيها من التواء وانحراف عن جادة مذاهبهم . ثم إن مصر والشام لم تخلوا من فلول الإخشيديين وأنصارهم ، فقام هؤلاء وأولئك بمناهضة الحكام الجدد .

ولم يكتف المصريون بسلّ الفاطميين بألسنتهم ، فكان لهم نشاط عملىّ معاد للحكومة الجديدة ، ولذلك رأينا جوهرا يلجأ إلى الاعتقال والصلب والقتل[٦] . ويحدثنا المقريزى عن عجوز خرجت تُنشِد فى الطريق فى شهر رمضان عام ٣٦١ هـ فالتفّ حولها الناس ، وراحوا يعرِّضون بعلى بن أبى طالب[٧] ؛ كما يحدثنا عن ثورة قام بها أهل تنيس[٨] . وكان الجنود المغاربة منهم الغلاظ الذين لم يتورعوا عن النهب والاعتداء . وهذه الغلظة كانت تؤدى إلى اشتباكات بينهم وبين المصريين . والإشارات متكررة إلى وقوع تلك الاشتباكات قبل قدوم المعز وبعد قدومه[٩] . فكان أنْ عزل أولئك الجنود فى القاهرة[١٠] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٣) د . حسن ابراهيم ود . طه شرف — المعز لدين الله ص ١٩٧ .

(٤) المقريزى — اتعاظ الحنف ص ١٧٠ .

(٥) المصدر السابق ص ١٦٨ .

(٦) المصدر السابق ص ١٦٨ — ١٧٢ .

(٧) المصدر السابق ص ١٨٢ .

(٨) المقريزى — اتعاظ الحنفا ص ١٨١ .

(٩) المصدر السابق ص ١٨٣ ، ١٩٧ ، ٢٠١ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٩٧ .

أما الإخشيديون فلم يلقوا علم الكفاح بعد أن هزمهم جوهر ؛ فالمقريزى يحدثنا أن الزعماء الإخشيديين الباقين فى مصر جمعوا شملهم فى نهاية عام الفتح وهموا بالثورة . فتحايل عليهم جوهر ، وقبض عليهم وأرسلهم إلى المغرب[١] . ويحدثنا فى موضع ثان أن تِبْرًا الإخشيدى ثار فى الوجه البحرى ، فاضطر جوهر أن يرسل إليه جيشاً هزمه فى الدقهلية . فهرب إلى الشام حيث قبض عليه ، وأعيد إلى مصر فانتحر[٢] .

لكن الفتن العارمة إنما كانت فى الشام ! فقد تضافرت عوامل مختلفة على الحكم الجديد ، وحاولت القضاء عليه . وكانت تلك العوامل تتمثل فى القرامطة وبقايا الإخشيديين والقبائل العربية هناك وأهل الشام مضافا إليها دسائس العباسيين . وكان من صالح كل فريق من هؤلاء ألا يستقر النفوذ الفاطمى فى الشام . فالقرامطة كانت لهم إتاوة على الإخشيديين ، وكان الفريق الذى يتزعمه الحسن الأعصم منهم خارجا على المعز فى تلك الأيام[٣] . والإخشيديون ما كانوا ليقروا عيناً برؤية جعفر بن فلاح يحكم الأرض التى كانت لهم . والقبائل العربية كان لها نفوذ فى مناطق من فلسطين وشمالى سوريا ، ثم جاء الحكم الفاطمى فقضى عليه . وأهل الشام كان أكثرهم سنيين ، فما يرضيهم حكم إسماعيلى المذهب . والعباسيون هم العدو . كانت مصر والشام تحكمان باسمهما ، وها هم الفاطميون ينتزعونهما ويهددون بغداد نفسها ؛ فلا غرو أن يعملوا مع العاملين على هدم سلطان الفاطميين ما قدروا .

فلما سار جعفر بن فلاح القائد الفاطمى لفتح بلاد الشام بادر القرامطة إلى الرملة فاحتلوها ، ولكنهم لم يلبثوا أن هزموا ، وانقطعت الإتاوة التى جعلها لهم الإخشيديون . فاستعد الأعصم لمناهضة الفاطميين ، وسلحته حكومة بغداد ، وطلبتْ من أبى تغلب الحمدانى أن يمده بأربعمائة ألف درهم . وسار الأعصم إلى دمشق فهزم جعفرا وقتله ، واستولى على كثير من مدن الشام . ثم دخل مصر حيث التف حوله الطائيون وبقايا الإخشيديين ، وحاصر القاهرة نفسها ، ولكنه هُزِم .

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧١ ، ١٨١ .

(٣) أنظر المعز لدين الله للدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ص ١٠٠ وما بعدها .

وارتاع المعز لما بلغته أخبار القرامطة ، فحضر إلى مصر . وفى أيامه دخل الأعصم مصر غازيا مرة أخرى . فلجأ الخليفة الداهية إلى الحيلة ؛ فرشا زعيم الطائيين على أن يغدر بالأعصم ، وانهزم القرامطة . وتعقبهم القائد أبو محمود فى جيش فاطمى ، ثم رجع إلى دمشق فقبض على واليها وكان من القرامطة ، وأرسله إلى مصر .

وعاث جنود أبى محمود فى المدينة فساداً ، فثار أهلها ، وشب فيها الحريق ، واستمرت الفتنة حتى عام ٣٦٤ هـ . ثم اصطلح الفريقان على أن يلى شئون البلد والٍ آخر . وعاد المغاربة إلى ما كانوا يفعلون فتجددت الثورة ، والتهمت النار المدينة . فغضب المعز ، وأمر والى طرابلس أن يعزل أبا محمود من قيادة الجيش ، ولكن والى طرابلس لم يستطع أن يهدىء ثائرة الأهالى .

وفى تلك الأثناء ظهر أفتكين التركى[1] على مسرح السياسة ، فاتصل به الدمشقيون واتفقوا معه على حرب الفاطميين . فدخل المدينة وطرد المغاربة ، وأقرّ النظام فى دمشق ونواحيها ، وأعاد الخطبة لخليفة بغداد ، وأرسل إلى المعز يطلب منه أن يدخل فى طاعته . وتقدم فى الشام يستولى على أقاليمه واحدا بعد واحد .

وخرج جوهر من مصر يريد حرب أفتكين ، فراسل أفتكين الأعصم ينشد معاونته . فرحب القائد القرمطى بطلب أفتكين ، ووجد فرصته للانقضاض على عدوه . وسار الأعصم من الأحساء فالتفت حوله قبائل العرب والأهالى . ومات المعز فى تلك الأثناء تاركا قائده فى موقف لا يحسد عليه . وأُجْبِر جوهر أخيراً على الانسحاب ، فعاد إلى مصر ذليلا .

وأحسن العزيز الخليفة الجديد حرجاً شديداً ، فجمع جيوشه وخرج معها إلى الشام . والتقى هو والقرامطة عند الرملة ، وقاتلهم قتالا شديداً ، وانتصر عليهم فى النهاية ، وأسر أفتكين ، وأفلت منه الأعصم . وأحسن العزيز إلى الأسير ، وجعل لزميله المفلت إتاوة يأخذها كل عام .

---

(١) أفتكين هو أحد قُوَّاد عز الدولة . وقد تولى زعامة الأتراك الثائرين عليه . ولكنه انهزم امام عز الدولة فى العراق ، فسار إلى الشام حيث رحب به الناس . تاريخ ابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ .

ولم ينته شر الفتنة بعد موقعة الرملة ، وإنما ظل ممتدا حتى عام ٣٧٢ . فبعد أن انتصر العزيز أرسل أبا محمود إلى دمشق ليليها ، فوجد أبو محمود أحد زملاء أفتكين ـ واسمه قسّام ـ يحكم المدينة باسم العزيز . فحاول إخراجه ولكنه أخفق . واستمر قسام يحكم وأبو محمود لا يملك معه شيئاً . ويبدو أن قساما كان يعتمد على تأييد الدمشقيين وسيوفهم ، وكان الدمشقيون يكرهون أبا محمود الذين عبثّ بهم رجاله ، وأحرقوا البلد منذ سنوات قليلة .

وحاول العزيز أن يتخلص من قسام ، فأرسل إلى دمشق جيشاً ، ولكن قساما لم يستسلم وعاد الجيش يجر أذيال الخيبة . فوجه العزيز آخر عام ٣٦٩ هـ بقيادة سليمان بن جعفر الذى مات أبوه وهو يصارع القرامطة ، فحاربه أهل الإقليم وردوه مهزوماً .

وكان مفرج بن الجراح الطائى قوى الشوكة فى تلك الآونة ، فاستبد بفلسطين وعاث فيها فساداً ، فبعث إليه العزيز قائده بلتكين ليفل شوكته . فلما فرغ بلتكين من أمر الطائيين سار إلى دمشق وحارب قساما . ودخل المغاربة المدينة ، فعبثوا ونهبوا ، وأشعلوا النار فى أحيائها كعادتهم . وطلب الدمشقيون الأمان ، واستسلم قسام ، وأرسل إلى مصر فأكرمه العزيز .

وتولى بكجور دمشق ، فدخلها عام ٣٧٣ فعاد القلق إلى المدينة السنية ، وسادتها الفوضى سنوات . فأرسل العزيز قائده منيرا ليقضى على القلق ، وليحارب الحمدانيين الذين طلبوا مساعدة الروم ! وهكذا تعقدت الأمور ، وبدأ الروم البيزنطيون يتدخلون تدخلا سافرا[١] .

ولم يدم صفو بلاد العرب للدولة الفاطمية . فبعد موت المعز قطع أهل مكة المكرمة الخطبة للعزيز . فسيرّ إليهم جندا أخضعوهم ، واضطروهم أن يعودوا إلى حظيرة الطاعة[٢] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص ٥٠ ـ ٥٤ واتعاظ الحنفا للمقريزى ص ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ـ ٢٠٤ . وقد فصّلتُ الحديث عن فتن الشام لعلاقتها الوثيقة بشعر تميم ، ولتأييد رأيى وهو أن تميما لم يُنْفَ إلى الشام . أنظر الفصل الثانى من الباب الأول من الكتاب .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٦٣ .

الفاطميون والروم البيزنطيون : جلس زيمسكس على عرش القسطنطينية بعد أن فتح جوهر مصر ، فاحتاج إلى أن يعيد النظر فى سياسة سلفه . لقد كان من الخير لبيزنطة أن تسالم الفاطميين وهم فى دور المغرب لتتقى بهم خطر أوتو ، ولتأمن شرهم . أما وقد فتحوا مصر ، وتوغلوا فى الشام فقد أصبحوا خطرا على الدولة البيزنطية تجب مدافعته ؛ ولذلك استأنف زيمسكس العداء القديم .(١) وحينما أرسل المعز حملته للاستيلاء على انطاكية ، واعترضها القرامطة فتراجعت ، أرسل زيمسكس جيشاً لمعاونة المدينة ، وأعاد تحصينها . وبعد ذلك سار زيمسكس بنفسه على رأس جيش كبير لاستخلاص بيت المقدس ، فكانت هذه حملة صليبية . وسقطت المدن فى يده تباعاً ، ولكنه لم يستطع أن ينتزع المدينة المقدسة من أيدى المسلمين ، فعاد خائباً .(٢)

وخلف العزيز أباه ، وقبض باسيل على مقاليد الأمور فى القسطنطينية . ولم يكن كلا الجانبين فارغاً فى أول عهده للصراع ، فقد انشغل العزيز بالفتن التى شملت ملكه ، وقضى باسيل الأعوام الأولى من حكمه فى مناضلة الثائر باردس سكليروس . وقد ذكرت كتب التاريخ مع ذلك حروباً دارت بين جيوش العزيز وجيوش البيزنطيين فى بلاد الشام(٣) . وفى عام ٣٧١ هـ نشب فى صقلية قتال مشهور .(٤)

ب ـ الحالة الاقتصادية

يقول المقدسى عن منطقة المغرب وصقلية والأندلس : « هذا إقليم بهىّ ، كبير سرىّ ، كثير المدن والقرى ، عجيب الخصائص والرخاء . . . قد غاب فى الزيتون مدنه ، والكرمات أرضه ، يجرى خلالها الأنهار ، ويملأ غيطانها الأشجار .(٥) »ويقول عن تاهرت من المغرب : « . . . قد أحدق بها البساتين ، والتفتْ بها الأشجار ، وغابت فى البساتين ، ونبعت حولها الأعين ، وجلّ بها الإقليم »(٦) .

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ٨ ص ٢٦٥

(٢) The Cambtidge Medieval History Vol. V,p. 147 . V, p. 147

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٤٧ ، ١٦١ .

(٤) ابن الاثير ـ الكامل جـ ٩ ص ٥ ـ ٦ وتاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٢١٠ .

(٥) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ٢١٥ ـ ٢١٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

ومن يقرأ ما كتبه هذا الرحالة ومعاصره ابن حوقل ـ وهما معاصران للشاعر تميم بن المعز ـ يَرَ المغرب كثير الغلات ، وافر البساتين . وطبيعى أن يستغل الفاطميون تربة المغرب أحسن استغلال ممكن ، لأنهم قوم اقتصاديون ، فيعتنوا بالمزارع والحدائق ، فينشط الزراع ، وتربو الزراعة .

أما الصناعة فيبدو أنها لم تكن متفوقة فى بلاد المغرب . نعم ، فى « سيرة الأستاذ جوذر » إشارات إلى نشاط صناعى ، تمثل فى صناعة السفن[١] ، كما تمثل فى دار الطراز[٢] . وفى الكتاب « صورة الأرض » دلائل على وجود صناعات هناك .[٣] غير أننا نجد عبد الرحمن الناصر يفخر على المعز لدين الله بأن بلاد الأندلس متفوقة فى صناعة النسيج ، فما كان من المعز إلا أن حقَّر هذه الصناعة ،كأنه يريد بذلك التخلص من الحرج .[٤]

ولما كان للفاطميين نفوذ قوى فى البحر الأبيض وصقلية ، فلا شك أن التجارة الخارجية قد نشطت فى ظلهم . وكانت الموانى المغربية مراكز تجارية منتشرة على الساحل الطويل ، كماكانت صقلية مركزا تجاريا ممتازا . فكانت المهدية العاصمة القديمة ميناء تمر به سفن الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها .[٥]وكانت المنصورية العاصمة الجديدة ميناء أيضاً . وعرفت برقة بأنها مدينة تجارية[٦] ، وأشبهتها فى ذلك إجدابية[٧] وغيرها من الموانى . ونجد فى « سيرة الأستاذ جوذر » آثاراً لهذا النشاط التجارى ، إذ يتردد على صفحاتها الحديث الدائر حول السفن التى تحمل المتاجر عبر البحار .[٨]

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر ص ٩٧ .
(٢) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٠٠ .
(٣) ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٧٣ ،، ٩٤ .
(٤) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٣٢٩ .
(٥) البكرى ـ المغرب ص ٢٩ .
(٦) ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٦٦ .
(٧) المصدر السابق ص ٦٧ .
(٨) انظر سيرة الأستاذ جوذر ص ٨٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٧ ، ١٣٦ .

وكانت التجارة الداخلية نشيطة كذلك كما تدل كتابات المقدسى وابن حوقل . وقد لحظ المقدسى أن منطقة المغرب والأندلس وصقلية منطقة ترتفع فيها نسبة اليهود(١) ، وهذا من شأنه أن ينشط التجارة .

ولم تخل أرض المغرب من مصادر أخرى للثروة ، فكان فيها مناجم الذهب والفضة قرب سجلماسة(٢) ، والحديد والفضة فى مجانة(٣) ، والحديد فى إربس(٤) والمرجان فى مرسى الخزر .(٥)

وانتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر ، فإذا هى بلاد زراعية من الطراز الأول ، يجرى فيها النيل العظيم ؛ وبيئة صناعية طبقت شهرتها الآفاق ، ووصلت مصنوعاتها إلى أوربا ؛ ومنطقة عريقة فى التجارة منذ القدم ، ترسو فى موانيها سفن العالم .

ولكن مصر هذه يوم دخلها جوهر كانت تعانى عارض المجاعة ، وتكابد الطاعون وتموج بالفوضى والشرور . وقد عزم الفاطميون على إصلاح الحال ، فاهتموا بالزراعة وعنى المعز ومن بعده بالجسور وتطهير الترع ، وتشجيع الزراع(٦) ، فتقدمت الزراعة وتحسنت الأحوال .(٧)

واهتم الفاطميون بالصناعات المختلفة ولا سيما صناعة النسيج التى اشتهرت بها مصر فى كل عصر ؛ فنشطت المناسج فى كل الأرجاء كتنيس والاسكندرية وشطا ودمياط ودبيق والفرما فى الشمال ، والبهنسا ودميرة وإخميم وأسيوط فى الجنوب .(٨) وإلى ذلك كان لبعض الأمراء مناسج خاصة(٩) . وقد جرت العادة أن تزين المنسوجات وغيرها بالكتابة عليها .(١٠)

---

(١) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٣١ .
(٣) ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ٨٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٨٧ .
(٥) المصدر السابق ص ٧٢ وأحسن التقاسيم للمقدس ص ٢٣٦ .
(٦) الدكتور راشد البراوى ـ الحالة الاقتصادية فى مصر فى عهد الفاطميين ص ١٠٣ .
(٧) المرجع السابق ص ٣٧ .
(٨) الدكتور زكى حسن ـ كنوز الفاطميين ص ١١٠ .
(٩) المرجع السابق ص ١١٨ .
(١٠) المرجع السابق ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦ .

وتحت تأثير التفوق الذى كان لمصر الفاطمية فى صناعة المنسوجات بدأتْ دراسة اقتصادية لمصر الفاطمية بالحديث عن صناعة النسيج(١) . وقد ذكر عمارة اليمنى متحسراً مِنَحَ النسيج(٢) التى اعتاد الفاطميون توزيعها شتاء وصيفاً ، وذكر معها تنيس قائلا :

وكسوة العام فى الفصلَيْن قد درست ورثَّ منها جديد عندهم وبلى(٣)

وقائلا :

ثمَّ الطراز بتنيس التى عظمت منه الصِّلات لأهل الأرض والدول(٤)

ويقول المقدسى عن مصر إنها بلد التجارات(٥) . وقد مر بها أيام الفاطميين وهى فى حالة استقرار ؛ وفى مثل تلك الحالة تروج التجارة فى الداخل . وكان أسطول الفاطميين قوياً(٦) ، وهذا يؤدى إلى نشاط التجارة الخارجية .

وكانت مصر طريقاً إلى الشام ، والشام بيئة غنية بزراعتها وصناعتها وتجارتها إلى حد ما . ولم تكن صقلية خالية من هذه المناشط ، فقد اشتهرت بتقدم صناعتها فى عصر الفاطميين ولا سيما النسيج(٧) . وهى بطبيعتها مركز تجارى .

فإذا نظرنا إلى ثروة الفاطميين وجدناها ثروة طائلة . ولهذه الثروة مصدران :

المصدر الأول هو استغلالهم الناجح لمرافق الدولة . ففى المغرب كانوا يجمعون خراج الإقليم . وكان لهم إقطاعات هناك كما نرى فى « سيرة الأستاذ جوذر »(٨) . وهذه الإقطاعات — أو الضياع كما يسميها كاتب السيرة — كانت مورداً من الموارد التى يستغلها البيت الفاطمى فى المغرب ، ويجنى منها ثروة كبيرة تنضاف إلى المال الذى يتجمع له من الخراج .

---

(١) الدكتور راشد البراوى ـ الحالة الاقتصادية ص ١٢٦ .

(٢) انظر الحديث عن منح النسيج فى خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٠٩ ـ ٤١٣ .

(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٩٥ .

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٩٦ .

(٥) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ .

(٦) Lane Poole, History of Egypt, P 112

(٧) الدكتور زكى حسن ـ كنوز الفاطميين ص ١٢٠ .

(٨) سيرة الأستاذ جوذر من ٩٩ ، ١٣٦ .

وإذا كان المغرب لم يخل من الصناعات فى تلك الأيام — شأنه فى ذلك شأن أى مجتمع — فإن الحكومة الفاطمية كانت تفرض ضرائب على الصناعات العامة .

فإذا انتقلنا إلى التجارة و جدناها مورداً مهما من موارد ثراء الفاطميين ؛ إذا كانوا يفرضون الضرائب على تجار الدولة ، ويفرضون المكوس على التجارة الأجنبية التى تمر بموانيهم أو تدخل بلادهم . وكانوا يربحون الكثير من اشتغالهم هم أنفسهم بالتجارة . ومعروف أن الفاطميين كانوا تجاراً مهرة . ونستدل من سيرة جوذر على أن الحكومة كانت تتجر(١) ، وعلى أن أفراد البيت الحاكم كانوا يتجرون(٢) .

ولعل المبانى الفخمة التى أنشأتها زوجة المعز فى مصر كانت من مالها الخاص الذى ربحت كثيراً منه من تجارتها . ولقد ماتت ابنة للمعز ، وتركت وراءها ثروة قدرت بألف ألف وسبعمائة ألف دينار(٣) ؛ فلعل بعض هذه التركة كان من مكاسب التجارة الخاصة أيضاً .

ولا ريب أن صقلية كانت تدفع للفاطميين نصيباً مما تغله أرضها وصناعاتها ، وتقدم لهم المفروض على التجارة المارة بها أو الداخلة فيها ، كما تمدهم بضريبة تجارتها الداخلية . ثم إن المعادن وما أشبهها هناك كانت من موارد ثروة الفاطميين(٤) .

ولما عزم المعز على المسير إلى مصر عيَّن على الخراج أحد رجاله المخلصين ، فما كان ليدع ثروة المغرب ، ويستغنى بثروة المشرق مهما كانت عظيمة(٥) ، فكانت الأموال ترسل إليه فى المشرق(٦) .

وفى مصر بلغ الخراج مبلغاً عظيماً ؛ فكان يتراوح بين ثلاثة ملايين من الدنانير وأربعة ملايين(٧) . وترك الإخشيديون وراءهم أراضى خاصة ، وأراضى مملوكة للدولة ، فورثتها الحكومة الجديدة(٨) . ولابد أن هذه الأراضى كانت تدر على الفاطميين أموالا جمة .

(١) المصدر السابق ص ٨٧ ، ١٠٢ ، ١٠٧ .
(٢) المصدر السابق المقدمة ص ١٢ و ص ٦٩ .
(٣) المقريزى — الخطط جـ ١ ص ٤١٥ .
(٤) ابن حوقل — صورة الأرض ص ١٢٣ .
(٥) المقريزى — اتعاظ الحنفا ص ١٤٢ .
(٦) الدكتور حسن محمود — بنو زيرى ص ٤٦ ، ٥٨ .
(٧) الدكتور رشاد البراوى — الحالة الاقتصادية ص ٣٣٣ — ٣٣٦ .
(٨) المرجع السابق ص ٥٢ .

وأما دخلهم من الصناعة فى مصر فكان عظيماً كما تدل على هذه الرواية : « واستخرج فى يوم مائة وعشرون ألف دينار معزية ، وفى يوم آخر من مال تنيس ودمياط والأشمونين أكثر من مائتىْ ألف وعشرين ألف دينار . وهذا لم يُسْمَع بمثله قط فى بلد ! إلا أنه فى أيام العزيز استخرج حبر بن القاسم وعلى بن عمر العداس وعبد الله بن خلف المرصدى فى ثلاثة أيام مائتىْ ألف دينار وعشرين ألف دينار عزيزية . . . وذلك فى أول سنة أربع وسبعين وثلاثمائة »(١) . ويلحظ أن المدن المذكورة مدن اشتهرت بالصناعة إذ ذاك .

ولم ينس الفاطميون التجارة فى مصر . فقد راحت الحكومة تواصل نشاطها التجارى مع أوربا وآسيا وإفريقيا(٢) ، وتربح من وراء ذلك الكثير . ونشطت فى ظلها التجارة الداخلية ، فعاد عليها نشاطها بنصيب كبيرمن الضرائب . وكانوا يحصلون على ضرائب أخرى من التجارة العالمية التى كانت تمر بالإسكندرية(٣) أو التى كانت تنزل أسواق مصر .

وما كانت بلاد الشام — على ما فيها من ثورات — لتحول بينهم وبين الانتفاع بما فيها من ثروات ما وسعهم الانتفاع . وأما بلاد العرب — ولا سيما مكة المكرمة والمدينة المنورة — فإنها لم تكن مورداً تنساب منه الثروة إلى خزانة الفاطميين ، فالواقع أن المعز وخلفاءه كانوا يمدون يد المعونة إلى الحرمين الشريفين(٤).

لكن الشام وبلاد العرب الخاضعة للفاطميين وغيرها كانت موارد ثروة جعل الفاطميون يجمعونها باسم الدين ، وذلك هو المصدر الثانى لثروة الفاطميين . وهو أنواع عديدة ، منها الهدايا والمنح ، وأموال النجوى(٥) التى يدفعها المستجيب إلى الداعى ، وزكاة المال وزكاة الفطر ؛ ومنها غنائم الجهاد والجزية ، وأموال الامتحان والخمس . أما أموال الامتحان فهى ما يقتطعه الإمام ممن يراه أهلا للبركة ليبلو

---

(١) المقريزى — اتعاظ الحنفا ص ١٩٩ .

(٢) الدكتور راشد البراوى — الحالة الاقتصادية ص ١٩٥ — ٢٤٠

(٣) الدكتور زكى حسن كنوز الفاطميين ص ٨ .

(٤) المقريزى — اتعاظ الحنفا ص ١٧٢ .

(٥) الدكتور محمد كامل حسين — فى أدب مصر الفاطميه ص ٢٠ .

صبره[١] . وأما الخمس فهو أن يحصى الإسماعيلى ما كسبه ، ثم يخرج خمسه للإمام[٢] .

ومن يقرأ ما كتبه القاضى النعمان فى كتابه « الهمة » وفى كتابه الآخر « دعائم الإسلام » ير تكالب الفاطميين على المال ، وتهالكم عليه ، وطمعهم الشديد فيه ، وتسخيرهم العجيب لآيات القرآن الكريم فى سبيله[٣] . ومن يطالع « المجالس والمسايرات » يصادف الدعاة يحملون المال من شتى أنحاء الأرض للإمام[٤] . ومن ينظر فى سيرة جوذر يجده يقدم العطايا بين الفينة والفينة صنيع الأتباع المخلصين[٥] .

وكان الفاطميون يحسنون التصرف فى الأموال التى تتدفق عليهم من المصدرين السالفىْ للذكر . ولانجد أحرص على المال ، وأرفق به من التجار . وتولى الأستاذ جوذر شئون الفاطميين الماليه فى المغرب[٦] فحاطها بالعناية ، وشملها بالحرص الشديد ، وأشرف يعقوب بن كلس على إدارة شؤون المعز فى مصر ، ثم واصل إدارته فى عهد العزيز . ولا يحتاج حرص يعقوب اليهودى الأصل إلى الحديث .

وقد حفظ لنا التاريخ أمارات كثيرة تدل على عظم ثراء الفاطميين ، ففى العام الذى ولد فيه تميم — وهو عام ٣٣٧ — تخير جده المنصور بقعة ساحلية ، وأرسى فيها أساس المنصورية وجعلها عاصمة ملكه ، وأنشأ فيها الكثير من القصور ، فنشطت فيها التجارة ، وتقدمت الصناعة ، وأصبحت على جانب عظيم من الرقى . قال عنها المقدسى : « وهى مدورة مثل الكأس ، لاترى مثلها ؛ ودار سلطان على عمل دار السلام ، والماء يجرى وسطها ، شديدة العمارة ، حسنة الأسواق »[٧] . وقال عنها البكرى بعد ذلك : « ومدينة صَبْره متصله بالقيروان . بناها اسماعيل سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، واستوطنها وسماها المنصورية ، وهى منزل الولاية إلى حين

---

(١) القاضى النعمان ـ الهمة ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٦ ـ ٧٣ ودعائم الاسلام للقاضى النعمان جـ ١ ٧٢ ـ ٧٣ ، ص ٨٣ ـ ٨٨ .

(٤) القاضى النعمان ـ المجالس والمسايرات ـ المجلد الثانى جـ ٢ ورقة ٣٧٨ ، ٦٦٢ .

(٥) سيرة الأستاذ جوذر ص ٤٧ ، ٩٢ ، ١٢١ ، ١٣٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٧) المقسى ـ أحسن التقاسيم ص ٢٢٦ .

خرابها . ونقل إليها مَعدّ بن اسماعيل أسواق القيروان كلها ، وجميع الصناعات . . . »[١] . وقد كان للمعز — وهو معدّ المذكور — مجهود كبير فى تجميل العاصمة حتى لاتقل عن عواصم منافسيه فى الشرق والغرب ؛ فأنشأ فيها القصور ، وغرس فى أكنافها البساتين ، وزينها بالمنتزهات ، وأجرى إليها قناة مرصوفة تستمد ماءها من نهر أيوب[٢] ، فتعاظمت المدينة فى عهده ، وضارعت قرطبة .

وإن قصر البحر الذى بناه المعز لنفسه فى المنصورية لشبيه بالقصور التى يقرأ عنها فى كتب الأساطير ، إذ اختار له رقعة واسعة ، وبنى فيها قصرا عظيم الاتساع . وفى وسط هذا القصر أنشأ بحيرة صناعية كبيرة يتوسطها قصر آخر صغير[٣] . ومثل هذا القصر يذكرنا الزاهرة التى بناها عبد الرحمن الناصر ، والزهراء التى بناها المنصور بن أبى عامر .

ولم يكتف المعز بتزيين عاصمته وحدها ، فانتشرت بساتينه فى أنحاء البلاد ، ومن بينها بساتين وادى القصارين ، فقد تخير هذه البقعة — وكانت خلاء موحشا — فصيّرها من أنزه الأماكن بما غرس فيها من صنوف الأشجار[٤] .

وهكذا واصل المنصور والمعز فى المغرب حركة البناء التى بدأها المهدى بانى المدينتين العظيمتين : المهدية والمحمدية[٥] . وهذه الحركة تدل على أن فتنة أبى يزيد لم تدمر ثراء المنصور إسماعيل ، ولم توقع الفاطميين فى أزمة مالية ؛ لأن ثراءهم كان أقوى من الأزمات .

وآية أخرى على ثراء الخلافة الفاطمية هى ما أنفقه المعز لدين الله على الحملة التى سارت لفتح مصر بقيادة جوهر الصقلى ، فقد وقف على نفقة هذه الحملة مبلغاً لايكاد يصدق ، ألا وهو أربعة وعشرون مليونا من الدنانير[٦] .

---

(١) البكرى — المغرب ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) القاضى النعمان — المجالس والمسايرات — المجلد الثانى جـ ١ ورقة ١٧٣ — ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف — المعز لدين الله ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٤) القاضى النعمان — المجالس والمسايرات — م ٢ جـ ١ ورقة ٣٨١ — ٣٨٢ .

(٥) انظر المغرب للبكرى ص ٢٩ — ٣١ ومعجم البلدان لياقوت جـ ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٨ ، جـ ٧ ص ٣٩٨ .

(٦) المقريزى — اتعاظ الحنفا ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ويروى المقريزى أنه : « لما عزم على الرحيل إلى مصر أتاه بلكين بن زيرى بألفىْ جمل من إبل زناتة ، وحمل ماله بالقصور من الذخائر ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين ، جعل على كل جمل قطعتين فى وسط كل قطعة ثقب يجمع القطعة إلى الأخرى ! فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون فى الطرق لرؤية بيت المال المحمول »[١] .

وواضح أن فى هذه الرواية والرواية التى سبقتها عن نفقة الحملة مبالغة . ولكنها المبالغة التى تدل على عظم الحقيقة ، حقيقة ثراء الفاطميين ، فهما ظلان لها .

★ ★ ★

والآيات على عظم ثراء الفاطميين فى مصر كثيرة ، فقد شيدوا فى القاهرة القصور الفخمة ، وزينوها بالبساتين . ثم إنهم كانوا ينفقون الكثير على العطايا ، وعلى الموائد الجامعة ، وعلى الاحتفالات الباهرة التى كانت تقام فى الأعياد والمواسم ، حتى أصبحت أيام الخليفة العزيز أعيادا كلها كما ذكر المقريزى وابن الآبار[٢] .

ومن الروايات الدالة ما رواه المقريزى عن هدية جوهر إلى المعز لما انتقل إلى مصر . قال : « وللنصف منه (رمضان) جلس المعز فى قصره على السرير الذهب الذى عمله جوهر فى الإيوان الجديد . . ثم مضى جوهر وأقبل بهديته التى عبأها ظاهرة يراها الناس ، وهى : من الخيل مائة وخمسون فرسا . . . وإحدى وثلاثون قبـــة على نُوق . . . وثلاثة وثلاثون بغلا . . وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها ، وفيها أوانى الذهب والفضة ؛ ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ودرجان من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاشية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة مابين سِفْط وتخْت فيها سائر ما أعده له من ذخائر مصر »[٣] .

والشمسة التى أعدها المعز للكعبة من الشواهد على ثراء الفاطميين . كانت سعتها مائة وأربعين شبرا مربعا ، نسجت من ديباج أحمر ، ويُرَصع احفتها اثنا عشر

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٨ وانظر كذلك الحلة السيراء ورقة ١٣٤ .

(٣) المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

هلالا من الذهب ، ألحقت بكل هلال اترجّة من الذهب كذلك ، وكأنما كان الهلال يطوق الأترجة . وقد حشيت كل أترجة بخمسين درة فى حجم بيضة الحمام . وازدان سائر نسيج الشمسة بالياقوت ، وبآيات الحج مكتوبة بالزمرد والدر والمسك . وكانت هذه الشمسة ذات ثقل حتى لقد احتاجت إلى عدة رجال لينصبوها(١) .

هذه المظلة المهداة إلى الكعبة ، وتلك الهدية التى استقبل بها جوهر سيده لأول عهده بمصر تبدوان موغلتين فى المبالغة . ومهما كانت المبالغة فى شأنهما فهما نواتا حقيقتين كانتا رائعتين ، دالتين على ثراء الفاطميين دلالة ما روى عن نفقة الحملة على مصر ، وما روى عن بيت المال المحمول .

جـ ــ الحالة الاجتماعية

كان المجتمع المغربى بدوا يقيمون فى الجبال والصحراء ، وحَضَراً يلازمون السهول الساحلية والأودية . وقد اشتمل ذلك المجتمع على العناصر البربرية والعربية والمولدة ، والرقيق الأبيض ولا سيما الروم ، والرقيق الأسود المستورد من السودان(٢) .

ولم تتأخر غلبة الإسلام على هذا المجتمع كما تأخرت فى مصر ، فساده الدين الإسلامى منذ بداية القرن الثانى الهجرى(٣) ، وتبعته سيادة اللغة العربية(٤) . وظل فيه بعض الذميين على دينهم ، وكانت نسبة اليهودية مرتفعة ارتفاعا ملحوظا(٥) . والمسلمون كانوا سنيين وإسماعيلية . وقد عرف المغرب الخوارج منذ وقت مبكر(٦) ؛ فكانت قسطيلية وقفصة ونفطة والحامة وسماطة وبشرى مدنا خارجية ، وكذلك نفزاوة ولاوجة وبادس وبسكرة . وشاع الاعتزال فى قبيلتىْ زناتة ومزاتة(٧) .

(١) المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ص ١٣٨ ــ ١٣٩ .
(٢) الدكتور حسن محمود ــ بنو زيرى ص ١٦١ .
(٣) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٠ .
(٤) الدكتور حسين مؤنس ــ فتح العرب للمغرب ص ٢٩٨ .
(٥) المقدسى ــ أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ .
(٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١١٠ .
(٧) ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٩٥ ــ ١٠٣ .

ومعروف أن المجتمع المغربى كان مجتمعا قلقاً فى تلك الحقبة ، يموج بالثورات ، وتتنازعه الاتجاهات السياسية المختلفة . ولكن هذه الحالة كانت أقوى قبل ميلاد الشاعر تميم بن المعز ، ثم خفت حدتها شيئاً ما بعد موت أبى يزيد . ومع ذلك لم يسترح الفاطميون يوما فى المغرب ، ولم يركنوا إلى أية طائفة فيه ، فكانوا يعيشون بأجسامهم هناك وقلوبهم فى المشرق .

ويخلع ابن حوقل العديد من الصفات الطيبة على المغاربة ، كالنجدة والكرم وحسن الضيافة ، ولكنه يَرْمِى بعض الجهات هناك بالبخل ، وينسب إلى جهة غربيَّة من المغرب — على أيامه — خلقا ذميما ذكر أن أبا عبد الله الشيعى حاول معالجته فلم يفلح(١) .

ولم يبتدع المعز الاحتفالات الضخمة فى مصر ، فقد سَبَق إليها فى الغرب . ففى عام ٣٥١ هـ عزم على ختان أبنائه : عبد الله ونزار وعقيل ، فأرسل إلى ولاته فى الأقاليم يأمرهم أن يحصوا الأطفال الذى حان ختانهم ، وأن يقوموا بنفقاتهم(٢) . ويروى المقريزى أن أطفال صقلية وحدها كلفوا الدولة نصف مليون دينار(٣) . وقد عمت الاحتفالات البهيجة أرجاء الدولة الفاطمية طول الشهر الذى حدد للختان .

ويروى ابن حوقل هذه الرواية : « وبين المهدية وسوسة رباط يسكنه أمة من الناس على مر الأيام والساعات يعرف بالمنستير . ويقصده أهل إفريقية لوقت من السنة ، فيقيمون فيه أياما معلومة . ويُحْضَرُ بفاخر الأطعمة ونفيس المآكل . ويقيم جمعهم به مدة ، ثم ينصرفون إلى أوطانهم(٤) » .

وهذه الصورة تدل على أن هذا الموضع المذكور كان مكاناً يقام فيه ما يشبه الموالد المصرية . ولم يُفِضْ الرحالة فى الحديث عن هذا الاحتفال ، ولم يبين لنا أهو عيد سابق لقيام الدولة الفاطمية اعتاد المغاربة إحياءه حيث كان يرابط المتصوفون فى مُرَابطهم : المنستير الشهير ، أم هو عيد ابتدعه الفاطميون كما ابتدعوا فى مصر أعياداً ؟

---

(١) ابن حوقل — صورة الأرض ص ٩٣ ، ٩٥ .

(٢) القاضى النعمان — المجالس والمسايرات م ٢ جـ ٢ ق ٦٥٤ .

(٣) المقريزى — اتعاظ الحنفا ص ١٣٦ .

(٤) ابن حوقل — صورة الأرض ص ٧٣ .

ولما انصرف المعز إلى مصر ، وجد مجتمعا يعيش فيه القبط والعرب متجاورين وممتزجين ، ويهود ورقيق . وكان يدين قسم بالإسلام ، وقسم بالمسيحية ، وفئة باليهودية .

قال المقدسى : « ولم تكثر مدائن مصر ؛ لأن أكثر أهل السواد قبط(١) » . وهذه الرواية تجعلنا نخمِّن أن المسيحيين كانوا لا يزالون كثيرى العدد فى أول عهد الدولة الفاطمية بمصر . ويؤيد ابن حوقل هذا التخمين(٢) . أما المقدسىُّ قد ذكر أن أهل الذمة يتحدثون القبطية(٣) فالقبطية كانت واسعة الانتشار إذ ذاك(٤) .

وكانت الأعياد من الظواهر البارزة فى المجتمع المصرى ، فقد تعود المصريون أن يحتفلوا بعدد منها ، ثم زادت فى أيام الفاطميين . فكان المعزُّ يحتفل بعيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوى ، وأول ليلة من شهر رجب وليلة نصفه ، وأول ليلة من شهر شعبان وليلة نصفه وأول رمضان(٥) . وكان يحتفل بالعيدين(٦) ، وكان يشارك المصريين الاحتفال ببعض أعيادهم ككسر الخليج(٧) .

وكانت تلك الأعياد مصدر بهجة للشعب ، ووسيلة من وسائل الترفيه ، وأداة من الأدوات السياسية لتلهيته ؛ وكان بعضها حافلا بالمجون . روى المقريزى : « قال ابن زولاق : وفى هذه السنة — يعنى سنة ثلاث وستين وثلثمائة — منع المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النيروز فى السكك ، ومن صبّ الماء يوم النيروز . وقال فى سنة أربع وستين وثلثمائة : وفى يوم النيروز زاد اللعب بالماء ، ووقود النيران . وطاف أهل الأسواق ، وعملوا فيلة ، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم . ولعبوا ثلاثة أيام ، واظهروا

---

(١) المقدسى — أحسن التقاسيم ص ١٩٣ .

(٢) ابن حوقل — صورة الأرض ص ١٦١ .

(٣) المقدسى — أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ .

(٤) راجع « فى الأدب المصرى الاسلامى للدكتور محمد كامل حسين ص ١٢٦ وما بعدها ومصر فى فجر الاسلام » للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ص ٢٦٠ و « مصر فى عصر الاخشيدين » لها ص ٢٣٩ .

(٥) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف — المعز لدين الله ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٦) المقريزى — اتعاظ الحنفا ١٩٠ — ١٩٤ .

(٧) المصدر السابق ص ١٩٢ .

السماجات والحلى فى الأسواق . ثم أمر المعز بالنداء بالكف ، وأن لاتوقد نار ، ولا يصب ماء . وأُخِذ قوم فحبسوا ، وأُخِذ قوم فطيف بهم على الجمال »[١] .

وما كان المعز لدين الله ليقف فى وجه الاحتفال بالنيروز لو لم يحدث فيه الكثير من ألوان المجون ، فالمجون كان يقوى فى الاحتفالات التى كانت تقام فى بعض الأعياد ؛ لأن احتشاد الجماهير فرصة ينتهزها العابثون ، فيضطر ولى الأمر إلى التدخل لكبح جماح العبث .

وكان العزيز بالله أكثر تسامحا من أبيه المعز ، وأشد إقبالا على مباهج الحياة . فكان يخرج إلى متنزهاته بسردوس[٢] ، وكان يهوى الصيد[٣] ، بل كان يشارك الندماء الشراب[٤] . فلا عجب أن تروج فى عهده بضاعة اللهو والقصف ، فيقول عنه المقريزى : « . . . فكان يُضْرَبُ بأيامه المثل فى الحسن ، فإنها كانت كلها أعيادا وأعراسا ، لكثرة كرمه ، ومحبته العفو ، واستعماله لذلك . . .»[٥] .

ولقد كان فى بعض الأديرة المصرية مكان للقصف لوجود الخمور فيها . وكانت الأديرة كثيرة فى مصر ، وترجع كثرتها إلى أن مصر مهد الرهبنة[٦] . وقد ابتنى الرهبان أديرتهم الكثيرة تلك ليهربوا إليها من الدنيا ، ويفرغوا فيها للعبادة ، فخلف من بعدهم بعض خلْف استقبلوا اللاهين الراغبين فى الشراب . ولم تكن هذه الحال وقفا على بعض أديرة مصر ، فقد شاركتها فيها بعض أديرة الأقاليم الأخرى كالعراق[٧] .

---

(١) المقريزى ـ الخطط جـ ١ ص ٢٢٨ .

(٢) ديوان تميم ص ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ١٨١ .

(٣) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠

(٤) ديوان ابن تميم ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(٥) المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ص ٢٩٨ .

(٦) الدكتور محمد كامل حسين ـ بين التشيع وأدب الصوفية فى مصر ـ مجلة كلية الآداب جـ ٢ م ١٦ / ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

(٧) راجع كتاب الديارات للشابشتى .

د ـــ الحالة الفكرية

ارتبطت الدعوة الإسماعيلية بالعلم ارتباطا وثيقا . ومن بديهياتها أن الإمام وارث علوم الدين ، ومصدرها الذى يفيض على الأمة . وعلوم الدين لها ظاهر وباطن ، وهى فى حقيقتها خليط من الثقافات والفلسفات التى عرفها العالم القديم فى الشرق والغرب[١] .

فكان لابد للإمام أن يعلم الثقافة الإسلامية حتى يحيط بظاهر الدين ، وأن يعرف الفلسفة والمنطق وغيرهما من العلوم حتى يتأهل للتاويل . ولم يكن الإمام وحده عالما ، وإنما كا دعاته علماء كذلك . فالعلم سلاح الداعى ، يستطيع به أن يجادل علماء السنة ويورطهم فى المسائل العويصة ؛ فيزرع الشك فى قلوب الجماهير المستمعة ، ويجذبهم إلى التشيع .

ولما خرج الفاطميون من دور الستر إلى دور الظهور نشّطوا العلم وشجعوا الأدب ؛ لخدمة الدعوة أولا ، ولحبهم للعلم والأدب ثانيا ، ولمنافسة قرطبة وبغداد ثالثا ؛ فمن غير المعقول ألا يسعى الفاطميون إلى سبق الأمويين والعباسيين فى مضمار العلم والأدب .

ولقد كان فى المغرب حركة علمية وأدبية فى عهد المنصور ؛ فكانت الندوات تعقد للنقاش فى العلم والأدب وغيرهما[٢] . وكان لهذا الخليفة مكتبة[٣] . وعاش فى تلك الفترة علماء منهم القاضى النعمان وجعفر بن منصور اليمن . ولابد أن دعاة المنصور كانوا منبثين فى المغرب ؛ يبشرون بالإسماعيلية ، ويعلمون الناس تعاليمها المشبعة بالثقافات المختلفة .

واتصل ببلاط المنصور الشعراء : أبو الحسين على بن محمد الإبادى التونسى والمروزى[٤] ، وأيوب بن ابراهيم[٥] ، وخليل بن اسحق[٦] . وقد وصلتنا أشعار

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين ـ فى أدب مصر الفاطمية ص ٩ ـ ١١ ، ١٧ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) سيرة الأستاذ جوذر ص ٥٣ .

(٤) أنظر أبياتا له فى المغرب للبكرى ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٩٦ .

(٥) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٢٧ .

(٦) المصدر السابق ص ١٢٨ .

قليلة لهؤلاء . وما وصلنا من خطب المنصور نفسه وتوقيعاته قطع من النثر الفنى لا بأس بها[١] .

وكذلك كان للعلم والأدب شأن فى أيام المنصور المضطربة . فلما انطوت تلك الأيام وأنطوى معها الصِّراع مع أبى يزيد الخارجى ، وافى المعز ، وعاد الرخاء وكأنما كانا على ميعاد . ولذلك يقول المعز : « وما فكرت فيما كان فيه (ص) وفيما أنا اليوم بسبيله إلا تذكرت ما كان عليه داود من الحروب والتعب والنصب ، وما آصار الله (تع) إليه سليمان (ع . م .) بعده من الملك والسعة والبسطة ، واستقامة الأمور »[٢] .

وفى ظلال المعز ازداد العلم والأدب نشاطا ؛ فواصل القاضى النعمان وجعفر بن منصور اليمن جهدهما العلمى ، وشجعهما المعز وشجع غيرهما من العلماء وكان له مكتبة راح يحث الناس على الانتفاع بها[٣] ، وخصص من قصره قاعات ليستمع فيها الراغبون فى العلم[٤] . ووسع دائرة التثقيف فشملت مساجد المنصورية[٥] . ولابد أن دعاته المنتشرين فى الأرجاء كانوا يعلمون الناس فى شتى أنحاء المغرب فى المساجد وغيرها .

وظل أبو الحسن على بن محمد الإيادى فى بلاط المعز ، ومعه من الشعراء على بن عبد الله التونسى ، ومقداد بن الحسن الكتامى ، وعبد الله بن الحسن الجعفرى السمر قندى[٦] ، وابن هانى الأندلسى الشهير . وما فى سيرة جوذر من الخطب والتوقيعات التى تتصل بأيام المعز نثر فنىّ جميل[٧] .

* * *

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر ص ٤١ ـ ٧٢ .

(٢) القاضى النعمان ـ المجالس والمسايرات م ٢ جـ ٢، ورقة ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٢٢٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٣ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٣٢ .

(٦) أنظر مقدمة تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٣٤ وظهر الاسلام لأحمد أمين جـ١ ص ٣٠٣ .

(٧) سيرة الأستاذ جوذر ص ٧٢ ـ ١٤٨ .

وانتقل المعز إلى مصر ، فاصطحب معه علماءه وشعراءه . وكان يأمل أن يدخل ابن هانىء فى ركابه ؛ ليغنّيه فى القاهرة كما غنّاه فى المنصورية . ولكن الموت قطع عليه الأمل ، فمات شاعره الأكبر فى نهاية دور المغرب .

وفى مصر بلغ العلم والأدب الأوج فى أيام المعز ، ثم فى أيام أبنه العزيز . فعظمت المجالس العلمية فى المساجد ، وخفّ الدعاة إلى تعليم الناس ثقافة الشيعة الإسماعيلية . وقد زار المقدسى مصر فى تلك الفترة ، فتحدث عن القاهرة قائلا : « جامعهم مغتص بحَلَق الفقهاء وأئمة القراء ، وأهل الأدب والحكمة . ودخلتها مع جماعة من المقادسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوِّروا وجوهكم إلى المجلس . فننظر فإذا نحن بين مجلسين . على هذا جميع المساجد »[١] . وكان الأزهر من أهم مساجد التحليق . وقد جعل يتطور شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح جامعة فى عام ٣٧٨ هـ[٢] .

وكان المعز يخصص جانبا من قصره ليحاضر فيه العلماء ، وكان يقدم ذخائر مكتبته للقراء[٣] . وجرى ابنه العزيز على سننه ، فخصّص من قصوره أماكن للجلسات العلمية[٤] . وقدِّر للمكتبة الفاطمية فى عهده أن تبلغ من الضخامة مبلغاً عظيما . حكى المقريزى : « وذكِرَ عند العزيز بالله كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خُزَّان دفاتره ، فأخرجوا من خزانته نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين ، منها نسخة بخط الخليل بن أحمد . وحمل إليه رجل نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار ، فأمر الخُزَّان فأخرجوا من الخزانة ما ينيف عن عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، منها نسخة بخطه . وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد فأخرج من الخزانة مائة نسخة منه »[٥] .

ومثل هذه الرواية تذكرنا مكتبة قرطبة الضخمة ، تلك التى كانت تضم مئات الألوف من المجلدات فى ذلك الحين[٦] . وقد تطورت المكتبة الفاطمية ـــ فيما

---

(١) المقدسى ـ أحسن التقاسيم ص ٢٠٥ .

(٢) الدكتور محمد كامل حسين فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦ .

(٤) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ٢٣٣ .

(٥) المقريزى ـ الخطط جـ١ ص ٤٠٨ .

(٦) بالنثيا ـ تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٠ .

بعد ــ تطورا يعيد إلى الذهن ذكرى المكتبة والمتحف بالإسكندرية فى عصر البطالسة .

وقد واظب القاضى النعمان وجعفر بن منصور اليمن على خدمة العلم ، إلى جانب لفيف من المحدثين والفقهاء وأئمة القراءات والمفسرين والمؤرخين والمشتغلين بعلوم الأوائل(١) .

وكان الفاطميون متسامحين مع العلماء ؛ بدليل أنهم سمحوا لمحمد بن سليمان النعالى أن يباشر نشاطه العلمى فى الفسطاط مع أنه من فقهاء المذهب المالكى ، فكانت حلقته تدور على سبعة عشر عموداً من أعمدة المسجد لاتساعها(٢) .

ولا أدل مرة على تشجيع الفاطميين للعلم من سماح المعز لبطريرك الأشمونين أن يناظر علماء المسلمين(٣) . وقد اجتهد الفاطميون فى اجتذاب علماء الدول الأخرى ، فنجد بين العلماء الذين ذكرهم السيوطى فى « حسن المحاضرة » عددا من الغرباء . وقد حاول العزيز مرة أن يجتذب جبريل بن بختيشوع فلم يفلح(٤) .

وكان يعقوب بن كلس بَرًّا بالعلماء . وبإيعاز منه أجرى العزيز عطاء دائما على سبعة وعشرين عالما ، وبنى لهم مسكنا بجوار الأزهر(٥) ، وكلفهم بالمحاضرة فى الجامع الأزهر يوم الجمعة . وكأنما كان هؤلاء متفرغين تفرغا تاما للعلم .

ولم يبخل ابن كلس بماله الخاص على العلماء ورجال الأدب ، حتى لقد ذهب بالكثير من مدائح الشاعر المشهور : أبى الرقعمق(٦) . وكان هذا الإدارى الكبير المحب للمعرفة من المؤلفين ، وقد وصلنا من مؤلفاته الرسالة الوزيرية فى مختصر الفقه(٧) .

---

(١) السيوطى ــ حسن المحاضرة جـ١ ص ١٦٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ . أنظر حديثا عن الحركة العلمية فى أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ٦٦ .

(٢) السيوطى ــ حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٨١ .

(٣) أحمد أمين ــ ظهر الاسلام جـ١ ص ١٩٠ .

(٤) الدكتور محمد كامل حسين ــ فى أدب مصر الفاطمية ص ٦٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٤ .

(٦) المرجع السابق ص ٥٧ .

(٧) المرجع السابق نفس الصفحة .

فإذا نظرنا إلى ما وصلنا من الأدب حكمنا بأنه كان زاهرا فى أيام الفاطميين . فسوق الشعر كانت عامرة بالكثير من الشعراء ، ومنهم أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكى وصالح بن مؤنس والحسن بن محمد الشهواجى وصالح بن رشدين وسليمان بن جعفر[١] والحسن بن بشر الدمشقى والإسكندرانى[٢] . وكان من شعراء تلك الفترة على ابن القاضى النعمان ؛ يقول عنه السيوطى : « على بن النعمان القيروانى قاضى قضاة مصر بالدولة العبيدية . قال فى العبر : إنه كان شيعيا غاليا ، وشاعرا مجودا . مات سنة أربع وسبعين وثلاثمائة »[٣] .

وكما وفد على مصر الشاعر الآنف الذكر ، وفد تميم بن المعز وهو فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، ودخل القاهرة فى السابع من رمضان عام ٣٦٢ فى ركاب والده[٤] ، فكان أول شاعر يدخلها . وفى مصر نضجت شاعريته ، وصار من أكبر شعراء الفترة . وحول هذا الوافد الحرىّ بأن يسمى شاعر القاهرة التف نفر من شعراء مصر كالحسن الرسّى والحسين الرسى وأبى الرقعمق وأبى الحسن على بن الحسين القيروانى[٥] .

والحق أن أيام تميم كانت رخاء ، تشحذ الملكات الشعرية ، وتثير العواطف ، وتملأ آفاق الشادين بالخيالات ؛ إذ كان الرخاء شاملا ، والأمن سابغا[٦] . وكان بيت الخلافة يسخو على الشعراء ، ليشيدوا بمفاخره ، ويرددوا عقائده ، ويبشروا بدولته ، ويردوا على شعراء الأعداء . وشارك يعقوب بن كلس فى تشجيع الشعراء ، فكان يسمع المدائح ويجيز أصحابها[٧] . وكان تميم بن المعز نفسه يشجع الشعر ، ويدل شعر أبى الرقعمق فيه على أنه كان يجود على إخوانه الشعراء بالمنح[٨] .

---

(١) الثعالبى — تيمية الدهر جـ١ ص ٢٣٨ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ .

(٢) الدكتور محمد كامل حسين — فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٨ ، ١٤٢ .

(٣) السيوطى — حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٤) ابن خلكان — وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٥) أنظر ديوان تميم ص ٣١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ١٥٣ ، ١٩١ ، ٤٣٨ وانظر يتيمية الدهر للثعالبى جـ ١ ص ٢٣٩ — ٢٥٠ .

(٦) المقدسى — أحسن التقاسيم ص ٢١٢ .

(٧) الدكتور حسن ابراهيم — الفاطميون فى مصر ص ٣٣٧ .

(٨) الثعالبى — يتيمة الدهر جـ١ ص ٢٥٠ .

ولابد أن عدد الشعراء كان كبيرا فى تلك الحقبة السعيدة ، وإن فاتنا الكثير الكثير من أشعارهم . والدليل أنه لما مات يعقوب بن كلس نصير العلماء وَمَهْوَى أفئدة الشعراء رثاه مائة شاعر[١] . فكأنَّ القاهرة كانت إذ ذاك فى طليعة العواصم التى راجت فيها سوق الشعر ، وكثر فيها الشعراء .

أما النثر الفنى الواصل الينا لأول عهد الفاطميين بمصر فهو قليل قليل ، فليس بين أيدينا منه معاصراً للشاعر تميم رسائل وخطب كتلك التى اشتملت عليها سيرة جوذر المسطورة فى المغرب . نعم لدينا الميثاق الذى أمن فيه جوهر المصريين وتوقيع له ، ورسالة المعز إلى القرامطة ، وبشارة موجهة إلى العزيز بهزيمتهم[٢] . ولدينا كتاب الديارات للشابشتى ، وهو كتاب يتحدث عن الأديرة فى مصر وغيرها ، ويذكر ما كان يحدث فيها بعبارة رائقة ، ولدينا كتاب « البيزرة » الذى ألفه أبو عبد الله الحسين بازيار العزيز . ولكن هذا قليل من كثير مما سطر الأدباء ورجالات ديوان الإنشاء فى ذلك العهد ، وتعرض للانقراض منذ منتصف القرن الخامس إلى أن أجهز على الكثير منه صلاح الدين[٣] .

ومهما يحاول المتحدث الآن عن علم تلك الفترة وأدبها — بل علم العصر الفاطمى وأدبه — فإنه لا يستطيع أن يقدره حق قدره على وجه اليقين ، وقد باد منه ما باد ؛ واحتجب منه لدى أتباع الدعوة الفاطمية المعاصرين ما احتجب ؛ وبقى مخطوطا متاحا ما بقى ، مبعثرا هنا وهناك ، ينتظر نفض الغبار عنه .

* * *

هذه نظرة عامة إلى الحركة الفكرية فى أيام تميم بن المعز . فلننظر نظرة أخرى سريعة إلى ثقافة البيت الذى تعهده . ولد تميم لأسرة نادرة المثال . فإنْ كان لم يدرك أيام القائم فلقد سمع بأدبه ؛ فجدُّ أبيه ذاك كان ينظم وينثر ، وبالنظم والنثر كاتب المصريين إبان حملته المخفقة على مصر ما بين عام ٣٠٧ هـ وعام ٣٠٩ هـ . وترامى

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين — فى أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١٦ — ٣٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨ — ٢٩ .

بعض شعره إلى بغداد إذ ذاك فعارضه محمد بن يحيى الصولى[١] . وقد احتفظت « سيرة الأستاذ جوذر » ببعض نثره[٢] .

ولقد رأى تميم جده المنصور رأى العين ، وإن مات وهو صغير . وحين ذكر هذا الجدَّ أبو العباس أحمد بن يوسف قال عنه : « وكان فى غاية الفصاحة والبلاغة ، يرتجل الشعر والخطب ، وما يقصد من الكلام المسجوع لوقته »[٣] . وكان المنصور واسع الثقافة ، مسهما فى التأليف . وإلى جانب ما احتفظت به سيرة جوذر من شعره ونثره[٤] ، نجد فى ديوان تميم حفيده إشارة إلى كتاب له فى علم النجوم[٥] .

فإن لم يعش الشاعر فى كنف جده إلا قرابة أربعة أعوام ، فإنه قد عاش فى ظل أبيه أكثر من ربع قرن ؛ ذلك الخليفة الشديد التعلق بالعلم والأدب . وحديث التاريخ عن المعز حديث شائق ، فهو من أوفر الحكام نصيبا من الثقافة . قال عنه المقريزى : « فابتدأ بتعلم اللغة البربرية حتى أحكمها . ثم تعلم الرومية والسودانية حتى أتقنهما . ثم أخذ يتعلم الصقلبية »[٦] . فكأنه انتهز فرصة اتصاله بالقبائل الإفريقية السوداء وخضوع البربر وصقلية وجنوبى إيطاليا لحكمه فتعلم لغات تلك البيئات[٧] .

وكان المعز يمتلك مكتبة كبيرة فى المنصورية ثم فى القاهرة . ويحكى أنه طلب من خازن المكتبة أن يأتيه بكتاب ما فلم يهتد إليه سريعا . فنهض المعز ، وعرف موضع ذلك للكتاب ، وقضى فى المكتبة معظم الليل واقفا ، يقرأ دون ملل[٨] .

ويدل هذا الخبر على شغف الخليفة الفاطمى الرابع بالكتب ، وتعلقه الزائد بها . ولقد دأب المعز على مجالسة العلماء والأدباء ، ومناقشتهم فى الفلسفة والفقه

---

(١) مقدمة المرجع السابق ص ١٦ ـ ١٧ .

(٢) سيرة الأستاذ جوذر ص ٤٢ ـ ٤٤ ، ٥٣ ـ ٥٥ .

(٣) القرمانى ـ أخبار الدول ص ١٩٠ .

(٤) سيرة الأستاذ جوذر ص ٥٠ ـ ٧٢ .

(٥) ديوان تميم ص ٢٠٤ .

(٦) المقريزى ـ الخطط جـ١ ص ٣٥٣ .

(٧) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف ـ المعز لدين الله ص ١٦ ـ ١٧ .

(٨) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

والتأويل ، والطب والهندسة والفلك[١] . وهذه مرتبة عن المعرفة لاتتاح لحاكم أمة إلا أن يكون من طراز المعز الرائع .

وكان المنصور الوالد وراء هذه المرتبة العالية من الثقافة ، إذا كان يحمل ابنه على الفراغ للدرس وقرض الشعر والتأليف . وإلى الخليفة الرابع تنسب رسائل فى الدعوة[٢] . وتوقيعاته ورسائله إلى جوذر سلسة طليقه[٣] . وله فى سيرة جوذر خطبة طويلة جيدة نعى فيها والده المنصور[٤] ، وله أخرى ألقاها فى الاسكندرية[٥] . وتُذكر له متطوعتان جيدتان من الشعر تدلان على رقة حاشيته[٦] .

أما العزيز أخو تميم فكان حاكما رفيقا ، يميل إلى السلم والعدل والتسامح ، ويحب العفو كما رأينا ، ويحتفى بالعلم والأدب . وكان ذا ميول فنية قوية ، يقرض الشعر ، ويهوى الأحجار الكريمة فيما يهوى[٧] .

ولا يصح أن نغفل فى هذا المقام ذكر السيدة تغريد أم تميم[٨] . وهى سيدة غير عربية اسمها الأصلى درزان[٩] . كانت أيضا ذات ميول فنية ، عبرت عنها بعد موت المعز باقتناء قصر القرافة ومنازل العز الجميلة[١٠] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٣) سيرة الأستاذ جوذر ص ٧٢ ـ ١٤٨ .

(٤) سيرة الأستاذ جوهر ص ٧٦ ـ ٨٤ .

(٥) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٣٥ .

(٦) المصدر السابق جـ٢ ص ١٣٤ .

(٧) المصدر السابق جـ ط ص ٢٠٠ .

(٨) ذكر المقريزى فى الخطط جـ١ ص ٤٨٦ أن تغريد أم العزيز ، وهى أم تميم أيضا بدلالة قوله يخاطب أخاه العزيز ص ١٤٤ من ديوانه :

فلا تنس منى ناصحا وابن والد * ووالدة ما فيه عنك نُفورُ

(٩) المقريزى ـ الخطط جـ٢ ص ٣١٨ .

(١٠) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٨٤ ، ٤٨٦ .

الفصل الثانى

حيـــاة تميم

فى عام ٣٣٧ وفد على الأسرة الفاطمية وليد جديد هو الأمير تميم بن المعز لدين الله[١] . ولاشك أن الأسرة قد رحبت بوفادته ، وسرت بمقدمه ؛ فقد ولد فى أعقاب النصر على أبى يزيد الخارجى ، وفى مطلع عهد المنصورية الميمون . وخيل للجد والأب إذا ذاك أنه خليفة الغد ، وإمام المستقبل . ولم تنبئهما النجوم أن الأمير الوليد لم يأتهم ليحمل الأمانة ، ويرث مفاتيح عالم الباطن ، وإنما أتى ليتملى جمال الوجود ، ويتغنى بنعيم الحياة ، ويدخل تاريخ الأدب من أوسع الأبواب .

ولم يكن مصير تميم المحتوم بدعا ، ولم تكن رقة إحساسه غريبة ، ولم تكن شاعريته حدثا ليس له سابقة ؛ فلقد ولد للأسرة التى عرف أفرادها بالنزوع الأصيل إلى الأدب ، والحب الشديد للفنون ، والتقدير العميق للعلوم ؛ بل لقد شاركوا فى الآداب والعلوم قبل تميم وبعده ، وشجعوا الأدباء والفنانين والعلماء أولا وأخيرا . ثم إنهم اشتهروا بحب الحياة ، والميل إلى زخارفها ، والأخذ من متعها بأوفى نصيب .

ولا ريب أن المعز — ذلك الأديب العالم — قد حرص على أن يغذى تميما بالأدب ، ويزوده بالعلم ليكون جديرا بالإمامة ، وأهلا لوراثة علم الباطن كما فعل معه أبوه من قبل . فلما بلغ تميم سن التعليم وكل به المعز من يلقنه العلم والأدب . وكان القصر مأوى شعراء كثيرين يؤيدون الخلافة ، ويتغنون بمحامدها . ويهمنا منهم ابن هانىء الأندلسى ؛ فإنه يكبر تميما ببضع عشرة سنة ، ويشبهه فى حب الخمر .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢١ . وهذا التاريخ صحيح لأن الشاعر يذكر فى شعر قاله عام ٣٦٧ أنه فى الثلاثين من عمره ، أنظر الديوان ص ٧ .

فكان من الطبيعى أن تقوم علاقة ما بين الشاعر الشادى والشاعر العريق ، ولكن لا دليل على أن تميما كان تلميذ الابن هانىء وإن عارض إحدى قصائده . ولانعرف للأمير أستاذا معينا لقنه أو تعهده . ولا شك أنه قد أقبل على الأدب إقبالا عظيما ، وطفق يأخذه عن معلميه ، وينهله من مكتبة أبيه الزاخرة ، ولاشك أنه قد أخذ بنصيب كبير من علوم اللغة العربية وعلوم الفلسفة كما يدل شعره . ولابد أن مجالس القصر العلمية كان لها شأن فى ثقافة الأمير .

وفى مدينة المنصورية البهيجة استقبل تميم الحياة ، وفى قصر البحر الشاعرى وفى غيره جعل يشب . وحين قطع مرحلة الطفولة البريئة ، ودخل دور المراهقة بدأ ينحرف عن الطريق السوى . ونستطيع أن نتصور أنه كان يخرج إلى جنان تونس ، يشرب الخمر ، ويتبع هواه . ولم يفت سلوكه عين المعز البصيرة ، فحزن لانحراف ابنه ، وغضب لسمعة الأسرة ، فإنه كان يعيب على العباسين انصرافهم إلى العبث والمجون[1] . وها هو ابنه يفعل ما ينكره على خصومه . وفى الديوان إشارة مبكرة إلى عبث الشاعر فيما يبدو . « وركب الأمير يوما إلى بعض البساتين بالمنصورية ، فأرسل المعز فى طلبه للخدمة التى كان يتولاها بين يديه ، فجاء مبادرا ، وتعذر لقاؤه فكتب إليه :

مالى عجلت إلى دعائك ... وحرمت حظى من لقائك
وتركتنى مستوحشا ... لما عزمت على اصطفائك
حتى لقد أوهمتنى ... أنى أخونك فى وفائك
صلى عليك الله من ... ملك وزادك فى حبائك[2]

وتوحى هذه القطعة بأن الأمير تسلل إلى البساتين ليشرب تحت الأشجار ، أو يعبث بين الأدغال ؛ أو أنه اصطحب بعض أقران السوء ممن يراهم المعز خطرا على الأمير ، ووصمة تلحقه . ولم تكن خرجة تميم بريئة أو كريمة غالبا ، فعاقبه والده بأن حال بينه وبين المثول بين يديه .

---

(١) القاضى النعمان : المجالس والمسايرات م ٢ جـ ١ ص ١٧٠ .

(٢) ديوان تميم ص ٣٤ .

وتمادى تميم فى انحرافه لم ينفعه الوعظ ، ولم يجد معه الزجر ، ولم يخفه الوعيد . وأعماه أقران السوء عن الخطر الذى يقوده إليه المجون ، وألهوه عن التفكير فيما ينتظره من مصير . فنسى ما ينبغى لمثله من الحشمة ، وما يجب عليه من الوقار . وعجزت حيلة أبيه عن تدارك الأمر ، وذهبت محاولات إصلاحه بددا . وانطلق تميم فى غوايته ، يغشى البساتين ، أو يسمع الغناء ، أو يشرب الخمر ، أو يرتكب ما هو أشد من الخمر إثما .

وكان من عادة الفاطميين أن يضموا إلى بلاطهم أبناء الرؤساء ، ليشبوا على الإخلاص لدولتهم[1] . وقد أتاحت هذه السنة لتميم أن يلقى حفيد حاكم صقلية ، فقامت بينهما علاقة أثيمة حملت والد الصبى على التفكير فى قتله ، وجعلت المعز يحزن حزنا شديداً . ونجد تفصيل الفضيحة فى هذه السطور الواردة فى سيرة جوذر :« ولما وصل أحمد بن الحسن من صقلية ، وكان واجدا على أبنه طاهر لصحبته مع الأمير تميم ، وما شنع من القول عنهما ، فأراد قتل ولده طاهر هذا . إلا أنه استأمر الأستاذ على ذلك ، وشاوره فيه ، فلم يجد الأستاذ بدا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، فصرف إليه الجواب وهو : ياجوذر ، كثر الله من أوليائنا مثل أحمد ، فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبى ولده صحبة من كان سبب شقوته . ووالله إن توجعنا به كتوجعنا بمن لنا . لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى أبدا ؛ إذ كانت الخطة التى يرفع الله — عز وجل — بها أولادنا هى خطة الطهارة ، ومن عدمها كله كلا على مولاه . والحمد لله على ما ساء وسر . فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه ، وتشفع له عنده ، وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر بشنعة يلحقه عارها ، ويبقى ذكرها على مر الأيام . فما يخفى عليه أن ذلك يبقى فى الأعقاب . فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله . فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان يسعى به بينهما . ونحن نداوى عللهم ، فمن أطاعنا لم يشق والله . لقد نكس الله رؤوس كل من كان انتصب للشماتة بهم لما رأوه من فضلنا عليهم وإنفاقه . وكذا نحب أن يكونوا ما بقوا فى نمو وزيادة لا فى نقص ورجوع

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٨٥ .

القهقرى . فعرفه ذلك ليعمل به ، ولا يحدث فى الصبى شيئا من المكروه إن شاء الله[١] » .

ويدل هذا النص فيما يدل — على أن الخليفة قد حزن لما رأى ابنه يسرف فى الرذيلة ، ويتلطخ بالعار ، ويشيع خبره بين الرعية ؛ كما يدل على يأس المعز كل اليأس من إصلاح الأمير ، وانصرافه بوجهه عنه . ولم يكن المعز ليغفل عن رذائل ابنه ، أو تفوته انحرافاته ؛ فمن الطبيعى أن يرصده ، وأن يقيم عليه من يحصى أنفاسه . ومن الطبيعى أيضا أن يكون يأسه من إصلاحه أقدم من صدور توقيعه إلى جوذر ، وأن يكون عزمه على حرمانه الخلافة سابقا لصدور ذلك التوقيع . وليس ببعيد أن يكون المعز قد أسر إلى جوذر بولاية ابنه عبد الله قبل أن يوقع إليه التوقيع السابق بفترة من الزمن .

وأفاق تميم من سكرة مجونة متأخرا ، فرأى أباه قد تحول عنه ، وأغفل أمره ؛ فتوقع البلاء ، ورأى الشر يدنو . ولم يكن ضعيف العزيمة ، أو مستكين النفس ، بل كان عنيدا كما يدل ديوانه وسيرة جوذر . فاتصل بأبناء القائم والمنصور والمتمردين على والده ، وأخذ يحيك معهم المؤمرات . وشك جوذر فى العلاقة القائمة بين الأمير والمتمردين من أفراد الأسرة ، فاستشار المعز فى أن يفض الرسائل المتبادلة بين المتآمرين ، فأبى المعز أولا ثم عاد فكتب إلى جوذر : « يا جوذر ، كنت خاطبتنا فى أمر كتب القصرين إلى دار تميم وغيره ، فأمرناك بترك التعرض لهم . وإذْ الله قد أجرى على فكرك ما فيه التوفيق — ونحن ما نظن بأحد سوءا من الأباعد ، فكيف من الأقارب ، وقد ظهر لنا بعض ما نكرهه — فاعمل على خمل ما يكون من كتاب وغيره إلينا ، ولا تنفذه حتى تعرفنا به من حيث لا يشعر بك أحد البتة إن شاء الله[٢] » .

وهكذا شددت الرقابة على تميم ، وراح جوذر يقرأ أسراره وينقلها إلى مولاه . ولا ندرى ماذا فعل المعز بابنه والمتضافرين على الفتنة . ولابد أنه اشتد فى معاملتهم ، وضيق عليهم الخناق . ولم يستطع تميم أن يفعل شيئا غير أنه ضاعف كره أبيه له ، وتمادى فى العبث .

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٩ .

وفى تلك الأثناء كان المعز غارقا فى العمل على تحقيق الأمنية التى أعجزت المهدى وخلفاءه من بعده . وفى صبيحة يوم السبت الموافق ١٤ ربيع الأول عام ٣٥٨ وقف ابن هانىء الأندلسى ينشد قصيدته الصاخبة يودع جوهرا :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشر أروع[١]

وسار الجيش تحت إمرة القائد الصقلى ، وحقق الأمنية . وحينما طارت أخبار النصر إلى المغرب ، وقف ابن هانىء مرة أخرى بين يدى المعز ينشده قصيدته التى مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحتْ مصر فقُل لبنى العباس قد قضى الأمر[٢]

وفى عام ٣٥٩ أسر المعز إلى جوذر بالمهدية بأن ولى عهده ابنه الثانى عبد الله[٣] ، وسأله أن يكتم الخبر . فصمت سبعة أشهر أعلم بعدها المعز بعض أصفيائه بالأمر وسألهم الكتمان . وخرج جوذر ذات يوم ، من المهدية قاصدا المنصورية . فلما اقترب من العاصمة أمر المعز أولاده وإخوته ورجال دولته أن يخرجوا لاستقباله . فلما اقترب الأستاذ من المستقبلين ترجّل ، وقبّل الأرض بين يدى الأمير عبد الله ، ولم يلتفت إلى سائر الحاضرين ، فذهل الناس لأنهم كانوا يظنون أن تميما هو ولى العهد . واضطرب الأمير عبد الله لأنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة فكاد أن يقع من فوق سرجه . وسر المعز بصنيع جوذر أولا ، وحين أحس بسخط من فى القصر على الأستاذ اعتذر عنه اعتذارا واهيا ، فقال إن تحية جوذر تحية عامة ، وليست وقفا على الأمير عبد الله[٤] . وما كان المعز ليستطيع باعتذاره أن يستر المسألة بعد ذلك ، أو يمسك ألسنة الجمهور . وها هو شاعر البلاط ابن هانىء يذكر ولاية العهد فى قصيدة قالها عام ٣٦٠ لما قتل محمد بن الحسن الزناتى :

---

(١) تبيين المعانى فى ديوان أبن هانى ص ٣٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٥ .

(٣) اقرأ فى سيرة جوذر التوقيع ٣٦ ص ١٠٨ ، والفقرة ٨٢ ص ١٣٩ ، والملاحظة ص ١١٩ ، ص ١٨٤ .

(٤) سيرة جوذر ص ١٣٩ .

فقد توطد أمر الملك فيه وقد ... ندبتَ ندبا إليه غير متكل
لما شددتَ بعبد الله عروته ... أعززتَ منه مصون العرض لم يُذَل
عرفتَ فى كل صنع الله عارفة ... فما تهم بفعل غير منفعل
ولاختيارك فضل الوحى إنك لا ... تأتى المآتى إلا من عَل فعَل
مستهديا بدليل الله تتبعه ... وقادحا لزناد الحكمة الأول[1]
وإن مُلْكا أقر الله قبته ... بابن الإمام لملك غير منتقل
لو نازع النجم ما أعياه منزله ... أو نازل القدر المقدور لم يُهَل
قد فئت من بركات الأبطحىّ إلى ... مالا يفىء إليه الظل فى الأصُل
توالت الباقيات الصالحات له ... توالى الدِّيم الوكافة الهطل
أليس أول ماساس الأمور أتت ... عفوا بما كان لم يُحْسَبْ ولم يُخَل
فالفتح من أول النعمى به ، وله ... عواقب فى بنى مروان عن عجل
بريحه أردت الهيجا بنى خزر ... وباسمه استظهرت فى الغزو والقفل
فإن تكله إلى ماضى عزائمه ... تكله منها إلى الخطية الذُّبُل
مهما أقام فذو التاج المقيم ،وإن ... تلاك ريثا فبعد المشهد الجَلَل
وبعد توطيد ملك المشرقين لمن ... ثوى وأمن العذارى البيض فى الكِلَل
إذا نظرت إليه نظرة دفعت ... إليك شبهك فى الأشبال لم تَفل
ترى شمائل فيه منك بينة ... لم تنتقل لك من عهد ولم تحل
كما رأى الملك المنصور شيمته ... تبدو عليك من المنصور قبل تَلى[2]

وانقطع أمل تميم فى الملك ، وغمره اليأس ، وراحت الهموم تضغط قلبه . ومن طبائع الأمور أن يفرط فى السكر ، ويشتط فى المسائل الجنسية لينسى الخيبة ، ويتسلى عن الهموم : وقد شجعه على ذلك أنه لم يعد الإمام المأمول الذى يكون قدوة لأمته ، فقد زال الحرج ، وأصبح فى حل من التقاليد . أما أن تشين أخلاقه الأسرة المقدسة فهذا أمر لا يعبأ به ، بل يهمه أن يلحق بها الضير ما استطاع . والحق أن هذه تجربة قاسية مر بها الشاعر ، فتركت فى نفسه آثارا فاضت على شعره فيما بعد ، ولونته تلوينا مميزاً .

(١) لعلها صيغة مبالغة من الفعل أول بمعنى سبق .
(٢) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٦٠٦ .

ويحق لنا أن نقف برهة لنرى السبب أو الأسباب التى حملت المعز على تنحية ابنه الأمير تميم . هناك أسباب متعددة تلوح للمتأمل :

الأول أن تميما كان الابن الثانى[١] .

الثانى ما ذكره محققو الديوان فى المقدمة وهو سوء أخلاق الأمير ، واتصاله بالمتآمرين[٢] .

الثالث هو عقم تميم ، قال ابن الأبار : « ولاه أبوه المعز لدين الله عهده ، وبه كان يكنى ، فخلع برأى جوهر الصقلى لأنه كان عقيما لا يولد له »[٣] .

الرابع — وهو رأى قدعن لى — أن المعز ارتأى أن تميما لا يصلح لتحمل المسئولية ، وقد اتسعت الدولة ، وثقلت أعباؤها ، ودخلت أمجد أيامها .

أما السبب الأول فليس صوابا لما يلى :

أولا : ذكر ابن الأبار أنه كان سيحكم بعد أبيه ، ومعنى هذا أنه أكبر إخوته . والإشارة صريحة فى سيرة جوذر إلى أن تميما هو الأكبر[٤] .

ثانيا : لو كان تميم أصغر من عبد الله لختن مع إخوته عبد الله ونزار وعقيل . ولا ذكر له فى حفل الختان ، لأنه قد سبق ختانه[٥] .

وليس لعاقل أن يشك فى أن مجون تميم مما نفَّر والده منه ، وأدى إلى الاستغناء عنه . غير أنه ليس من اليسير أن نغض الطرف عن نص ابن الأبار الصريح ، وإن اعترض محققو الديوان بأن تميما ولد له ابن اسمه على كان يكنى به . فلابد أن نناقش

---

(١) W,Ivanov : Aguide to Ismaili literature P. 14

(٢) مقدمة ديوان تميم ص ح — ل .

(٣) ابن الأبار — الحلة السيراء — نسخة مصورة بجامعة الدول العربية ص ١٣٢ .

(٤) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٣٩ .

(٥) المقريزى : أتعاظ الحنفا ص ١٣٥ .

احتمال ما قال ابن الأبار . نعم إن تميما يكنى بأبى على فى يتيمة الدهر[١] وفى وفيات الأعيان[٢] . ويمكن أن ينتصر منتصر لابن الأبار بما يلى :

أولا : من تقاليد الإسماعيلية أن يتولى الابن الأكبر ولاية العهد ؛ فمن حق تميم أن يبدأ به أبوه .

ثانيا : من تقاليدهم أيضاً أن تنتقل الإمامة إلى ابن الإمام دون إخوته ؛ فغير بعيد أن يكون تميم قد نحى لعقمه .

ثالثا : كنى المعز بأبى تميم منذ طفولته[٣] ، وكنى العزيز بأبى المنصور قبل مولد الحاكم كما نرى فى قصائد مختلفة قالها تميم قبل مولد الحاكم[٤] . والظاهر أن الكنية كانت تقليدا جرى عليه الفاطميون دون التقيد بولد .

رابعا : لم يرد فى ديوان الشاعر أى ذكر أو إشارة صريحة إلى ولد ، مع أن الديوان يدور كثير منه حول حياة الشاعر الخاصة ، وإن وردت فى الديوان مقطوعات أرسلها إلى من يسمون الأهل[٥] .

ولكن قول ابن الأبار يضعف جدا إذا علمنا أن المعز لم يتقيد كثيراً بالتقاليد الشيعية فى ولاية العهد . والسبب الذى أراه يشمل أخلاق تميم واستعداده ؛ فالشعراء الأصلاء أناس عاطفيون خياليون ، لا يصلح أكثرهم لسياسة الدول ، ولا يستطيعون تحمل مسئوليات الحكم . ومن لديه منهم القدرة على المشاركة فى السياسة لا يرقون إلى مراتب الساسة الأصلاء . وفى التاريخ الإسلامى شواهد على ذلك ؛ فالوليدين يزيد عجز عن تدبير الملك ، ولقى حتفه[٦] ، وابن المعتز ما كاد يرقى عرش الخلافة حتى دلف إلى قبره مخنوقا[٧] . وهذان الملكان الشاعران يشبهان تميما من وجوه كثيرة .

---

(١) الثعالبى ـ يتيمة الدهر جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٢١ .

(٣) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٧٦ .

(٤) أنظر ديوان تميم ص ٦٠ ، ١٤٢ ، ٢٠٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٠٠ ، ١٢٨ ، ٣٥٢ .

(٦) ابن واصل ـ تجريد الأغانى جـ ٢ ص ٨١٦ ـ ٨٢٤ .

(٧) المصدر السابق جـ٣ ص ١١٩٧ .

وفى اليوم السابع من شهر رمضان عام ٣٦٢ كانت مدينة الفسطاط مزدانة لاستقبال الأسرة الحاكمة الجديدة . وعبر تميم النيل فى ذلك اليوم مع من عبر ، وسار فى موكب أبيه الذى لم يعرج على القسطاط ، بل انطلق إلى العاصمة الجديدة ، واستقر الشاعر فى القصر الكبير(١) . وهكذا بدأ حياة جديدة من كل الوجوه ؛ فقد انتقل إلى طبيعة مغايرة ، وحل بمجتمع آخر .

ولم يكن تميم — فيما يبدو — راضيا عن أبيه فى سريرته ، أو ناسياله ما صنعه منذ أعوام . ولم يكن المعز ليرضى عن سلوك ابنه الفاضح ، ومجونه السافر ، ولم يكن يحب أن يتحدث الناس عن عبثه ويسمروا بسقطاته ، وهو سليل النبى ، وأحد الأشراف ، وابن الحاكم الذى خطب فى الإسكندرية منذ حين ، فنقد الحكومات السابقة ، وبشر المصريين بسياسة تقوم على الدين ، وتحيى سنة الرسول(٢) . لذلك ظل الأب والابن متنافرين ، وظهر صدى التنافر فى المديح المتكلف . ونرى الشاعر أحيانا يعتذر ، أو يطلب الصفح ، وهذا يدل على التنافر أيضا .

وتشاء الظروف أن يموت ولى العهد عام ٣٦٤(٣) . وعندما هم تميم برثائه لم تسعفه عاطفته الفاترة ، فجاء رثاؤه ضعيفا . واختار المعز ابنه الثالث العزيز ليلى العهد ، ولم يلتفت إلى ابنه الأكبر ، فمن غير المعقول أن يعود إليه بعد أن نبذه . والراجح أن ولاية العزيز لم تكن مما يعجب له تميم ، وأنه كان يعرف أن الملك قد خرج من يده ولن يعود .

وفى العام التالى مات المعز ، فشيعه الشاعر بهذه الأبيات :

كيف لا تعدم الجسوم القلوبا ... وترى نضرة الوجوه شحوبا
من يعزى الجياد أم من يسلى ... مجلس الملك والسرير الكئيبا ؟
فقدوا بعدك القلوب اللواتى ... شقها واجب فشقوا الجيوبا
وامعزاه وامعزاه ؛ حتى ... يغتدى الدمع بالدماء خضيبا
فليذق غيرى الحياة فإنى ... لا أرى للحياة بعدك طيبا(٤)

(١) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٣٥ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٤ .
(٣) مقدمة المحققين لديوان تميم ص م .
(٤) ديوان تميم ص ٥٧ .

وهذا نفس قصير ، فيه تكلف . وكان فى وسع الشاعر أن يطيل نفس الرثاء بأن يعدد أعمال أبيه العظيمة ، ويشيد بانتصاراته ، ويثنى على حكمته ودهائه ؛ فهذه معان عرفها الرثاء منذ القدم ولكن عاطفة الشاعر أبت أن تجود إلا بعدد أصابع اليد الواحدة أبياتا .

وتولى العزيز مقاليد الأمور فى ربيع الثانى عام ٣٦٥ ، فساس الرعية سياسة رفيقة ، وأشاع الرخاء ، واهتم بالعلم والأدب . فكان طبيعيا أن يرفق بأخيه ، ويقدر أدبه ، ويرعى حق الإخاء ؛ فقربه إليه ، واجتهد فى إرضائه ، وتفنن فى إدخال السرور على نفسه ، فنراه يبنى له القصور ، ويصحبه فى تنزهاته هنا وهناك ، ويمده بالأموال الطائلة ؛ نستدل على ذلك بهذه الواقعة التى رواها ابن الأبار : « وكان العزيز يوالى إكرامه ، ويجزل عطاءه ، ويعامله بما قتله علما من مروءته وإخلاصه فى مدحه . ويحكى أنه تنزه إلى بركة الحبش ، فلما قرب من قصور أخيه تميم سأل عنه ، فأسرع إليه من عرفه ، فخرج راجلا حافيا حتى لقيه ، فسلم عليه بالخلافة ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد وجبت على عبدك الضيافة . فقال : نعم . ودخل معه إلى بستانه ، وقد أمر بجنيبة من الجنائب التى كانت بين يديه ، وأقسم على تميم أن يركبها ، وسايره . فلما توسط البستان نظر إلى ثمر يلوح الذهب عليه ، فتعجب منه واستطرفه ، ودنا من شجره فأخذ منها ليمونة واحدة فقرأها ، وإذا عليها مكتوب بالذهب :

أنا الليمون قد غذيت عروق[1] ببرد الماء فى حرز حريز
حسنت فليس يحسن أن يحيى بأمثالى سوى الملك العزيز

فجعلها فى كمه وقال : هذه ضيافتى عندك . وانصرف إلى قصره ، فبعث إلى جعفر بن قرهب صاحب بيت المال فقال له : ماعندك من الدنانير ضرب هذه السنة ؟ . وكان ذلك فى أولها ، فقال له : مائة وستون ألفا . فأمره بحملها من ساعته إلى الأمير تميم مع راشد العزيزى . وقال له : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : استعن بهذه على مؤونتك . فقبل الأرض . و بعث إليه من الغد قصيدة حسنة يمدحه فيها ويشكره[2] » .

---

(١) قد يقرأ هذا الشطر هكذا : «أنا الليمو الذى غذيت عروق» فى مصورة جامعة الدول العربية .

(٢) ابن الأبار ـ الحلة السيراء (نسخة مصورة بجامعة الدول العربية ص ١٣٤) .

ويبدو أن تميما كان مستعدا من أول الأمر أن يعفى على ما مضى ، ويعيش مع أخيه فى وئام ؛ إذ ما كاد يحس عطفه حتى اطمأن ، وطفق يكافئه إحسانه بالمدح . وإن المرء ليحس فى أول قصيدة مدحه بها إخلاصه له ، ويرى فى صفاء جوها الذى لم نتعوده من قبل تفاءله بعهده . تبدأ بالغزل المشرق ، ثم يجيء المديح الرائق . وسلاسة القصيدة لها دلالتها النفسية ؛ فهى لم تأت شفوا ، وإنما صدرت عن نفس مبتهجة ، وكأنما ابتهجت بموت المعز ، وأقبلت على الحياة فى ظل الخليفة الجديد(١)

وكأنما كانت البيئة المصرية ضالة تميم منذ أول عهده بها ، فواظب على الانطلاق بين جنباتها ، يمرح بين الجنان ، ويسكر على السماع فى المتنزهات أو على صفحة النيل(٢) أو فى الأديرة المنتشرة فى منطقة القاهرة(٣) . ولم يكن يلهو وحده فقد التفت به عصابة ماجنة منذ وقت مبكر فى الغالب . فحين انتقل إلى مصر كان فيها جماعات من الشعراء اشتهرت بالمجون كجماعة صالح بن رشدين(٤) . وفى اليتيمة نصوص مدح بها أبو الرقعمق العزيز وتميما والرسيين(٥) . ونجد مجونا بشعا فى مطلع قصيدة مدح بها أبو الرقعمق تميما ، ونجد حديثا عن الصفع والسخف فى قصيدة أخرى مدحه بها أيضاً(٦) . ولم يتورع أبو الرقعمق عن مدح العزيز بالطريقة نفسها . ومن مدحه لتميم نعرف أنه كان وثيق الصلة به ، أثيرا لديه . وكان تميم — كما ترى فى الديوان — صديقا للرسيين ممدوحى أبى الرقعمق ، وهم شعراء . فكان تميم يراسلهم بالشعر ، ويشرب مع الحسن والحسين الرسيين ، ويشترك معهما فى اللهو(٧) . ومن الديوان نعرف شاعر آخر اسمه أبو الحسن على بن الحسين القيروانى كان يتردد على تميم

---

(١) ديوان تميم ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٥ .

(٣) الديارات ص ١٨٤ .

(٤) الدكتور محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطميه ص ٢٤٥ .

(٥) الثعالبى : اليتيمة جـ ١ ص ٢٣٩ وما بعدها .

(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٧) ديوان تميم ص ٣١ ، ٧٢ ، ٨٥ ، ١٥٣ ، ١٩١ .

هو وأصحابه ليشربوا معه[١] . ونحن نجهل أكثر المجان الذين قدحوا مجون الشاعر ، وزينوا له الخلاعة ، وحسبنا أن نعلم أن منهم أبا الرقعمق الرقيع الذى اطرح الحياء ، ولم يعبأ بالقيم الخلقية ، ولم يتورع أن يخاطب العزيز بمدحته التى أولها :

أظن ودادهـا من غير نيـه وإن هى فيـه إلا مدعيـه[٢]

فأبو الرقعمق الذى كان يقف بين تميم وأصحابه هو عنوان الثلة التى كانت تحيط بشاعرنا . وهى ثلة كبيرة ؛ لأن العزيز وسع على أخيه ، وتميم جواد بشهادة أبى الرقعمق .

وإذا كان تميم قد حرم الخلافة فقد ألقيت إليه مقاليد الاحتفالات ؛ إذ نراه فى ديوانه مشرفا على مراكبها المعروفة بالعُشاريّات والسمارية[٣] ، ونراه فى الحلة السيراء يضيء مكان الاحتفال بالشموع ، ويتجول طول الليل فى رجاله الذين كانوا يبلغون مائتى فارس ، ليحمى المحتفلين ، ويرفه عنهم ويعينهم ، ويشاركهم البهجة[٤] . وليس من قبيل الصدفة أن تقع على بركة الحبش جنانه ومجلسه القائم على الأعمدة[٥] ؛ فقد كانت هذه البركة وخليج بنى وائل موطن الاحتفال بكثير من الأعياد كعيد الشهيد ، وعيد الصليب ، والنيروز ، والغطاس ، والميلاد ، وعيد الشعانين[٦] .

وانطلق تميم يتغنى بجمال البيئة ، ولذة الخمر ، وحب الجنس إلى جانب مدح أخيه . وكان فى الإمكان أن يمضى فى حياته ناعما لولا أن دخل الوشاة بينه وبين أخيه ، فكدروا عليه صفو العلاقة .

ونرى تميما فى أماكن متفرقة من ديوانه ؛ فى ثنايا المديح وفى قطع مستقلة ، يشكو الوشاة ، ويدعو أخاه أن يصنع بهم صنيعه ؛ فلا يقبل منهم ما يزخرفون ، ويردهم خائبين . ويلحظ القارىء فى تلك الأشعار روح الصدق ، ويسمع أنين

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٨ .

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٤١ .

(٣) ديوان تميم ص ٩٥ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيراء (نسخة مصورة بجامعة الدول العربية) ص ١٣٤ .

(٥) الشابشتى : الديارات ص ١٨٨ .

(٦) أنظر الخطط جـ ١ ص ٦٨ ، ٢٦٧ . والحلة السيراء ص ١٣٤ .

المظلوم . وكان الخليفة يستجيب لتوسل أخيه أحيانا ، فيوصد بابه فى وجوه الساعين ، ويحسن ظنه بأخيه فيقول له الشاعر مثلا :

كم مضمر لى عقد الشحناء ... جبهته بالرد والإقصاء
ولم تمكنه من الإصغاء ... حفظا لطاعاتى وللإخاء
حتى انثنى محترق الأحشاء ... والعدل جَبْهُ الكاشح السعاء
لا والدم الجارى بكربلاء ... ومن بها من دائم الثواء
بنى على وبنى الزهراء ... ذوى التناهى وذوى العلاء
ما حلت عن مستحسن الصفاء ... فيك ، ولا عن خالص الوفاء
فى ظاهر منى ولا خفاء ... فكيف أنسى منن الآلاء[1] . . . الخ

لكن العزيز كان يعود فينحرف عن الشاعر ، فيعاود الشكوى ، ويرجع إلى الأنين . ولابد أنه كان يضيق ذرعا بالخليفة ، ويتجدد فى نفسه الحنق القديم . وليس بين أيدينا أدلة واضحة تثبت أنه عاود التآمر ، أو حاول الانتقام . وكل ما لدينا هموم وتهديدات غامضة فى الديوان لا تصلح أساسا للقول : إن الشاعر كان يحيك المؤامرات[2] . وفى الديوان قصيدتان مدح بهما تميم العزيز ، وحن فيهما إلى وطنه الأول حنينا جميلا[3] . فلعل حنينه ذاك هروب من واقعه الذى كان يشوبه الكدر فى بعض الأوقات .

وربما تذكر الشاعر أيام المعز فرآها خيرا من أيام الكدر فى ظل العزيز ، فحن إليها على هذا النحو :

سقيا ورعيا لزمان مضى ... به معهد فعدمناه
ما كان أبهى حسن أيامه ... فينا وأحلاه وأهناه
إذ لم يكن فى عين شمس لنا ... مخيَّم نكره سكناه
ولم نكن ننزل فيه على ... حكم من الأيام نشناه
لكننا نغدو على ما جد ... تمطرنا بالجود يمناه[4]

---

(١) ديوان تميم ص ١٧ ـ ١٨ .
(٢) أنظر المصدر السابق ص ٨٩ ، ١١١ ، ١٨٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٣٥٨ .
(٣) أنظر المصدر السابق ص ٣٦ ، ٤٢٩ .
(٤) ديوان تميم ص ٢٤ .

وقد شكا تميم الغربة والفراق ، وهجا بعض البلاد الواقعة على طريق الشام[١] ، وحن إلى مصر ؛ فانبنى على ما تقدم افتراض أن العزيز نفى أخاه إلى الرملة[٢] . ويجوز أن نفترض افتراضا آخر ، وهو أن العزيز لم ينف أخاه ، وإنما كان يصحبه معه فى حملاته على بلاد الشام الدائمة الثورة بعد أن انهزم جوهر أمام الأعصم وأفتكين . ويؤيد هذا الافتراض ما يلى :

أولا : لم يذكر أحد من المؤرخين نفى تميم .

ثانيا : ليس فى الديوان إشارة صريحة إلى النفى .

ثالثا : لا داعى لنفى الشاعر إلى الشام لو كان العزيز ينوى التخلص منه ، إذ كان يمكنه حبسه فى مصر لا فى الشام الثائرة حيث أخذ المدن وردها ، وحيث تتاح للشاعر فرصة الارتماء فى أحضان الاعداء . وما كان أحب إلى القرامطة أن يعثروا على تميم فيعينوه خليفة ، ويتخذوه ألعوبة فى أيديهم .

رابعا : نجد الشاعر مع أخيه قبيل معركة الرملة عام ٣٦٧ ، وساعة خروجه إلى الشام عام ٣٧٤[٣] . ونجده فى مصر أكثر من مرة فيما بين هذين العامين[٤] .

خامسا : ذكر الشاعر كلمة المخيم فى آخر نص رأيناه .

وقد يكون إشراك تميم فى الحرب أمرا قصد به أن يسهم فى الدفاع عن الدولة المحتاجة إلى كل ساعد عامل ، وقد يكون القصد أن يجعله الخليفة قريبا منه حتى لا يجد الفرصة للتفكير فى الثأر فى غيبته خارج القطر فى تلك الظروف العصيبة . ومهما يكن الصواب فقد ضاق تميم بتكاليف الحرب ، وكره حياة المعسكرات ، وحن إلى النعيم القديم ، فشكا ألم الفراق ، وبكى ليالى مصر ، وراسل من بها من الأهل والأصحاب ، وأطلق لسانه فى محاط الجيش . فما كان ليستريح إلى الحياة فى بلبيس الراكدة بعد القاهرة الزاخرة ، وما كان ليأنس بعواء الذئاب فى عين شمس ، وتلوى الأفاعى على الرمال تحت نار الهجير بعد أن ألفت أذنه سماع الألحان ، وتعودت عينه رؤية الخضرة والأمواه والوجوه الحسان[٥] . وما أشبه شاعر مصر المتقدم بشاعرها

(١) أنظر ديوان تميم ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق ص س من المقدمة .

(٣) المصدر السابق ص ٥٢ ، ٩٠ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٢ ، ٢٠١ ، ٣٣٩ .

(٥) أنظر المصدر السابق ص ٢٨٣ ، ٢٥٣ .

المتأخر حافظ ابراهيم حين ساقه قدره إلى السودان فلم يصبر على شظف العيش هناك ،فأرسل شعره إلى مصر يستغيث ، ومازال يئن حتى أعيد[١] . أما تميم فإنه لم يخلص من ويلات الحرب ، وألزم أن يتبع الحملات . لقد منى بضياع الملك ، فتمرد ثم ركن ، ورضى من الحياة باللين ، وها هو أخوه يأبى عليه الراحة ، ويقطع عليه الصفو ، ويعرضه لأن تنتاشه السيوف أو يشيط على الرماح . ألا ما أتعس حظه .

ويظهر أن إسراف الشاعر فى السكر وإفراطه فى تصرفاته الجنسية قد أضعفا جسمه ، وأورثاه السقام . ولا ننسى أن الأمير الرقيق قد حالفته الهموم منذ صباه ؛ خلعه أبوه فى المغرب ، وأشتد فى معاملته هناك وفى مصر . فلما انصرمت أيام المعز وجاءت أيام العزيز لم يكد يأنس بأخيه حتى تكنفه الوشاة ، وأفسدوا عليه صفو حياته . ومثل هذه الأحوال السيئة لابد أن تضر أعصاب الشاعر ، وتؤذى نفسه ، وتعين عليه الضعف . فلا عجب أن نسمع هذه الأبيات فى مديح العزيز عام ٣٧٢ :

لما بلغت أشدى بعد ما انصرمت ... بعد الثلاثين خمس من زمانى لى
راجعت حلمى وآثرت الوقار ومن ... يحلم يوقر ومن يستحى ينتضل
كما أطعت شبابى فى الصبا فكذا ... أطيع فى صالح الأعمال مكتهلى[٢]

ويدل البيت الثالث على أن الشاعر أحس زوال الشباب ، وتأهبت نفسه لاستقبال المشيب . وربما اعترض معترض بأن هذه مبالغة من مبالغات الشعراء المعروفة ، يذهب إليها الشاعر فى ساعة يأسه أو حزنه . لكن متاعب تميم وروح القصيدة ينبئان بصدقه كما ينبىء به تكريره لهذه الشكوى فى موضعين آخرين[٣] .

وفى القصيدة التى منها الأبيات الثلاثة السابقة نجد تميما يشكو آلاما مبرحة ألمت برجله ، حرمته النوم ، وكادت تورثه الخبال ، فحالت بينه وبين حضور الاحتفال بالعيد مع أخيه . وجدير بالذكر أن الشاعر شكا الداء نفسه فى موضع آخر من الديوان[٤] ، فلعله كان مصابا بالنقرس .

---

(١) أنظر مقدمة ديوان حافظ ابراهيم .
(٢) ديوان تميم ص ١٣٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٧ ، ٢٤٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٥ .

ونرى الشاعر على أهبة العودة إلى مصر اليوم الخامس من جمادى عام ٣٧٤[١] . ولعل هذا اليوم كان آخر عهده بالشام . وفى العام نفسه مات فأمر أخوه محمد بن النعمان أن يقوم بتغسيله فى البستان . فلما غربت شمس ذلك النهار الذى غربت فيه شمس الشاعر ، أخرج إلى القرافة ملفوفا فى ستين ثوبا حيث صلِّى عليه ، ثم حمل النعش إلى القصر وأرقد الشاعر بجوار أبيه[٢] .

(١) المصدر السابق ص ١٣٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢١ ورد فى هذا المصدر تواريخ للوفاة : ٣٦٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ . وقد ذكر الأول فى النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٣٣ ،وفى حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٧ ، وهذا خطأ . وقد آثرت التاريخ الأوسط لانقطاع الأثر عنده فى الديوان إذ نجد فيه أكثر من إشارة إلى عام ٣٧٤ ، ولا نجد أى إشارة إلى زمن بعده . انظر الديوان ص ١٣٩ ، ٤٠٦ .

البـــــاب الثانى

الفصل الأول

لتميم قصائد شيعية مستقلة[١] ، وفى مديحه أجزاء شيعية قد تكون إشارة ، أو تكون أطول من إشارة ، وقد تطغى على المدحة حتى تكاد تستغرقها . ونجده فى الجانب الشيعى الفاطمى من شعره يقص قصة حزبه ، فيفاخر بمواقف الأسلاف ومآثرهم ، ويرثى الشهداء ، ويهجو الأعداء ؛ كما نجده يردد العقائد الشيعية ، ويستعمل الأسلوب الباطنى فى التعبير .

قصة الحزب

أ ـ العلويون والأمويون

المنافسة بين الهاشميين عموما والأمويين قديمة ، ترجع إلى أيام الجاهلية . وعندما ظهر الإسلام لعبت دورها ثم اختفت إلى حين . فلما قتل عثمان تعصب له معاوية ، وتمرد على الخليفة الجديد ، فحدثت معركة صفين . ورجحت كفة على فى بداية المعركة ، فأشار عمرو برفع المصاحف على أسنة الرماح ، ليحكم كتاب الله بين المتنازعين . وجازت الحيلة على أتباع على فأكرهوا الخليفة على وقف القتال . ويشير تميم إلى يوم صفين فيقول وهو يتحدث عن يوم طَرَدٍ :

نحرت فيه الوحش أى نحر ... نحر الوصىّ جيش آل صخر[٢]

والحق أن عليا لم ينحر جيش آل صخر فى ذلك اليوم . وإن تفوق عليه فى أول الجولة . وإنما انتحر حزبه الذى خدع وتشتت فيما بعد . ولقى على حتفه بعد لأى ،

---

(١) انظر ديوان تميم ص ٧٨ ، ١١٧ ، ١٦٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٢٤٥ ، ٢٦٨ ، ٤٢٢ ، ٤٥٥ ، ٤٦٣ . أنظر كذلك ص ٣٥٥ والقصيدة ص ٤٤٩ .

(٢) ديوان تميم ص ١٩٠ .

وحمل أبنه الحسن المسؤولية ، ولكنه ناء بها ، وأخلى الميدان لمعاوية . وفى عهده رزح الشيعة تحت نير زياد . واستمرت الحال فى عهد بزيد . ثم وقعت واقعة تركت أثراً كبيراً فى تراث الشيعة عموما وفى شعر تميم خصوصا ؛ تلك هى مأساة كربلاء ؛ فقد أشار إليها فى شعره مرارا ، وتحدث عنها حديثا طويلا فى داليته التى مطلعها :

نأت بعد ما بان العزاء سعاد فحشو جفون المقلتيْن سهاد[1]

وفى يائيته التى مطلعها :

الحر لا يأتى الدنيه والمجد للنفس الأبيه[2]

فإذا نظرنا إلى الدالية المذكورة وجدنا الشاعر يفتتحها بنسيب حزين ، يتحدث فيه عن بعد المحبوب وانعدام العزاء ، ومعاناة الأرق ؛ ويتمنى أن يكون قلبه منزل الراحلين ، ودموعه ريّاً لهم ؛ ويذكر كيف استقروا حينا من الدهر ، فكان بينه وبينهم وداد صادق ، لكن النوى كادت لهم وهم آمنون . وكم نجاح يرجى فيخيب الرجاء ، وكم شر يهدد ثم يعقب أمنا . ثم يلتفت إلى العاذل قائلا :أنا لست لاهيا ، ولا أرى لى طريقا إلى الصبر .

وهذا نسيب قد أضفت عليه الحزن المأساة الدامية . ويذهب الشاعر بعده **يصف المأساة فيقول :**

ثوت لى أسلاف كرام بكربلا هم لثغور المسلمين سداد
أصابتهمُ من عبد شمس عداوة وعاجلهم بالناكثين حصاد

* * *

وقتلهم بغيا عُبَيْدٌ وكادهم يزيد بأنواع الشقاء فبادوا
بثارات بدر طالبوهم ومكة وكادوهم والحق ليس يكاد
فحكمت الأسياف فيهم ، وسلطت عليهم رماح للنفاق حداد
فكم كربة فى كربلاء شديدة دهاهم بها للناكثين كياد

---

(١) المصدر السابق ص ١١٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥٥ .

تحكم فيهم كل أنوك جاهل ... ويغزون غزوا ليس فيه محاد
كأنهم ارتدوا ارتداد أمية ... وحادوا كما حادث ثمود وعاد
ألم تعظموا ياقوم رهط نبيكم ... أمالكمُ يوم النشور معاد
تداس بأقدام العصاة جسومهم ... وتدرسهم جُرْدٌ هناك جياد!
تضيمهمُ بالقتل أمة جدهم ... سفاها ، وعن ماء الفرات تذاد
فماتوا عطاشا صابرين على الوغى ... ولم يحبنوا ، بل جالدوا وأجادوا
ولم يقبلوا حكم الدعيّ لأنهم ... تساموا وسادوا فى المهود وقادوا

ويشير البيت الرابع إلى ما يقال عن يزيد بن معاوية إنه لما رأى رأس الحسين تمثل بقول عبد الله بن الزبعرى :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرم من أشياخهم ... وعدلناه ببدر فاعتدل[1]

ويمضى الشاعر يرثى الحسين ورسوله المنكود الطالع مسلم بن عقيل[2] وغيرهما ، ويسترق لهم القلوب ، ويستبكى العيون ، ثم يكمل وصف المأساة :

تساق على الإرغام قسراً نساؤهم ... سيايا إلى أرض الشام تقاد
يُسَقْنَ إلى دار اللعين صواغرا ... كما سيق فى عصف الرياح جراد
كأنهمُ فىء النصارى ، وإنهم ... لأكرم من قدْ عَزّ منه قياد
يعز على الزهراء ذلة زينب ... وقتل حسين والقلوب شداد
وقرع يزيدٍ للقضيب بسنه ! ... لقد مجسوا أهل الشآم وهادوا !

ثم يتبع ذلك الفخر والتهديد . ويلاحظ على هذه القصيدة شيئان :

الأول أن الشاعر يذكر فيها أحداثا تاريخية بارزة ، فيذكر عبيد الله بن زياد ، ويشير إلى التمثل بأبيات ابن الزبعرى ، ويذكر وطء الخيل للجثث[3] ، وظلماً الحسين

---

(١) أبو الفرج الأصفهانى : مقابل الطالبيين ص ٨٨ .
(٢) ابن الأثير الكامل جـ ٤ ص ١٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤١ .

وأتباعه[١] ، وأسْر العلويات[٢] ، وحَرَج زينب بنت على[٣] ، وقرع يزيد لسن الحسين بالقضيب[٤] .

الثانى أن الشاعر متأثر بالأدب الذى دار حول الأحداث الفاجعة التى نزلت بالشيعة ، فنحن نقرأ فى القصيدة هذا البيت :

أصابتهم من عبد شمس عداوة وعاجلهم بالناكثين حصاد

وهذا البيت يذكرنا بقول الحجاج لأهل الكوفة : « وإنى لأرى رؤوسا قد أينعت وقد حان قطافها »[٥] والبيت :

بثارات بدر طالبوهم ومكة وكادوهم والحق ليس يكادُ

إشارة إلى تمثل عبيد الله ، ولكنه ربما كان متأثرا قول دعبل :

وما الناس إلا حاسد ومكذب ومضطغن ذو إحْنَةٍ وترات
إذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ويوم حُنَيْنٍ أسبلوا العبراتِ[٦]

وبيت تميم :

كأنهم جاءُ النصارى وإنهم لأكرام من قد عزَّمنه قياد

يشبه بيت دعبل :

قتل وأسر وتحريق ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر[٧]

والقصيدة اليائية تشبه الدالية شبها كبيرا ، فتذكر حادثة كربلاء بالتفصيل ، فتشير إلى وقائعها التاريخية الهامة . وكلتا القصيدتين حافلة بالأسى على أهل البيت ،

---

(١) أبو الفرج : مقاتل الطالبين ص ٨٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٤٢ .
(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٢ .
(٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٢ .
(٥) ابن الأثير : جـ ٤ ص ١٨٢ .
(٦) ياقوت : معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٠٤
(٧) ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ ٥ ص ٢٣٣ .

والحسرة على ما حل بهم ، والتنديد بما صنعه بهم الأعداء والفخر بأمجاد الأسرة ، وهجاء الحزب الأموى . ومما جاء فى اليائية رثاء للذين لقوا مصرعهم فى كربلاء :

جلَّتْ بسفك دم الحسيـــــــن وقتلـه عنـدى الرزيـــهْ
ماذا أبيـــــح بكربـــــلا ءَ من النفـوس الهاشميـــه !
ماذا تخطـــــــفت الصوا رم منهم والسمهريـــــــه !
بكت السمـــــاء لفقدهـــــم والأرض ، واحتـــذت البريـه !

ويذكرنا البيت الأخير بما ترويه كتب التاريخ : « قيل وسمع بعض أهل المدينة ليلة قتل الحسين مناديا ينادى :

أيها القاتلون جهـلا حسينـا أبشروا بالعـــذاب والتنكيـــل
كل أهل السماء يدعو عليكم من نبَـى ومَـلْأكٍ وقبيـــل
قد لُعنتُمْ على لسان ابن داوو د ومـوسى وصاحب الإنجيـل

ومكث الناس شهرين أو ثلاثة كأنما تلطخ الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع . . . (١) .

وبعد مضى أكثر من ثلاثة قرون على واقعة كربلاء ثار أهل الشام مع القرامطة وأفتكين ، وهزموا جوهرا الصقلى ، وحملوه على الانسحاب المخزى . فقاد العزيز جيوشه بنفسه ، وسار إلى الشام ، وأنزل الهزيمة بالثائرين ، وأخضع تلك البلاد . فلما هم تميم بمدح أخيه فى تلك المناسبة تذكر ماضى أهل الشام ، وتذكر كربلاء وماتلاها فقال فيما قال :

وأرهبت أهل الشام حتى تركتَهم وليس لهم سر سواك ولا جهرُ
وسستَهمُ حزما بما لم يسسهم بمعشاره يوما زياد ولا عمرو
فلو تسمع الموتى لناديتَ مسمعا يزيد : بخزى قم فقد أدرك الوتر
نهضت بثارات الحسين وزيده نهوضا به من زينب شفى الصدر
ففاطمة الزهراء تفـديك بابنها وتسأل أن تبقى ويبقى لك العمر(٢)

---

(١) ابن الأثير : جـ ٤ ص ٤٦ .
(٢) ديوان تيم ص ٢٠٢ .

فالشاعر كان يرى أن دماء الرجال الذين ناصروا معاوية وخلفاءه تجرى فى عروق معاصريه من أهل الشام الذين ثاروا على العزيز ، فأوقع بهم الهزيمة ، وبث فى قلوبهم الرعب أكثر مما بثه زياد بن أبيه وغيره فى قلوب الشيعة فى الماضى ؛ لذلك عد ما حل بأهل الشام على يد أخيه ثأرا للحسين وزينب وزيد بن على زين العابدين .

وقد قام الشيعة بحركات متتابعة فى وجه الأمويين بعد مقتل الحسين فى المدة التى عاشتها الدولة الأموية بعد علم ٦١ ، وبذلوا كثيرا من التضحيات ، وصرع فى تلك الحركات بعض العلويين ؛ فتزعمهم المختار بن أبى عبيد الثقفى حينا ، واستطاع أن يهزم عبيد الله ويقتله ولكنه لقى حتفه على يد مصعب بن الزبير[١] . وخرج زيد بن على على هشام عام ١٢٢ وقتل[٢] ، وخرج بعده ابنه يحيى عام ١٢٥ وقتل أيضا[٣] . ولكن تميما لم يطل الوقوف عندما حدث بعد كربلاء ، وإنما راح يذكره ذكرا عابرا أو ضمنيا إذا ما تحدث عن مأساة كربلاء فى قصائده . وفى النص الشعرى السابق ذكر لزيد بن على . وفى الدالية هذا البيت :

فكيف يلذ العيش عفوا وقد سطا وجار عُلى آل النبى زيـــاد

وفيها هذا البيت :

فلهفى على زيد وَبَثا مردَّدا إذا حان من بث الكئيب نفاد

وإذا كان الفخر والهجاء فى الدالية مختلطين بالأغراض الشعرية الأخرى فإن للشاعر قصيدة سينية ثالثة قالها فى الفخر والهجاء ؛ بدأها بوصف الروض وما فيها من ناعورة وشجر وزهر ثم انتقل إلى الدعوة إلى الشرب ، ثم التفت إلى الأمويين أعداء حزبه التقليديين فصبَّ عليهم هذه الأبيات :

واسْمُ إلى الصيفوة من هاشم أهـــل معـــاليها وتقديسهـــا
إن قريشا بعـــــلا هاشم تفخـــر فى عقـــوة عريسهـــا
إن يك منْ ياقـــوتها هاشم فعبـــد شمس من ضغابيسهـــا

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ١٢٨ ، ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق جـ ٥ ص ١١٣ .
(٣) المصدر السابق جـ ٥ ص ١٢٧ .

دع عيد شمس وأباطيلها ... فقد بدا الله بتنكيسها
قبيلة ما طهر الله مَنْ ... شايعها من إثم تنجيسها
طافت بحرب وهو فرعونها ... طوف النصارى حول قسيسها
دم النبى المصطفى ظاهر ... يلوح فى بنيان تأسيسها
سقتْ بنيه بالردى واغتدت ... نساؤه سَبْيًا على عيسها
قبيلة أفضلها شرها ... لا شرفت عن حال مرؤوسها
فإنها أولى بإتعاسها ... ولعنها من لعن إبليسها[١]

ففخر الشاعر على الأمويين بمكانة أسرته فى مكة قبل الإسلام[٢] ، فقد سيطرت على الكثير من مرافق البلد الحرام ؛ وحقر عبد شمس الضعيف الخطر ؛ وشبه حربا جد الأمويين بفرعون والقسيس ؛ وشمت فى زوال الحكم الأموى من الشرق ، وأشار إلى الدماء النبوية التى أريقت ، وأسْر أهل البيت فى كربلاء ، وأنهى حديثه بالدعاء عليها ولعنتها لعنة الإبليس أى الضد أو المغتصب[٣] ، ولعله يقصد معاوية ضد على . ولم ينس الشاعر كربلاء هنا ؛ وهو يكرر الإشارة إليها فى غير ما تقدم[٤] .

وهكذا خدم تميم حزبه الذى ينتمى إليه ، فندد بالعدوان الذى وقع عليه ، ورثى ضحايا العدوان ، وفخر على المعتدين وهجاهم . وجدير بالذكر أن أحد المؤلفين قد أخذ على ابن المعتز تعرضه للأمويين والعلويين ، وذهب إلى أنه اتجه اتجاها غير سليم ؛ إذ كان الأولى أن يندد بالأتراك الذين أشاعوا الظلم فى عهده ، واعتدوا على الخلفاء العباسيين أنفسهم ، بدل أن يندد بالأمويين الذين أصبحوا أحدوثة من أحاديث التاريخ ، وبدل أن يندد بالسلف من العلويين والثائرين منهم بالأطراف[٥] . ولم يعين المؤلف من يسميهم الثائرين بالأطراف ، ولكنه على علم بأن الأمويين كانت لهم دولة فى الأندلس[٦] ، أخذت تنهض فى الوقت الذى بلغت فيه الدولة العباسية غاية

---

(١) ديوان تميم ص ٢٤٦ .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٧٠ .
(٣) الدكتور محمد كامل حسين : المؤيد فى الدين ص ١٢٢ .
(٤) انظر ديوان تميم ص ١٧ ، ٢٥ ، ٤٤٩ .
(٥) عبد العزيز سيد الأهل : عبد الله بن المعتز ص ٦٧ .
(٦) المرجع السابق ص ٦١ .

الضعف ، وإن كان لم يذكر لنا اسم دولة الأدارسة العلوية فى المغرب ، ونشاط الدعاية الإسماعيلية فى المغرب والمشرق معا . وقد شاهد ابن المعتز خطر الفاطميين فى الأفق الغربى وهو فى آخر حياته ؛ فلا غرو أن يعرّض بأعداء العباسيين . وفى عصر تميم كانت الدولة الأموية فى غاية القوة ، تزعمها عبد الرحمن الناصر ، ثم الحكم ، ثم المنصور بن أبى عامر الوزير الجبار . وكان العداء شديدا بين الأمويين والفاطميين ؛ فراح الشاعر يقول الشعر الذى رأيناه يدور حول علاقة الأمويين بالعلويين ، ومن أغراضه أن يذكر الناس بالجرائم التى ارتكبها أسلاف معاصريه من حكام الأندلس ، وليغضّ منهم ، وليستدرّ عطف المسلمين على الدولة الشيعية الجديدة .

ب ــ العلويون والعباسيون

العلويون والعباسيون فرعان من الأسرة الهاشمية . وكانوا متحدين فى أول الأمر . وقد التفوا حول على بن أبى طالب لما ناوأه معاوية ، وشاركوه المحنة ، كما التف الكثير منهم حول أبنائه من بعده . واستمر الفرعان متحدين حتى اقترب القرن الأول من نهايته ، وإذ ذاك بدأ العباسيون يطمعون أن يكونوا هم الخلفاء[١] . ومع ذلك استمر التعاون بين الجانبين . وحين انتخب محمد بن عبد الله زعيما بايعه الهاشميون[٢] . فلما سقطت الدولة الأموية ، ونودى بالسفاح خليفة ، تمرد محمد بن عبد الله هو وأخوه ابراهيم لأنه كان يرى بيعته فى عنق الخليفة الجديد . فلما تولى المنصور رفض الأخوان أن يبايعاه ، فبدأت سلسلة من الأحداث ذهب ضحيتها الأخوان وكثيرون من أسرتهم فيما بعد[٣] .

وقد صاحب هذا الصراع صراع قولى دار حول وراثة الملك ، والفخر بالأسلاف والتجريح . وقد عرف الحزب العلوى هذا اللون من الصراع منذ بدايته ؛ فإن عليا افتخر بنسبه على معاوية لما تبادلا الرسل ، وجرحه بتأخر إسلامه[٤] .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٢ ص ١١ .
(٢) أبو الفرج : مقاتل الطالبيين ص ١٦١ .
(٣) راجع المصدر السابق ص ١٦١ .
(٤) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٤ .

وجادل الكميت عن حق آل البيت فى الخلافة[١] ، وأشاد بمآثرهم[٢] ، وجرح الامويين[٣] ؛ فعرض آل على لهجاء الحكم بن عياش[٤] .

ومن الطريف أن محمد بن عبد الله قد راسل أبا جعفر المنصُور ، فقال إن عليا وصى الرسول والإمام الذى اختاره ؛ فالخلافة تراث علوى اغتصبه بنو العباس بعد أن طلبوه باسم أبناء على . ثم راح محمد بن عبد الله يفخر بنسبه فى رسالته[٥] . فرد عليه أبو جعفر ردا طويلا ذهب فيه إلى أنه عاصب يرث الخلافة دون أبناء فاطمة ؛ ومضى ينقض فخر عدوه بنسبه ؛ وراح يعيره بكفر أبى طالب وفقره فى الجاهلية ، وبتولية الرسول أبا بكر الصديق إمامة المصلين ، وبكره كثير من الصحابة لعلى بسبب الفتن ، وبتخاذل الحسن بن على وإخفاق الحسين وسلالة على ؛ وأنشأ يفخر بأن العباس له شرف السقاية فى الجاهلية والإسلام ، وبأنه كان يموِّن أبا طالب ، وبأنه افتدى عقيلا يوم بدر ، وبأن عمر قد استسقى به لما افتقرت المدينة المنورة إلى الأمطار . وطفق يمن عليه بأن العباسيين قد نهضوا لما عجز العلويون ، فنجحوا ، وأخذوا بثأر أبناء عمهم ، وأبطلوا سبَّ على[٦] .

وساير شعراء العباسيين تيار حزبهم ، ففتح منصور النمرى الباب لسب العلويين[٧] ، واندفع الشعراء يناصرون العباسيين . ونجد مروان بن أبى حفصة فى القرن الثانى يهاجم العلويين ، ويؤيد حق بنى العباس فى الخلافة فيقول :

يا ابن الذى ورث النبى محمدا ... دون الأقارب مَن بن الأعمام
الوحى بين بنىَ البنات وبينكم ... قطع الخصام فَلَاتَ حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم ... حَطم المناكب كل يوم زحام

---

(١) هاشميات الكميت ص ٤٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩ ، ٤٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٦ ، ٦٨ ، ٧٠ .
(٤) الدكتور شوقى ضيف : التطور والتجديد ص ٢٢٥ .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٥٤ .
(٦) ابن الأثير : جـ ٥ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ .
(٧) عبد العزيز سيد الأهل : عبد الله بن المعتز ص ٦٨ .

ارضوا بما قسم الإله لكم به ... ودعوا وراثة كل أصيدَ حامى
أنّى يكون — وليس ذاك بكائن — ... لبنى البنات وراثة الأعمامِ
ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا ... أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم ... وغُرِرْتُمُ بتوهم الأحـــلام(١)

وهذا كلام قاله من قبل أبو جعفر المنصور فى رده على محمد بن عبد الله ، ولا فضل لصاحبه إلا صبه فى قالب موزون فخم ، وقد راح الشاعر يردده(٢) . وكان يحلوله الفخر بالسقاية(٣) .

ونسمع أبانا اللاحقى يذهب هذا المذهب ، فيرى أن الخلافة ميراث العباسيين ، فيقول وهو يمدح الرشيد :

نشدت بحق الله من كان مسلما ... أعم بما قد قلته العجم والعربُ
أعم رسول الله أقرب زلفة ... إليه أم ابن العم فى رتبة النسبُ ؟
وأيهمـــا أولى به وبعهـــــده ؟ ... ومن ذا له حق التراث بما وجب ؟
فإن كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ ... وكان علىّ بعد ذاك على سبب
فأبنـــاء عبـــاس هم يرثونـــه ... كما العم لابن العم فى الإرث قد حَجب(٤)

وكان للعلويين شعراء دافعوا عنهم ، وأيدوا حقهم فى الخلافة كدعبل والسيد الحميرى . وقد زعم الشيعة أن النبى أوصى أن يكون على إمام المسلمين بعده يوم الغدير . ولهذا اليوم ذكر فى شعر الكميت(٥) . وتنسب إلى السيد الحميرى أبيات ذكر فيها أمر الوصاية(٦) . فإذا صح أنها له فإنها تكون ردا على العباسيين وشعرائهم الذين أكثروا من الحديث عن حقهم فى وراثة الخلافة .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد جـ ١ ص ٣٦٠ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥٩ . وشعر مروان بن أبى حفصة ص ٥٣ — ٥٤ .
(٣) شعر مروان بن أبى حفصة ص ٣٧ ، ٥٤ ، ١٠٤ .
(٤) ابن واصل : تجريد الأغانى جـ ٦ ص ٢٣١٨ — ٢٣١٩ .
(٥) هاشميات الكميت ص ٨١ .
(٦) ابن واصل : تجريد الأغانى جـ ٢ ص ٨٦٤ . وقد أشار المصدر إلى أن الأبيات تنسب إلى السيد الحميرى وإلى كثير عزة .

وقد عرف القرن الثالث شاعرا عربيا كبيرا ، تجرد للدفاع عن العباسيين وخلافتهم ، وانبرى للفخر بهم ، وللتعريض بالمعارضين ، ذلك الشاعر هو عبد الله بن المعتز والخليفة فيما بعد .

وفى الوقت الذى كان العلويون يقاتلون فيه العباسيين بالسيف ، ويجادلونهم بالقلم كان الفاطميون المقنعون يبثون دعوتهم ، ويبشرون الناس بدولتهم . وفى عام ٢٩٦ رفع عبيد الله القناع عن وجهه فى المغرب ونصب نفسه خليفة ؛ فقامت الدول الفاطمية ، ومات عبد الله بن المعتز فى العام نفسه . وبعد إحدى وأربعين سنة ولد للدولة الجديدة شاعر علوى هو الأمير تميم بن المعز لدين الله .

عرف تميم تاريخ حزبه السياسى ، واطلع على ما درا بينه وبين مناهضيه من تدافع وتناحر وتراشق بالهجاء ؛ فشمر عن ساعده ، ومضى يرد على العباسيين . ويهمنا هنا قصيدتاه اللتان ذكر الناسخ أنه ناقض بهما بن المعتز[١] ، وقصيدة عينية[٢] ، وقصيدة لامية[٣] ، وقصيدة نونية أرسلها إلى أخيه يوم عيد[٤] ، وجه منها إلى العباسيين عشرين بيتا . ومن يقرأ ديوان ابن المعتز يجد القصيدتين اللتين ناقضهما تميم وأشار إليهما ديوانه[٥] ، ويجد نصوصا أخرى غيرهما تجرى فى التيار نفسه[٦] ، وهنا يعن لنا هذا السؤال :

ألم يناقض تميم ابن المعتز مرة أو مرات غير ما ذكر الناسخ ؟

ليس فى ديوانى الشاعرين اللذين بين أيدينا الآن نقائض . ونجد فى ديوان ابن المعتز قصيدة نونية مطلعها :

شجاك الحمى إذ بانوا فدمع العين تهتان[٧] .

---

(١) ديوان تميم ص ٧٨ ، ١٨٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٤٩ .
(٥) ديوان ابن المعتز جـ ١ ، ص ٥ ، ٣٠ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ، ص ٢٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، جـ ٢ ص ٨ ، ٨٧ ، ٩٠ . . . الخ
(٧) المصدر السابق جـ ١ ص ٥٥ .

ونجد فى ديوان تميم قصيدة مطلعها :

نعت بالبين غربان فأحبابك أظعان[١]

والقصيدتان متحدتا الوزن والقافية . ومن يدقق النظر يعرف أنهما ليستا نقيضتين . والراجح أن شاعرنا لم يناقض قصائد لابن المعتز غير الاثنتين اللتين عرفناهما . ولو أنه فعل لذكر الناسخ ذلك .

وهنا يعنُّ لنا سؤال آخر :

أناقض تميم بشعراء آخرين غير ابن المعتز ببقية قصائده ؟

ربما كانت بقية تلك القصائد أو بعضها نقائض لقصائد قالها شعراء عباسيون . ولكن الناسخ لم يذكر أى شيء يؤيد ذلك ، وموقفه هذا يضعف القول بأن الشاعر الفاطمى ناقض شعراء عباسيين آخرين . وهنا يعن لنا سؤال ثالث :

ألا تكون قصائد تميم هذه الباقية معارضات لقصائد نظمها شعراء شيعيون ، ثم جاء هو فنظم قصائد لها وزن تلك القصائد الشيعية وقافيتها واتجاهها ، يريد بذلك أن يؤيدها ؟

ربما كان هذا الرأى صوابا لسببين :

الأول أنى وجدت لتميم قصيدة شيعية عارض بها أبياتا للسيد الحميرى ، وهى قصيدته اليائية التى تحدث فيها حديثا طويلا عن كربلاء وما جرى فيها ، وقد عرضنا لقصيدة تميم من قبل[٢] . وأبيات السيد الحميرى رثاء للحسين . والثانى أن فى ديوان تميم معارضات كثيرة لم يشر إليها الناسخ ، مع أن الشاعر نفسه قد يصرح بأنه يعارض قصيدة ما كما سنرى . فلا بدع ألا يشير الناسخ إلى القصائد التى عارض بها تميم قصائد شيعية . وكأنه لم يهتم من قصائد تميم إلا بما ناقض به .

وغير بعيد أن تكون قصائد شاعرنا الشيعية معارضات لقصائد ، وغير بعيد أيضا أن يكون الكثير من قصائده الشيعية قد قالها ابتداء لم يناقض بها ولم يعارض . وأينما يكن الصواب فإن عبد الله بن المعتز قد نظم مجموعة من النصوص عبر فيها عن

---

(١) ديوان تميم ص ٤٢٩ .

(٢) انظر أبيات السيد الحميرى فى الأغانى جـ ٧ ص ٤٤٠ (طبعة دار الكتب) .

أهواء أسرته ، وردد ما قاله أبو جعفر المنصور فى رسالته إلى محمد بن عبد الله قبل الحرب ، وما قاله شعراء القرن الثانى ومن بعدهم من أنصار العباسيين . وجاء تميم بعد ذلك فجد فى الاعتراض على الأهواء العباسية التى تمثلت فى ديوان ابن المعتز الذى يعرفه خير المعرفة ؛ ونظم قصيدتين لهما وزنا قصيدتين لابن المعتز ولهما قافيتاهما ؛ وردد أقوال زعماء أسرته وشعرائها قبله .

ويحسن أولا الوقوف عند إحدى القصيدتين اللتين ذكر أن تميما ناقضهما . من يقرأ قصيدة ابن المعتز الرائية[١] يجده يفتتحها بالنسيب ، ثم ينتقل إلى وصف حصانه ، ثم يفخر فخرا عاديا فيقول : إنه من فرع هاشمى عظيم ، وإنه كريم ، وإنه شجاع . ويعجب القارىء لتميم ينتقى هذه القصيدة البريئة ، فينظم واحدة لها وزنها وقافيتها يخدم بها حزبه ، ويعرض فيها بالعباسيين ، مع أن ابن المعتز له قصائد أخرى ، يفخر فيها بأسرته ، ويطعن فيها العلويين كان أولى بتميم أن ينصرف إلى مناقضتها . **أترى بيت ابن المعتز :**

هاشمى إذا نسبتُ ومخصوص ببيت من هاشم غيرعار

هو الذى أثار تميما ؟ . إن هذا البيت لايكفى لإثارة شاعرنا ، فلعل قصيدة ابن المعتز مبتورة ، ضاع منها الجانب المثير .

أما قصيدة ابن المعتز اليائية التى مطلعها :

ألا من لعين وتسكابها تشكى القذى وبكاها بها[٢]

فقد ناقضها تميم كما ذكر الناسخ بقصيدته البائية[٣] . يبدأ ابن المعتز قصيدته بذكر محبوبته شر ثم يسوق بعض الحكم ، ثم ينتقل إلى صلب القصيدة فيهدد العلويين الثائرين ، ويحذرهم سطوة أسرته . ويمضى عبد الله بن المعتز بعد ذلك يعير العلويين بتنكيل الأمويين بهم ، وإخفاقهم أمامهم حيث نجح العباسيون ، فيقول :

---

(١) ديوان ابن المعتز جـ ١ ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٥ . وقد جاء فى ديوان تميم مطلع آخر ص ٧٨ ، فلعل ذلك المطلع مطلع قصيدة تميم .

(٣) ديوان تميم ص ٧٨ .

قتلنا أمية فى دارها ونحن أحق بأسلابها
وكم عصبة قد سقت منكم الـ ـخلافةُ صاباً بأكوابها
إذا ما دنوتم تلقتكمُ زَبونا وقرت بحلابها
ولما أبى الله أن تملكوا نهضنا (إليها) وقمنا بها
وما رد حجابها وافدا لنا إذ وقفنا بأبوابها
كقطب الرحا وافقت أختها دعونا بها وغلبنا بها

فيرد عليه تميم بهذين البيتين :

بنا صلتم ، وبنا طلتم وليس الولاة ككتابها
فلا تسفهوا أنفسا بالكذاب فذاك أشد لإتعابها

ألاما ما أشبه بيت تميم الأول بقول محمد بن عبد الله فى رسالته إلى المنصور : « فإن الحق حقنا ، وإنكم إنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا » .

ويتحدث ابن المعتز عن حقهم فى الخلافة قائلا :

ونحن ورثنا ثياب النبى فَلِمْ تجذبون بأهدابها
لكم رحم يا بنى بنته ولَكنْ بنو العم أولى بها
فمهلا بنى عمنا إنها عطية رب حبانا بها
وكانت تَزَلْزَلُ فى العالمين فَشُدَّتْ إلينا بأطنابها
وأقسم أنكم تعلمون بأنّا لها خير أربابها

يريد ابن المعتز أن الله قسم لهم الخلافة ، وقدمهم على بنى فاطمة . والعباسيون يستندون إلى قوله تعالى :

«وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض . . »[1] . وكأنما البردة هى المشار إليها فى البيت الأول ؛ فقد آلت بردة الرسول إلى العباسيين ، وكانت شعارا من شعارات الخلافة . ويذكرنا البيت الرابع بقول أبى العتاهية وهو يخاطب الخليفة العباسى متحدثا عن خلافته :

ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زالزلها[2]

---

(١) آخر آية من سورة الأنفال .

(٢) ديوان أبى العتاهية ص ٣٠٩ .

ويقرأ تميم الأبيات الخمسة فيرد عليها هذا الرد الشديد :

عجبت لمرتكب بغيةُ ... غوى المقالة كذابها
يقول فينظم زُور الكلام ... ويحكم تَنْميق إذهابها :
(لكم يابنى بنته حرمة ... ولكن بنو العم أولى بها)
وكيف يحوز سهام البنين ... بنو العم ! أف لغصابها
بذا أنزل الله آى القران ... أتعمون عن نصٍّ إسهابها ؟
لقد جار فى القول عبد الإله ... وقاس المطايا بركابها
ونحن لبسنا ثياب النبى ... وأنتم جذبتم بهُدّابها
ونحن بنوه وَوُرّاثُه ... وأهل الوراثة أولى بها
وفينا الإمامة لا فيكمُ ... ونحن أحق بجلبابها
ومن لكم يابنى عمه ... بمثل البتول وأنجابها ؟
وما لكم كوصى النبى ... أب فَتَرامُوا بِنُشّابها

فهذا الشاعر الشيعى لايقر خصمه على توجيه الآية القرآنية ، ما دام النبى قد أوصى بالخلافة لعلى . ولم يوص النبى عبثا ، وإنما فعل ذلك لما نزلت عليه الآية : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربكَ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . . . »[1] . فهذه الآية فى نظر الشيعة نازلة فى حق على المقدس فى الخلافة .

ويفتجز ابن المعتز بالعباس وابنه عبد الله فيقول :

به غسل الله محل الحجاز ... وأبرأها بعد أوصابها
ويوم حنين تداعيتم ... وقد أبدت الحرب عن نابها
ولما علا الحَبْر أكفانه ... ثوى مَلَكٌ بين أثوابها

يشير الشاعر إلى أن من أفضال العباس أن المطر انقطع فى عهد عمر ،وأجدبت المدينة ، فاستسقى الخليفة بالعباس فأمطرت السماء ، وإلى أن من أفضاله أن المسلمين قد فروا يوم حنين وثبت هو ، وجعل ينادى الفارين الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، فتجمعوا حول الرسول من جديد وانتصروا ؛ كما يشير فى البيت الأخير

(١) القاضى النعمان : أنظر دعائم الاسلام جـ ١ ص ١٩ .

إلى ما يروى من أن طائرا أبيض دخل فى نعش عبد الله بن عباس ولم يخرج[١] . وهنا يجد تميم متسعا للمقال ، فلعلى مواقف رائعة فى تاريخ الإسلام . وقد رأينا الشاعر يفتخر بفاطمة بنت الرسول ، فلنسمعه يفاخر بعلى وهاشميته العريقة :

ألا قل لمن ضل من هاشم ... ورام اللحوق بأربابها
أأوساطها مثل أطرافها ؟ ... أأرؤسها مثل أذنابها ؟
أعباسها كأبى حربها ... على وقاتل نصابها
وأولها مؤمنا بالإله ... وأول هادم أنصابها ؟.
بنى هاشم ، قد تعاميتم ... فخلوا المعالى لأصحابها
أعباسكم كان سيف النبى ... إذا أبدت الحرب عن نابها ؟
أعباسكم كان فى بدره ... يذود الكتائب عن غابها ؟
أعباسكم قاتل المشركين ... جهارا وغاصب أسلابها ؟
أعباسكم كوصىّ النبى ... ومعطى الرُّغاب لطلابها ؟
أعباسكم شرح المشكلات ... وفتح مشكل أبوابها ؟

* * *

السنا لُبَابَ بنى هاشم ... وساداتكم عند نسابها ؟
ألسنا سبقنا لغاياتها ؟ ... ألسنا ذهبنا بأحسابها ؟

فالشاعر يقول فى البيت الأول إنه من صميم بنى هاشم كما قال قبله محمد بن عبد الله ، ويؤكد هذا المعنى فى البيتين الأخيرين ، ويقارن بين على والعباس فيشير إلى أن عليا أول المؤمنين من الصبيان ، وبطل غزوات النبى[٢] ، ومحطم الأصنام ، ووصى الرسول ، والعالم الذى يروى الشيعة أن الرسول قال عنه : « أنا مدينة العلم وعلى بابها »[٣] ؛ الذى كان يستشيره الراشدون فى المسائل الدينية العويصة .

وإذا دققنا النظر نجد تميما لايكتفى بالرد ، وإنما يتناول بعض أبيات ابن المعتز فيعبث ببنيتها ويقلبها عليه ، كما كان يفعل جرير والفرزدق . يذكر التاريخ أن العباس

---

(١) أنظر نهايتى ترجمتى ابن عباس فى الاصابة لابن حجر . وفى الاستيعاب لابن عبد البر .
(٢) الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٣) ديوان داعى الدعاة ص ١٠٣ .

ثبت يومحنين ونادى الفارين ؛ فيفخر ابن المعتز بذلك . ويرى تميم أن هذه مفخرة هينة ، فما أبعد ما بين الصياح وبين إعمال السيف . قال ابن المعتز :

ويـــــوم حنين تداعـــــيتم • وقد أبدت الحرب عن نابها

فينقض تميم البيت قائلا :

أعباسكم كان سيـف النبـــى إذا أبدت الحرب عن نابها ؟

ويقول ابن المعتز :

قتلنـــا أميـــة فى دارهـــا ونحن أحـــــــــق بأسلابها

فيرى تميم أن قتل الأمويين وسلبهم لايقاس بأى حال بقتل على للمشركين فى الغزوات وسلبهم ، فيقول :

أعباسكـــم قاتـــل المشركين جهـــارا ومـــالك أسلابها ؟

وقال ابن المعتز فى العلويين الذين يطالبون بالخلافة :

وقـد ركبـوا بغيهم وارتقـوا بزلاء تردى بركابها

فعبث تميم ببنية البيت السابق هذا العبث :

عجـــبت لمرتـــكب بغيـــه غوى المقالـــــــــة كذابها

وتساءل ابن المعتز :

ونحن ورثنـا ثيـاب النبـــى فلِـمْ تجذبـــون بأهـــدابها ؟

فأجابه تميم :

ونحن لبسنـا ثيـاب النبـــى وأنتم جذبتم بهدابها

يريد أن النبى لما دخل عليه علىٌّ وفاطمة والحسن والحسين أجلس الأبوين بين يديه ، والولدين على فخذيه ، ثم لفهم بكسائه وتلا عليهم « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[1] .

وإذا نظرنا نظرة عامة إلى النقيضتين البائيتين وجدناهما ترددان آراء الحزبين ، تلك الآراء التى نجدها فى رسالة محمد بن عبد الله ورسالة المنصور ، إذا استثنينا فخر العباسيين بحنين فإن المنصور لم يشر إلى ذلك .

---

(١) انظر حاشية ديوان تميم ص ٢٥ .

وإذا نظرنا نظرة عامة إلى شعر ابن المعتز رأيناه يكرر المعانى التى ساقها فى بائيته السابقة : تحذير الطالبيين أن يطالبوا بالخلافة[١] ، وإثبات حق الخلافة لأسرته[٢] ، والفخر بأفضال جده العباس[٣] ، ويضيف معنيين آخرين : المنّ على العلويين بتخليصهم من عذاب الأمويين[٤] ، وتعييرهم بكفر أبى طالب[٥] . فمعروف أن أبا طالب دافع عن النبى وهو يدعو إلى الإسلام فى مكة ، فلما احتضر توسل الرسول إليه أن يسلم فلم يقبل ، ومات على غير الإسلام . فانتهز ابن المعتز هذه الفرصة السانحة ، وهاجم العلويين قائلا :

أأبوطالب كمثل أبى الفضـ ـل ؟ أما منكمُ بهذا عليم
سائلوا مالكا ورضوان عن ذا أين هذا وأين هذا مقيم ![٦]

فهو يسأل : أتجعلون أبا طالب ندا لجدى العباس ؟ . اسألوا حارس الجنة وخازن النار يدلاكم على موضع كل هذا . وهذا المعنى موجود فى رسالة المنصور إلى محمد بن عبد الله . ولم يستطع تميم أن يرد هذه التهمة فكأنها صحيحة ! ولكنه احتال مرة ، ففخر بنوم على فى فراش الرسول ليلة الهجرة ، ثم التفت إلى العباس فطعنه طعنة قوية فى قوله :

من توطّأ الفراش يخلف فيه أحمدا وهو نحو يثرب سار
أين كان العباس إذ ذاك فى الهج رة ؟ أم فى الفراش ؟ أم فى الغار[٧] ؟

وقد أراد بالبيت الثانى استمرار العباس على غير الإسلام حتى وقت متأخر ، ووجوده فى غزوة بدر محاربا تحت راية المشركين[٨] ! فهو لم يكن من المهاجرين الأولين السابقين ؛ ولم يضح تضحية علىّ الذى نام فى فراش الرسول ليخدع الكفار المحيطين بالدار ، مقدما حياته ثمن الخدعة ؛ ولم يكن ثانى اثنين فى الغار .

---

(١) ديوان ابن المعتز جـ ١ ص ٦ ، ١٦ ، ٥١ . جـ ٢ ص ٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٦ ، ١٦ ، ٥١ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٦ ، ٢٨ ، ٥١ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١٦ ، ٥٦ ، ١٠٧ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٥١ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٧ .
(٧) ديوان تميم ص ١٨٧ .
(٨) ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٣ أنظر ص ١٠٩ .

ولم يعرض ابن المعتز بعلى كما عرض بأبيه ، ولم يسىء إلى الحسن والحسين ، بل كان يعترف لهؤلاء بالفضل ، ويذكرهم بالخير . وقد اعترف فى قصيدة له بأن عليا سابق إلى الإسلام ، وفدائى الهجرة ، وبحر العلوم ، وقاضى القضاة ، والخطيب المشهور ، وصهر الرسول ؛ وبأن الحسن والحسين ذهبا بفخر الانتساب إلى محمد(١) . فهو لا يفضل العباس على علىّ ، وإنما يقدم سلالته فى وراثة الخلافة بحجة فقهية . وكأنما كان ابن المعتز لا يهمه الفاضل والمفضول ، والذى يهمه أن يدع بنو على الخلافة لبنى العباس . فلما رأى الشيعة — ثواراً وشعراء — لايسكتون راح يبين لهم أن الخلافة حق شرعى لأسرته ، ومضى يحذرهم أن يطلبوها منهم ، وانطلق يفخر بمآثر جده ، ويمن عليهم بتخليصهم من بنى أمية والثأر لهم ، ويعيرهم بكفر أبى طالب ، وبخذلان الحسين وإسلامه للموت فى كربلاء(٢) . وكأنه كان يريد أن يدع العلوَيين المتقدمين ، ويجرح العلويين المتأخرين الذين أقضوا على أسرته المضاجع . ولهذا السبب نجده فى قصيدته التى مدح بها عليا وابنيه يختم ختاما ماكرا ،

فيقول :

ولا عجب غير قتل الحسين ... ظمآن يُقْصَى عن المشرب
فيا أسدا ظل بين الكلاب ... تنهشه دامى المخلب
لئن كان روّعنا فقده ... وفاجأ من حيث لم يُحْسَب
وكم قد بكينا عليه دما ... بسمر مثقفة الأكعب
وبيض صوارم مصقولة ... متى يُمْتَحنْ وقعها تشرب
وكم من شعار لنا باسمه ... يجدد منها على المذنب .
وكم من سوار حددنا به ... وتطويل شعر على المنكب
ونوح عليه لنا بالصهيل ... وصلصلة اللجم فى منقب
وذاك قليل له من بنى ... أبيه ومنصبه الأقرب

فبعد أن شهد لعلى وابنه بالفضل أبى أن يقف عند ذلك الحد ، فراح يرثى الحسين ويدس فى الرثاء ذلك المعنى المألوف عنده ؛ معنى المن على العلويين بالانتقام لهم من

---

(١) ديوان ابن المعتز جـ ١ ص ١٠٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٥٦ .

الأمويين . ويرى أحد الدارسين أنه لما تولى المكتفى أمر المسلمين رفق عبد الله بن المعتز بالعلويين ؛ لأن الخليفة الجديد كان يميل إلى البيت العلوى ، فذكر عليابالخير فى شعره(١)

أما تميم فيردد معانيه التى رأيناها فى أشعاره الموجهة إلى العباسيين ، ويفخر بمواقف على فى الغزوات : أحد(٢) وخيبر(٣) وحنين(٤) . وله الحق أن يتغنى بأمجاد على الحربية ؛ فقد شهد جميع الغزوات ما عدا غزوة تبوك ، فإن الرسول استخلفه فى ذلك اليوم على المدينة(٥) . ويفخر تميم كذلك بالمباهلة(٦) ، ودعوى الغدير(٧) . ولم يفته أن يسخر من السقاية التى تعود العباسيون أن يفخروا بها فقال :

أجعلتم سقى الحجيج كمن آ من بالله مؤمنا لا يدارى(٨) !

ولم يفت شاعرنا أن يفند دعوى العباسيين أنهم غضبوا للعلويين ، وانتقموا لهم ، مع أن العلويين ــ حسنيين وحسينيين ــ قد لقوا على أيديهم التنكيل ، فقال :

زعمتم أنكم لنا غضبًا قمتم ، وبالزعم يكثر الخطلُ
متى عضبتم لنا وأنفسنا لبيضكم مذ وليتمُ نَفَلُ ؟
شردتم جعفرا وشيعته بغير ذنب جنوا ولا افتعلوا
والحسنيون طالما تلفوا بحد أسيافكم وما قتلوا
ثم قتلتم موسى الرضا خُدَعًا لأمكم بعد قتله الهَبَلُ
غدرا ، وحقدا طويتموه لنا ! كذا يعادى الموالىَ الخولُ
ويح بنى عم أحمدٍ خسروا وعنده دون هاشم خذلوا
دماء أبناء أحمدٍ شربوا ولحم أبناء بنته أكلوا
أرحامَهم قطَّعوا ، وحدَّهم فلوا ، وأوزارَ قومهم حملوا(٩)

(١) عبد العزيز سيد الأهل : عبد الله بن المعتز ص ٦٧ .
(٢) ديوان تميم ص ٣٣٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨٨ ، ٣٣٧ ، ٤٤٩ .
(٤) المصدر السابق ص ١٨٨ ، ٤٤٩ .
(٥) الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ١ ص ٣٦٤ .
(٦) ديوان تميم ص ١٨٦ ، ٣٣٣ .
(٧) المصدر السابق ص ١٨٦ .
(٨) المصدر السابق ص ١٨٧ .
(٩) المصدر السابق ص ٣٣١ .

فما أشبه العباسيين إذن بالأمويين ؛ كلا الفريقين ظالم قاتل . فلا حق لابن المعتز أن يفخر بحماية العلويين وقد عرف مصارعهم جيلا بعد جيل .

ويعرف تميم أن أحد الخلفاء العباسيين يلقب بالهادى ، وآخر بالرشيد ، وثالثا بالمأمون ، ورابعا بالمعتصم ، وخامساً بالمقتدر ، وسادسا بالمعتضد ، وسابعا بالمنتصر . وهذه ألقاب تحمل معانى كريمة ، يرى شاعرنا أن حامليها برآء منها . فكل هؤلاء عنده مارقون سفاكون مغتصبون لحق أسرته المقدس ، جديرون أن يسلقهم بهذا الهجاء :

وجئتم بأسماءٍ يروق استماعها ... وألفاظ حسن ما لهن معانى
رشيدٌ ولم يرشد ، وهادٍ وما هدى ... بحق ، ومأمون بغير أمان
ومعتصم لم يعتصم بإلهه ... ومقتدر لم يقتدر ببيان
ومعتضد بالإفك خاب اعتضاده ... ومنتصر بالبغى غير معان[1]

وهكذا خدم تميم حزبه مرة أخرى لما تصدى للعباسيين فجادلهم على وراثة الملك ، وفاخر بجده العظيم على ، وهاجاهم ، ونددبقسوتهم على العلويين . وهم إذ ينظم هذا الشعر لا يخاطب به أسرته وحدها ، وإنما يقصد فيما يقصد أن يشين العباسيين ، ويزين آله ، ويحببهم إلى المسلمين ، ويدعو لدولتهم المهدية الفتية .

---

(١) ديوان تميم ص ٤٥٠ .

الفصل الثانى

المعتقدات

أ ــ الدولة المهدية

رأينا عبيد الله المهدى وخلفاءه يريدون الاستيلاء على العالم الإسلامى كله ؛ لأنهم وحدهم ــ فى رأيهم ــ الخلفاء الشرعيون . ورأيناهم يهتمون جداً بأخذ بغداد لأن صاحبها ينازعهم شرعية الحكم . وقد ظهر صدى كل هذا فى شعر شعرائهم . وكان منطق دعواهم أنهم المهديون يقتضى أن يسعوا لتحقيق الحلم الكبير ، وهو بسط نفوذهم على العالم كله ليأخذوا بيده إلى الهدى . ويحلم المعز فيقول : « فإقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا بما خولنا الله منها ، وأقامنا له فيها ، أطاعنا من أطاعنا ، وعصانا من عصى[1] . . . » **ويقول عنه ابن هانىء :**

هو الوارث الدنيا وما خُلِقَتْ له ... من الناس حتى يلتقى القُطْرُ والقُطْرُ
وما جهل المنصور فى المهد فضله ... وقد لاحت الأعلام والسِّمة البهر
رأى أن سيسمى مالك الأرض كلها ... فلما رآه قال : ذا الصمد الوتر !
وماذاك أخذ بالفراسة وحدها ... ولا أنه فيه إلى الظن مضطرُّ
ولكنَّ موجودًا من الأثر الذى ... تلقاه من حَبْرضنين به حَبْرُ[2]

فلننظر ماذا تركت أحلام الفاطميين فى شعر ابنهم تميم . لقد عبر تميم مرات كثيرة عن رغبة أهله فى امتلاك بغداد والقضاء على الخلافة العباسية . ومن ذلك أنه لما هزم القرامطة جوهرا فى الشام ، وتأرجح مصير الدولة الفاطمية ، ثم استقام أمرها أخيراً بانتصار العزيز ، أحس شاعرنا انجلاء الغمة ، وكبت الحاسدين ، ورأى الطريق ممهداً إلى بغداد ، فقال فى قصيدته التى نظمها بعد النصر :

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور شرف : المعز لدين الله ص ٣٢١ .
(٢) ديوان ابن هانىء ص ٣٤٣ .

أريتهمُ وقعـــات تزيـــد على وقعـات الدهـــور الأُلى
ببغـداد من ذكرهـا جولـة تذود على المارقين الكـــرى
فأنـفس دَيْلَمهـــا تغتـــدى وتمسى على مثل جمر الغضى
إذا سمعـوا بالإمـام العزيـز أساؤا الظنون وحلو الحيا
يخافـــون من بأسه وقعـــة تدور عليهم بقـطبُ الرحـى
ينـادى « بويـه » بنيـه بها ويندبهم وهـو رهـن البلى
وقد قرب الوقت ؛ فليأذنـوا بوشك الزوال وسوء القضا (١)

وهذه اللهجة من التعبير عن الأمل متكررة(٢) . وثمة لهجة أخرى تعبر عن الأمل نفسه تعبيرا أرق ، تلك هى المتمثلة فى قوله :

لو ملكتْ بغداد أقصى المنى نادتك دون الجن والإنس
ولا تكن من قتل أملاكها يا حجـةَ الـرحمن فى لَبس(٣)

يريد الشاعر أن أخاه رحمة للعالمين ، فمن أظله حكمه أظله العدل ، وعمه الخير ، ورضى عنه الرحمن . ولم لا واخوه هو الحاكم الذى شاءه الله ! فلو كان لبغداد أن تتمنى لدعت العزيز إلى رحابها لتنعم بعدله ، وتظفر بخيره ، وتفوز برضا الرحمن . ونجد مثالا آخر من هذا النوع فى الديوان(٤) .

وفى الديوان لهجة ثالثة تعبر عن هذا الأمل بطريقة ذاتية ، تتمثل فى هذه المقطوعة الجميلة التى ودع بها الشاعر أحد المسافرين إلى بغداد :

أيها المزجـــى مطيتـــه إذ حداه الشوق والذِّكـــرُ
نحو بغـــداد يؤرقـــه دلج الترحـــال والبكـــر
عج على ماء الفرات وقـف كوقـوف الصبِّ يعتـــذر
عن مشوق نحوه قلـــق مالـــه عن ذكـــره صَدَرُ

---

(١) ديوان تميم ص ١١ .
(٢) انظر المصدر السابق ص ١٨٨ ، ٢٩١ ، ٣٣٢ ، ٤٥٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٣٤ .

فهنـــاك الدهـــر مقتبـــل والصبـــا ريّـــانُ ينـــعصر
يارِبـــا القاطـــول لا بعـــدت عنك لى الأيـــام والقَـــدَرُ
كل ما فى النفس من أمل لك أطويـــه وادخـــرُ
وقريبـــاً قد يزورك لى ظفـــر ما مثلـــه ظفـــرُ
ثم يصفـــو فى ذراك لنـــا طيبُ عيش ما له كدرُ(١)

فهو يبوح لذلك المشتاق إلى بغداد أنه شريكه فى الشوق إلى ربوعها ، ويسأله أن يقف على الفرات الذى يحبه ويشتاق إليه ، ولا يفتأ يذكره ؛ ليعتذر له عن تأخر الفاطميين حتى ذلك الحين فى الوصول إليه ، حيث الأيام مقبلة ، والحياة لينة . ثم يلتفت إلى نهر القاطول فيدعو أن يدنو منه ، ويعرب له عن أمانيه المتعلقة به ، وتمنيه أن يبلغه ظافرا ؛ ليخلف أصحابه على النعيم . ولتميم مقطوعة أخرى يودع بها مسافراً اسمه ابن الأنبارى تشبه هذه ، وكان ذلك المسافر متجها إلى بغداد أيضاً(٢) .

ولم يكن الفاطميون يطمعون فى القضاء على الخلافة العباسية وحدها ، ولا يتطلعون إلى القضاء على خلافة القتلة الذين هرب زعيمهم من سيف العباسيين . ولكن قوة تلك الخلافة قللت مثل قول تميم :

آلـــيت لاذقت المنـــا م ولا اضطجعت على حشيَّه
ولأهجـــرنّ لذيـــذ كـ ل معـيشة عنـدى شهيـــه
حتـــى أزور أميـــة فى كل بلقعـــة قصيـــه
وأذيقهـــم كأس المنيـــ ة بالغـــدو وبالعشيـــه
حتـــى أقـــوم بثـــأر آ بائى من الـــعُصب الشقيـــه(٣)

فهو يهدد الأمويين قتلة آله ، ولا يستريح حتى يغزو بلادهم ، ويدرك ثأر الغابرين . وهذا الشعر لا يعبر عن أوهام فردية تلم برأس الشاعر المتحمس فقط ؛ ولكنه يعبر عى أمل أسرته السياسى ؛ ذلك الأمل الذى يلوّنه الانتقام . فما كان تميم

---

(١) ديوان تميم ص ١٦٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٥٨ . انظر كذلك ص ١٢٠ .

بجهل الحروب التى وقعت بين أبيه وبين حكام الأندلس ، وما كان ناسيا تحريض الأمويين للمغاربة على الثورات ، وتحالفهم مع الروم .

ولا ينسى تميم الحلم النظرى ، فيشير إلى خراسان بإصبع الطمع مرة[١] ، ويشير إلى خضوع السودان المأمول تارة[٢] ، ويتخيل الدولة العظمى التى تضم الهند والصين تاره أخرى[٣] ، ويتصور الدولة المهدية فيقول للعزيز :

ثق بأن الإله يبقيك حتى ... تملك الأرض قادرا لا ترام
وتعيش العمر الذى هو تسعون وعشر مسلَّما لا تضامُ
فبذا جاءت الرواية قدما ... وبهذا جرت لك الأقلامُ[٤]

ب ــ الأئمة

الإمام على :

على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ هو المحور الذى دار حوله التشيع . ويحيطه الشيعة المعتدلون بهالة من الجلال ؛ أما الغلاة فيؤلهونه تأليها[٥] . ومن يقرأ الكتب الشيعية يدرك مقدار على عند أشياعه . وحسبنا أن نعلم أن « المجالس المستنصرية » يبتدىء المجلس منها بالصلاة على النبى ، ثم يثنى بتمجيد على والثناء عليه . ويدل تميم على مكانة على عند الفاطميين فيقول :

أفضل العالمين بعد الرسول ... عند أهل التمييز والتحصيل
خدنه وابن عمه وأخوه ... وأبو سبطه وزوج البتول[٦]

وتذكرنا الكلمة « أخوه » بما يرويه الشيعة عن الرسول : « اعلموا أن عليا منى بمنزلة هارون من موسى[٧] » . ومثله قول تميم :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٥ .
(٣) نفسه ص ٤١٢ .
(٤) نفسه ص ٣٨١ .
(٥) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ٦٠ ــ ٦١ .
(٦) ديوان تميم ص ٣٥٥ .
(٧) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ٢١ .

من له قال : أنت منى كهارو ن وموسى ؟ أكرِمْ به من نجار[١]

ويروى الشيعة أحاديث كالمتقدم ينسبونها إلى النبى منها : « . . . فمن كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم والِ من والاه ، وعاد من عاداه[٢] » . وينظم تميم الجزء الأول من الحديث فى يائية كربلاء فيقول :

ونسوا مقـــــــال نبيهم وهـــو المعـــدل فى القضيـــه :
من كنْتُ مولاه فقـــــــد أضْحـــى أبـــو حسن وليـــه[٣]

ويروى أيضاً أنه نادٍ منادٍ يوم أحد : « لا سيف إلا ذى الفقار ، ولا فتى إلا على[٤] » ؛ **فيقول تميم** :

من له قال : لا فتى كعلى لا ولا منصُلٌ سوى ذى الفقار[٥]

ويذكر القاضى النعُمان أن رجلاً أتى جعفرا الصادق فقال إن الحسن روى هذا الحديث : « إن الله أرسلنى برسالة فضاق بها صدرى ، وخشيت أن يكذبنى الناس ، فتوعدنى إن لم أبلغها أن يعذبنى » . فسأله جعفر إن كان الحسن البصرى قد وضح لهم المقْصود بالرسالة ، فأجابه الرجل بالنفى . فاتّهم جعفر الحسن بكتمان الحق ، وأخبر الرجل أن الرسالة هى الوصاية ؛ فإن النبى خاف إعلانها فأنذره الله بهذه الآية : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس . . . » فجمع الرسول المسلمين يوم غدير خم وأبلغهم أمر الله ، فنزل عليه « اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[٦] » . فقد أول الشيعة القرآن ليدعموا ما ادعوه .

وإن المسلم السنى ليضيق ذرعا بمثل تلك الأقاويل ، ولكن الشيعة يؤمنون بها ، ولا يملون ترديدها فى نثرهم وشعرهم . ونسمع بيعة الغدير فى شعر الكميت

---

(١) ديوان تميم ص ١٨٦ .

(٢) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ٢٤ .

(٣) ديوان تميم ص ٤٥٥ .

(٤) سيرة ابن هشام ص ٩٢ (طبعة مصر سنة ١٢٩٥ هـ) . وفى المصدر المذكورأن ذا الفقار ـ سيف النبى ﷺ .

(٥) ديوان تميم ص ١٨٦ .

(٦) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ١٩ .

بن عدى[١] . وتنسب إلى السيد الحميرى قصيدة تنتظم قصة خم بالتفصيل[٢] . ولم يفت تميما أن يذكر دعوى خم ، تلك الدعوى التى تدافع عنها أسرته ، وتحتفل بذكراها فى كل عام ، فقال مفتخرا على العباسيين :

ثم يوم الغدير ما قد علمتم خصه دون سائر الحُضَّار[٣]

ويخاطب العزيز قائلا :

يا ابن من بان فضله يوم بدر واصطفاه النبى يوم الغدير[٤]

وبناء على هذه الدعوى يسمى شاعرنا عليا الوصى كثيرا[٥] .

الإمام المعز :

كلمة الإمام كلمة شيعية ، يخلعها الشيعة على الحاكم الشرعى أو الزعيم الشرعى للدولة الإسلامية . وهذه الكلمة ليست متأخرة الظهور ، بل هى موجودة فى الشعر الشيعى فى العصر الأموى . وقد انتقلت منذ ذلك العصر إلى الشعر السنى فيما انتقل من مصطلحات الشيعة بقصد الكيد للشعراء الشيعيين[٦] . ويسمى تميم أباه الإمام فى شعره فيقول :

وما هزنى إلا الإمام وعطفه وإطفاء ذاك الجمر من ذلك الصدر[٧]

أو يقول :

أعنى الإمام معدا خير من حسنت به الخلافة واستعلى به النيسم[٨]

ويسميه ولى الله كما تعود القاضى النعمان أن يسمى الأئمة[٩] ، فيقول :

---

(١) هاشميات الكميت ص ٨١ .

(٢) الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٢ ١٣٢ .

(٣) ديوان تميم ص ١٨٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٧٢ .

(٥) المصدر السابق ص ١٢ ، ٣١٣ ، ٣٤٦ .

(٦) الدكتور شوقى ضيف : التطور والتجديد ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، ١٢٥ ـ ١٢٩ .

(٧) ديوان تميم ص ١٥٠ .

(٨) المصدر السابق ص ٣٦٥ .

(٩) القاضى النعمان : راجع الهمة فى آداب أتباع الأئمة .

ولازال نصر الله دون وليـــه إذا سار من مصر أناخ على مصر[١]

ولم يتسمَّ عبيد الله بالمهدى عبثا ؛ فإنه يزعم أن هداية الأمة موكولة إليه ، وأنه أتى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ثم يتابع أبناؤه رسالته من بعده ؛ فيقول تميم للخليفة الرابع :

لولا معـد أمير المؤمنـــين لما عز الهدى وفشت فى عصرنا النعم[٢]

ويقول له أيضا :

ياسراجَ الأنام جنـحَ الظـلام ومبيـد العـداة يوم اللطـام
والذى جل أن يساوى بشمس أو ببـدر التمام عنـد التمام[٣]

ويرى الشيعة أن المؤمن لابد أن يعرف إمام العصر ، فليس له أن يختار بين التشيع وغيره ، وليس له أن يجهل إمام عصره . فلا إيمان إلا بالتشيع ومعرفة الإمام . ويروى القاضى النعمان عن جعفر الصادق أنه قال : « . . . وإنما قيل : اعرف إمامك واعمل ما شئت من الطاعة فإنها مقبولة منك ، لأنه لا يقبل الله — عز وجل — عملا بغير معرفة . ولو أن رجلا عمل أعمال البر كلها ، وصام دهره ، وقام ليله ، وأنفق ماله فى سبيل الله ، وعمل بجميع طاعات الله عمره كله ، ولم يعرف نبيه الذى جاء بتلك الفرائض ، فيؤمن به ويصدقه ، وإمامَ عصره الذى افترض الله — عز وجل — طاعته فيطيعه ، لم ينفعه الله بشىء من عمله . قال الله عز وجل : وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا . وقال (ص) : ولو تقطع الجاهل من العبادة إرْباً إرْباً ما ازداد من الله إلا بعداً[٤] » . فالنصُّ يقرن الإيمان بالرسول بالإيمان بالإمام . ويعتقد الفاطميون أن هذا الإمام الواجب الطاعة هو حجة الله على عباده ؛ جعله مصدرَ هدى ، وواجبَ المعرفة ، حتى لا يأتى الناس يوم القيامة يحاجون الله بجهلهم[٥] . لذلك يقول تميم لأبيه :

---

(١) ديوان تميم ص ١٥١ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٦٦ .
(٤) القاضى النعمان : دعائم الأسلام جـ ١ ص ٦٧ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٥٨ .

من لم يكن بك دون الخلق معتصما أمسى وليس له فى الأرض معتصَمُ
ياحجةَ فلـــجتْ لله واتضحت حتى اهتدى بسنا برهانها الأمم[١]

ومن يقرأ كتاب « الهمة » يعجب لما جاء فى هذا الكتاب من تعظيم الأئمة وتمجيدهم ، ورفعهم فوق سائر بنى آدم . وتستوقف النظر ثلاثة أبواب فيه ، عنوان الأول : « ذكر ما يجب على جميع العباد من التسليم فى جميع الأمور إلى الأئمة[٢] » ، وعنوان الثانى : « ذكر التسليم وترك الاعتراض على الأئمة فيما يولون من يتألفونه من الأمة[٣] » ، وعنوان الثالث « ذكر النهى عن إنكار أفعال الأئمة[٤] » ، وهذه أبواب متقاربة المضمون ، وهى تذهب إلى أن أفعال الأئمة ليست من الهوى ، ولا من وسوسة الشيطان ، لأن الله ــ عز وجل ــ قد تكفل بتسديد الإمام ، وأورثه علم آبائه وزيادة ، وأعانه وجعله ينظر بنوره[٥] . فالإمام معصوم . ويغلو القاضى النعمان حتى يروى أن أحد المريدين سأل الداعى أن يأذن له بالسير إلى حضرة الإمام ، فأذن له بعد أن أخذ عليه العهد : « إن رأيت الإمام بعينيك يزنى ويشرب الخمر ويأتى بالفواحش ــ وقد أعاذ الله الأئمة من ذلك ــ أنكَّ لا تنكر ذلك بقلبك ولا لسانك ، ولا يخالجك الشك فى أنه صواب وحق ![٦] » . فلا عجب أن يرفع تميم أباه فوق البشر فيقول :

وكيف يحصى الورى عدًّا مناقبَ مَنْ لم يُلْفَ شبه له فى الناس كلهم[٧]

أو يقول :

يا صفـــوة الله من بريتـــه وسره فى الكتـــاب والسُّوَرِ[٨]

---

(١) ديوان تميم ص ٣٦٥ .
(٢) القاضى النعمان : الهمة ص ٧٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١٢٧ .
(٥) المصدر السابق ص ١٢٨ .
(٦) المصدر السابق ص ١٢٧ .
(٧) ديوان تميم ص ٣٦٦ .
(٨) ديوان تميم ص ٥١ .

ويشير الشطر الثانى إلى زعم الفاطميين أن الكثير من آيات القرآن يتعلق بالأئمة(١) .

ويأبى تميم إلا أن يجعل أباه معصوما ، فيقول :

والـذى يرتجى لديـن ودنيـا والمصفَّى من كل عيب وذام(٢)

ومما يستوقف النظر أن الشاعر كثيرا ما يختم مخاطبة أبيه على هذا النحو :

صلى عليك الإله ما طلعتْ شمس ومـا انهلَّ عارض لجبُ(٣)

ولا غرابة ؛ فالكتب الإسماعيلية تذكر الأئمة فتصلى عليهم وتسلم ، وهذه ظاهرة عادية فيها . بل لقد كتب القاضى النعمان فصلا فى كتابه « دعائم الإسلام » يوجب فيه الصلاة على آل محمد(٤) . وقد اعتاد داعى الدعاة الصلاة والسلام على الإمام وهو يختم قصائده(٥).

وربما أغرب تميم فمدح أباه هكذا :

توسَّع دهر لم يضق بك وسعه على أن أهل الدهر دونك والدهْر
أُجِلُّ مَعَدًّا أن أقول : كأنـه وأكبره عن أن يحيط به الشعرُ
وقالوا : من الشمس انتضى البدرُ نوره ولو علموا قالوا : هو الشمس والبدرُ(٦)

والناظر إلى هذه الأبيات يظنها مبالغة ، ولكن الفاطميين يرون أن كل موجود له وجهان كالعملة ، الوجه الأول هو الظاهر أو المثَل ، والوجه الثانى هو الباطن أو الممثول ؛ فما يعرفه عامة الناس من القرآن مثل ، وما ينفرد بعلمه الأئمة ممثول ، والجسم مثل والنفس ممثول ، والدنيا مثل والآخرة ممثول . وكذلك الإمام مثل والعقل الكلى ممثول . والعقل الكلى عند الفاطميين أول مبدعات الله ، ويحمل عنه

---

(١) أقرأ كتاب الولاية من دعائم الاسلام للقاضى النعمان .
(٢) ديوان تميم ص ٣٦٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٧ .
(٤) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ٣٦ ـ ٤٨ .
(٥) ديوان المؤيد فى الدين ص ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ . . الخ .
(٦) ديوان تميم ص ٢٣٢ .

جميع صفاته وأسمائه الحسنى . والعقل الكلى أقدم من ممثول الدهر لأن ممثول الدهر كان لما تحركت ممثولات الأجرام السماوية التى يرجع إليه فضل إيجادها وفضل إيجاد جميع ممثولات الموجودات(١) . فلا بدع أن يكون المعز الذى هو مثل العقل الكلى أكبر من مثل الدهر ، أى أكبر من الدهر فى العالم المادى ، وأجلّ من أن يشبّه لأنه مَثَلُ الذى ليس كمثله شىء ، وأعظم من أن يحيط به الشعر لأنه مثل اللانهائى ! ولا داعى لأن يقول الناس إن نور القمر من الشمس ، لأن المعز نور السموات والأرض المادية .

وعلى هذا النحو يفهم قول تميم يخاطب أباه المريض :

أما الزمان فلا يعلوك حادثه ... قد ظل يسعى بما ترضاه مجتهدا
أَلْنتَ ما لم يزل صعب القياد كما ... حللت من صرف هذا الدهر ما انعقدا
فكيف أخشى عليك الحادثات وقد ... ملكت من حادثات الدهر كل مدى
سأستقيد بك الدنيا التى امتنعتْ ... منى وألبس أثواب العلا جددا
الله ملكك الدنيا وساكنها ... والله أعطاك ما لم يعطه أحدا(٢)

وقوله :

يامن حوى الفضل وحاز الفخرا ... وكَسَف الشمس معا والبدرا
إنى وإن أتعبت فيك الفكرا ... حتى أجدتُ وزنه والنثرا
لمستقل لعلاك الشعرا ... .
قد ملك الناس معاً والدهرا ... وإن غدا أسنى وأعلى قدرا(٣)

فالقطعة الأولى تجعله سيد القدر والناس ، والثانية تجعله فوق الشمس والقمر ، وفوق الشعر والنثر ، وملك الناس والزمان ، وأعلى من الناس والزمان . وماذاك إلا لأنه مثل العقل الكلى .

ونقرأ فى كتاب « دعائم الإسلام » تأكيدات متكررة أن الأئمة لا يعلمون الغيب(٤) . وعلم الغيب تهمة يُرْمَى بها الفاطميون ، وقصة الرقعة التى وضعها

---

(١) انظر « فى أدب الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ٧ ـ ١١ ، ص ١٤٦ ـ ١٥٠ .
(٢) ديوان تميم ص ١١٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨٤ .
(٤) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ٥٨ ، ٦٠ ـ ٧٠ .

الشاعر على منبر العزيز يسخر من ادعائه أنه يعلم الغيب قصة مشهورة[١] . ويرمى الفاطميون كذلك بأنهم يقولون بتناسخ الأرواح[٢] . وشعر تميم يبطل التهمة الثانية عرضا فى قوله :

لو كنت أومن بالتناسخ فى الورى لظننت أنى عُروة بن حزام[٣]

لكن تميما يسترعى انتباهنا حين يقول لأبيه :

عليم بوجه الأمر من قبل كونه بصير بعدو الخطب من قبل أن يعدو[٤]

فهو فى هذا البيت قد يفهمنا أن أباه يعلم الغيب . وسنراه — حين تظله أيام العزيز — يذهب فى قصيدة له إلى أن الناس اختلفوا فى التنجيم فصدقه فريق وكذبه فريق ؛ فأخرج لهم العزيز كتابا من كتب جده المنصور يَسِمُ المنجم بالكهانة والكفر ، ويُحِقُّ عليه النار ، فما النجوم إلا كما قال الله تعالى « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين[٥] » وهى تجرى فى بروجها مسخرة لله ، **ثم يختم حديثه ذاك قائلا :**

وإن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما رووه عن المختار جدهم الطُّهْرِ[٦]

فتميم ينكر التنجيم ويهاجمه ، وينكر أن النجوم وسيلة لعلم الغيب ولكنه لا ينكر أن لدى أسرته شيئا من علم الغيب ورثوه عن النبى ﷺ ؛ والظاهر أن الفاطميين كانوا يأخذون بالتنجيم وغيره من صنوف الشعوذة ، وإن صرحوا بما ينفى ذلك . وعندما كانوا يَطْلعون على الناس بشىء ينكره المجتمع كانوا يتخلصون من ورطة الشعوذة بحجة كحجة تميم . وجدير بالذكر أن الشاعر قد أشار مرة إلى علمه الواسع بالنجوم[٧] !

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(٢) الدكتور محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ص ١٧١ وديوان المؤيد ص ١٢٦ .
(٣) ديوان تميم ص ٣٨٩ .
(٤) المصدر السابق ص ١٠٤ .
(٥) سورة الملك الآية الخامسة .
(٦) ديوان تميم ص ٢٠٧ .
(٧) المصدر السابق ص ٣٩١ .

الإمام العزيز :

ظفر العزيز بمعظم مديح أخيه ، وبأفضله معنى ومبنى ؛ فإنه قد صار خليفة فى الوقت الذى تمكن فيه تميم من ناصية الشعر . والتشيع فى مدح العزيز وسائر مخاطباته أكثر منه فى الشعر الموجه إلى المعز وأوضح . بل إن تميما يصرح بأنه يمدح أخاه مدحا شيعيا فيقول :

فدونكهـــا فيك شيعيـــــةً تميميـــة صعبـــة المرتقـــى(١)

ولن تفوت المتفرس صبغة التشيع القوية الوضوح فى الشعر المتعلق بالعزيز ، حتى إن بعض النصُوص تمضى إلى نهايتها لايكاد يمدح فيها الخليفة بأية فضيلة دنيوية(٢) !

يقول تميم لأخيه ، ومثل هذا كثير :

أنت إمـــام لى بلا تقيـــد لاَهُمَّ فاشهد ثم لاهم اشْهدِ(٣)

وكما سمى المعز وليا سمى العزيز كذلك :

كذا أولياء الله إن رام غيرهم مرامهمُ يظفر بخزى ويزلـقِ(٤)

ويسمى العزيزَ بديلا أيضا :

من النفـر الغـرّ ممن ترون خيـار البرايـا وأبـدالها(٥)

ويبدو الخليفة الخامس فى شعر أخيه وعليه مسوح المهدى ، فعن إمامة أخيه **يقول تميم :**

إمامـــة مهديـــة اللـــواء ودولـــة دائمـــة البقـــاء
محفوفـــة بالعـــز والبهاء عممت بالعدل بنى حواء . . . الخ(٦)

---

(١) ديوان تميم ص ١٢ .
(٢) أنظر ديوان تميم ص ٦٨ ، ١٤٢ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٩١ ، انظر كذلك ص ٤١٣ .
(٥) المصدر السابق ص ٣١٨ .
(٦) المصدر السابق ص ١٧ .

فحكومة القاهرة مهدية أبدية عزيزة ، قد شمل عدلها الناس . وكثيرا ما يمدح العزيز بالعدل[١] .

ولما تمرد أفتكين ، وهاجم بأتباعه الدولة المهدية قال الشاعر :

وما حاربتك الترك إلا وبينها ... وبين العلا والمكرمات حروبُ
وما جحدوا الحق الذى لك فضله ... ولكن بهم عنه عمى وهروب[٢]

فأفتكين والضالعون معه لا يحاربون حاكما عاديا ، وإنما يحاربون المهدى وهم يعلمون .

وحين حارب أبو تغلب بن حمدان الفاطميين خوطب :

حاربت بالبغى إمام الهدى ... ولم تَهَبْ منه عزيزا يهاب[٣] !

ويفتن تميم فى التعبير عن معنى الهداية ، فيقول عن نفسه :

إنى بأفعالك قدما اقتدى ... ولم أزل أهدى بها وأهتدى[٤]

ويقول :

إنى أحبك حب المستفيد به ... إصابة الرشد لاحبا أداجيه[٥]

ويقول عن الأمة :

فأنت المعلى المستضاء بنوره ... وأنت المفدَّى المستطاب المحببُ
بك انصلحت أيامنا بعد جورها ... وذل الزمان الجامح المتقلب[٦]

أو يقول :

وياهُدَى من ضل عن رشده ... واشتبه الحق عليه فجارْ
أبوك جلى الظلم والبغى عن ... شرائع الدين فأنت المنارْ[٧]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠١ ، ٣٨١ ، ٣٩٠ ، ٤١٤ ، ٤١٩ على سبيل المثال .
(٢) المصدر السّابق ص ٥٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٠ .
(٤) المصدر السابق ص ١٣٦ .
(٥) ديوان تميم ص ٤٥٤ .
(٦) المصدر السابق ص ٥١ .
(٧) المصدر السابق ص ٢١٩ .

وهذه لهجة شائعة فى الديوان . ومن هذا القبيل أيضا تشبيه الخليفة بالشمس والقمر تشبيها لا يراد به البهاء ، بل يراد به الهدى[١] .

والعزيز حجة الله على عباده كما كان أبوه وأبو أبيه وجد أبيه وكل أسلافه السابقين ، فهو جدير بأن يقال له :

إنما أنت حجـــة الله لاحت للبرايـــا ووراث الأنبيـــاء[٢]

ودعوى الحجة مكررة فى الديوان[٣] .

وهذا الإمام أو حجة الله ، أو وليه واجب الطاعة :

فمـــن يطعـــه يفـــز بطاعتـــه ومن عصاه فقد عصى الله[٤]

وهذا البيت يكاد يكون نظما لقول جعفر الصادق : « . . . من أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصا الله[٥] » ، وإن كان الأساس : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم[٦] » . ومثل البيت السابق :

من لم يدن ربـــه بطاعتكـــم كان كغـــاو يديـــن باثـــنين[٧]

فإذا كانت أعمال الكافرين كالسراب فكذلك أعمال مخالفى الأئمة . وهذا الاعتقاد جوهرى فى الإسماعيلية . وينبنى عليه أن ما فرض على أمة محمد لا يقبل **إلا بالإمام :**

من لم يكن فى صومه متقربا بك للإله فصومه لم يقبـل[٨]

ويقول الشاعر وهو يهنىء أخاه بحلول شهر الصوم أيضا :

---

(١) المصدر السابق ص ص ٢٠١ . انظر كذلك ص ٢٤ ، ١٧٢ ، ٢٠٦ تمثيلا .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٦ ، ٢١٩ ، ٢٤٤ . . . الخ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٥) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ص ٧٢ .

(٦) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٧) ديوان تميم ص ٤٠٩ .

(٨) ديوان تميم ص ٣٣٤ . انظر فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤٧ .

فهنيته يا من به الله قابلٌ من الخلق فيه كل نُسْكٍ مقدَّمِ[١]

ويقول فى موضع آخر :

به يقبل الله فرض الصيام وحج الحجيج وإهلالها[٢]

وجدير بالذكر أن البيت السابق من قصيدة لتميم مطلعها :

وخمر ترشفت سلسالها وأجريت فى الشرب جريالها[٣]

وأظن أن هذه القصيدة معارضة لقصيدة أبى العتاهية التى أولها :

ألا ما لسيدتى مالها أدلت فأحمل إدلالها[٤]

وليس فى ديوان أبى العتاهية إلا أبيات قليلة من قصيدته ، تناول تميم بعض معانيها فأضافها إلى أخيه لما رآها شيعية الصبغة . قال أبو العتاهية عن خلافة المهدى :

ولو رامها أحد غيره لزُلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب لما قبل الله أعمالها[٥]

فضاق تميم بهذا القول ، ولاشك أن ضيقة بالبيت الثانى كان أعظم ؛ فقال فى خلافة أخيه :

ولو ساسها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
به يقبل الله فرض الصيام وحج الحجيج وإهلالها[٦]

فإذا كان أبو العتاهية قد ذهب إلى أن الله لن يقبل أعمال الناس حتى يسلموا بخلافة المهدى تسليما قلبيا ، وأن هذه الخلافة لو طمع فيها غير صاحبها لاضطربت الأرض ؛ فإن تميما يجعل أخاه هو الوسيلة لقبول الفرائض كالصيام والحج ، ويرى أنه لو قبض على مقاليد الخلافة إنسان غير العزيز لزلزلت الأرض ! .

---

(١) ديوان تميم ص ٣٨١ .
(٢) ديوان تميم ص ٣٢٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٣١٥ .
(٤) ديوان أبى العتاهية ص ٣٠٩ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٠٩ .
(٦) ديوان تميم ص ٣٢٠ .

ومن عقائد الإسماعيلية أن الإمامة ضرورية ، وبغيرها يفسد العالم ، وتضطرب الحياة[١] . وتتمثل هذه العقيدة فى بيت تميم :

فعِشْ تعُمُر الأوقات عمران ماجدٍ فإنْ لم تكن معمورةً بك تخرب[٢]

ومن عقائدهم أيضا أن الإمام أعلم الناس ، لأنه وارث علم النبوة . وفى كتاب « دعائم الإسلام » فصل يدور حول هذا الموضوع ، ويجرح أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة ، والشافعى وأبا حنيفة وغيرهما من أعلام الفقه السنى[٣] . **لذلك يقول تميم لأخيه :**

وجمعت مفترق العلوم فأنت مجتمع العلوم[٤]

ونراه يكرر هذا القول مرارا[٥] .

وكما رفع أباه وجعله خير الناس ، نجده يفعل ذلك مع أخيه فيقول :

رعاك الذى استرعاك أمر عباده فمالك فى هذا الأنام ضريبُ[٦]

أو يقول :

يا أكرم الناس كلِّ الناس فى الشِّيم وأفضل الخلق من عرب ومن عجم
بل لا أقيسك بالدنيا وساكنها وهل يقاس ضياء الصبح بالظلم[٧] ؟

ويجعل لأخيه العصمة فيقول :

لم يخلق الله فيك ساقطة تُسْخِنُ عين العلا ولاكَدَرا[٨]

أما الصلاة على العزيز والسلام فمن الأمور الكثيرة فى الديوان كثرة تغنى عن التمثيل .

---

(١) القاضى النعمان : الهمة ص ٥٠ .
(٢) ديوان تميم ص ٥٢ .
(٣) القاضى النعمان : دعائم الاسلام جـ ١ ١٠٣ — ١٢٠ .
(٤) ديوان تميم ص ٤٠٢ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤٣٣ على سبيل التمثيل .
(٦) ديوان تميم ص ٥٥ .
(٧) المصدر السابق ص ٤٠١ .
(٨) المصدر السابق ص ١٦٠ .

والإمام الذى يقر له كل إسماعيلى بما تقدم جديرٌ بحبه . والحب من الضرائب المعنوية التى يدفعها للإمام الإسماعيلى من قلبه ، كما تعود أن يدفع إليه ضرائب ماله . وفى كتابى « الهمة » و « دعائم الإسلام » فصلان يعالجان هذه العقيدة[١] ، يروى فيهما المؤلف مأثورات يرفعها إلى النبى وإلى جعفر الصادق تدور حول ما يجب على الشيعى من حب آل على ، منها : « من أحبهم فقد أحبنى ، ومن أبغضهم فقد أبغضنى »[٢] ، وعجيب أن يقول المؤلف : « ولنظرة بالمكروه إلى ولى من أولياء الله أعظم عند الله من قتل ملأ من الناس »[٣] ! : وفى ضوء هذه العقيدة يفهم قول تميم :

لِيُهْنِكَ أن الصوم فرض مؤكد من الله مفروض على كل مسلم
وأنك مفروض المحبة مثله علينا بحق قلتُ لا بالتوهمِ[٤]

والمطالبة بحب الإمام أو الحديث عنها مما يتكرر فى الديوان[٥] .

ونسمع تميما يقول مرة :

أنت الصراط المستقيم من الصراط المستقيم[٦]

ونرى فى « تأويل دعائم الإسلام » : « ومثل الطريق فى التأويل مثل الإمام ، ومن لم يعرفه وعدل عنه فهو ضال[٧] » .

وفى الديوان عقائد أخرى إشير إليها فى الحاشية كدعوى أن الله يشير إلى الأئمة بآيات معينة[٨] ، وعد الكِتَاب عليًّا تأويلا[٩] ، وعد مناسك الحج[١٠] ، أو

---

(١) القاضى النعمان : الهمة ص ٤٠ ، دعائم الاسلام جـ ١ ص ٨٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٨ .
(٤) ديوان تميم ص ٣٨١ .
(٥) المصدر السابق ص ١٥٧ ، ٢١٢ ، ٤١٤ ، ٤٣٣ على سبيل المثال .
(٦) المصدر السابق ص ٤٠٣ .
(٧) القاضى النعمان : تأويل دعائم الاسلام (مخطوط) ص ١٣ .
(٨) حاشية ديوان تميم ص ٦٣ .
(٩) حاشية المصدر السابق ص ٦١ .
(١٠) حاشية المصدر السابق ص ١٢ . انظر كذلك حاشية ص ٦١ .

الأعياد هى الأئمة تأويلا[١] ، وعد ليلة القدر أو صاحب كنز الجدار هو الإمام تأويلا فى حين أن باطن الجدار هو الدعوة[٢] .

وكما جعل تميم أباه سيد الدهر لأنه مَثَلُ العقل الكلى جعل أخاه كذلك فى قوله له لما مرض :

مجيرك الله من سقم ومن وَصب ... وحسبك الله من داء ومن نصب
وكيف عقك دهر أنت بهجته ... وأنت جُنَّته للعُجْم والعرب
وأنت ألبسته تاج السنا شرفا ... حتى تبختر فى أثوابه القشب !
إن صارمتك لياليه فما رجعتْ ... إلا على نفسها بالويل والحَرب
سيعلم الدهر إن لم يثْنِ عنك يداً ... بأنه فاقئ عينيه عن كَثَب
لأنه بك أضحى فى تصرفه ... يعطى ويأخذ فى الأحداث والنوب
يادهر أسرفت عدواناً منيت به ... يادهر حسبك فارجع عن ذوى الحسب[٣]

فالشاعر يقول : الله مجيرك من المرض والعناء . ولله هذا الدهر ! يعقك وأنت زينته ، وجُنة ناسه ، ومصدر النور فيه ! ألا إن الأيام ناصبتك العداء حاق بها الشر والدمار . وإذا لم يكف الدهر عنك فسيرى أنه كالباحث عن ضره ؛ فإنه بك يصرف أقدار الناس . أنت أيها الدهر لقد شططتَ فى العدوان ، ويكفيك ما صنعتَ ، فارجع عن ذوى الجاه . وقد كرر الشاعر هذه اللهجة[٤] .

وفى ديوان تميم أبيات قد يمر بها القارىء فيعدها غلوا ، أو يحسبها كفرا . وقد كشفت مجموعة منها هذه الأبيات :

وأنك تدنو كل يوم تواضعا ... وأنت من الجوزاء أعلى وأرفعُ
أهنيك بالعيد الذى أنت عيده ... ونور سنا إقباله حين يسطع
إذا ما تأملت الزمان وجدته ... بكفيك يعطى من يشاء ويمنع
ولو لم تكن فيه لما لاح بدره ... ولا أشرقت شمس الضحى حين تطلع[٥]

(١) حاشية المصدر السابق ص ٢٩١ . انظر كذلك حواشى ص ٤٣ ، ٥٢ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ٣٤٦ ، ٤١١ ، ٤٥٠ .
(٢) ديوان تميم ص ٣١٥ ، ٢١٩ .
(٣) ديوان تميم ص ٧٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

فإذا فهمنا هذه الأبيات فى ضوء نظرية المثل والممثول وقفنا على مقصد الشاعر الحقيقى . فالإمام مثل العقل الكلى أرفع من الجوزاء ومن كل الأجرام . أما أنه العيد فقد سبقت الإشارة إلى ذلك . وهو نور يوم العيد ، ونور السموات والأرض . ولولا نوره الذى يمد الشمس وينعكس على صفحة القمر لانطفأت الشمس ، ولاختفى القمر . وإذا كان العقل الكلى قد تحمل عن الله كل صفاته فى العالم الروحانى وتحمل الإمام هذه الصفات فى العالم الجسمانى أو المادى كان الإمام هو المانح والمانع ؛ بيده يمنح الزمان ، وبإرادته يمنع ! .

ويُصيِّر تميم على أن أخاه نور الشمس والقمر فيقول :

وطلعت مع شمس الضحى لعيوننا شمسا ولحت مع الهلال هلالا[1]

ويقول :

بك تستضيء الشمس فى إشراقها والبدر فى أفق السماء ينيرُ[2]

وعند شاعرنا أقوال أشد على السمع مما سبق ، وأبعث على العجب ، وأشبه شيء بما كفَّر به القدماء ابن هانىء الاندلسى ، منها قوله :

ومالى لا أحوى بك العز والعلا وأنت على كل الأمور قدير[3]

وكيف يكون العزيز على كل شيء قديرا ما لم يكن مثل العقل الكلى ! وشبيه **بالبيت السابق الأبيات :**

لك همة ماهمها الا إلى الأمر الجسيم
فلو ارتقيت إلى النجو م لنلت ما فوق النجوم
وكذاك لو تبغى التخو م لنلت ما تحت التخوم[4]

وهذه قدرةُ مَثَل القادر التى لا يعجزها شيء فى السماء ولا فى الأرض !

---

(١) ديوان تميم ص ٣٥٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨١ .
(٣) المصدر السابق ص ١٤٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٠٢ .

وقال تميم يمدح أخاه :

دانت له الأرض والعباد معا والوحش فى وعرها وصحراها(١)

وقـــال :

لربَّتك حتى العُصْم فى قُنَن الربا وخافتك حتى الأنجم السبعة الشهب(٢)

وقـــال :

نعم وتراه االطير فى صدق صيدها ويشدو بها غير الحمام المطوق(٣)

فما هذا الكائن الذى تخضع له الأرض والأجرام السماوية ، وتدين له العباد ووحوش الوعور والصحارى ، وترتزق به الطير ! إنه لن يكون غير مثل العقل الكلى الذى خاطب السموات والأرض فقالتا أتينا طائعين ، الذى ما من دابة إلا عليه رزقها .

ولتميم أشعار أخرى عقدية قالها فى العزيز(٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩١ . والشطر الثانى من البيت غامض .

(٤) انظر ص ١٤٦ — ١٤٨ من « فى أدب مصر الفاطمية » للدكتور محمد كامل حسين .

البـــــاب الثالث

الفصل الأول

شعـر الخمـر

لحظ أحد قُرَّاط دربنا — رحمه الله — أن طريقة تميم فى المدح لم ترق داعى الدعاة الذى عاش فى القرن الخامس ؛ فاختار قصيدة لشاعرنا مطلعها :

أسرب مها عن أم سرب جنه حكـــتهن ولســـن هـــه(١)

وعارضها بقصيدته التى مطلعها :

هلال بدا من خلال الدجنه إمـام زمـان من النار جنـــه

ثم غمزه الداعى بهذه الأبيات :

سينعت فضلك مثنى الـــلسان إذا نعت الميز توريد وجنه
وغير مديحك هو الحديث ومدحك دين وفصل وفطنـه
فخذها جوابا لنجـل المعـــز (أسرب مها عن أم سرب جنه)

ذهب إلى ذلك فى سياق حديثه عن قلة ما جاء فى مدح تميم من المعانى الإسماعيلية ، وكثرة ما جاء من المعانى المتداولة فى الشعر العربى(٢)

ونحن نقبل أن الداعى قد أخذ على تميم عدم إغراقه فى المعانى الإسماعيلية فى المدح ، ونضيف أن الداعى كان يعرف ديوان تميم خير المعرفة ، وأنه قد ضاق بذهاب معظم ما جاء به فى فنون غير المديح ، لا تتصل بالعقيدة الفاطمية ؛ كما ضاق بجرأة الشاعر فى مدح أخيه ، تلك الجرأة التى تتمثل فى بدء بعض المدائح بالتغنى بالخمر والجنس والفخر المدوى ، مع أن المديح موجه إلى ذلك الكائن الذى يقدسه داعى الدعاة ! والقصيدة التى عارضها الداعى بدايتها غزل مثقل إثقالا عجيبا بنونات

---

(١) ديوان ابن تميم ص ٤٤ .

(٢) الدكتور محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢١٥

النسوة . وربما كان ذلك الحشد المثير من النونات ، إلى جانب وصف السرب النسائى وحديث الخمر التى تديرها الساقيات المثيرات ، مصدرا من مصادر ضيق الشاعر المتأخر بقصيدة تميم ، واختيارها دون غيرها للتنديد باتجاه صاحبها الشعرى . وإذا كان ابن هانىء قد تحدث عن الخمر فى مديح المعز[١] ، وأبو الرقعمق قد تبذل فى مديح العزيز[٢] ، فليس تميم كهذين ، لأنه من السلالة الطاهرة .

لقد كان تميم شاعرا ماجنا ، منكود الطالع . وكان أصحابه من المعربدين . وكانت مصر فى أيامه زاخرة بالحانات كما رأينا . وحديث الشابشتى عن أديرة مصر يدل على أن تميما قد عاش فى بيئة كتلك التى عاش فيها أبو نواس . وقد دفع كل ذلك تميما إلى السكر دفعا . وظهر صدى هذا الواقع فى شعره قطعا خمرية مستقلة أو لاحقة ببعض الفنون كالمديح .

يشرب تميم النبيذ والخمور . ولا يحب شيئا كما يحب الخمر المعتقة التى طال عليها الأمد حتى لم يكد يبقى منها شيئا :

لها روح ولـــــــيس لها كما للـــــــــــروح جثمان[٣]

وهى التى :

يحلف من يشر بها بالمصحف بأنها لو لم تفح لم تعرف[٤]

ولا يعجب شاعرنا بالخمر التى يعجل الخمار إنضاجها بالنار ! لأنها دون تلك التى أنضجها الزمان الطويل ؛ فيقول عن نديمه الذى أرسله ليشترى له الخمر وعن الخمار :

---

(١) انظر القصيدة ص ٤٢٩ فى تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى .
(٢) الثعالبى : اليتيمة جـ ١ ص ٢٤١ .
(٣) ديوان تميم ص ٤٣١ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٧٧ .

فساله : هل طبخت بنـــار ؟ فقال : لا ، والطرح الكبـــار
أولا فإنى قاطـــعٌ الزنـــارِ ما عُذِّبت بالنـــــار والأوار[١]
ولاعلتها قـدما عصار

ويريد تميم بالشطر الأخير أن عاصر الكرم لم يستخدم قدمه فى عصر العنب إكراما للخمر !

وتميم مستعد أن يدفع فى الخمر الكريمة ثمنا باهظا :

وقـــام محتشـا إلى الخمـــار وابتاع منه الراح باختصار
بلا مماراة ولا إكثـــــار بمثلهـا وزنـا من الـــنضار
محتسبا بُعد مـدى التجار[٢]

وقد تكون الخمر التى يشربها بعيدة الدار كما جاء فى الشطر الأخير ، فتكون فارسية أو عراقية مجلوبة من الكرخ أو بابل[٣] ، فتستحق أن توزن بالذهب . ويكون لونها أصفر حينا وأحمر حينا آخر[٤] . **وربما شربها خالصة :**

نشربها كرخيـــــــة الآباء صفـــراء لا نقهرهـــا بماء[٥]

وربما شربها ممزوجة :

فقـــم إلى الـــراح فَشُبْ بالماء منها ما صلب[٦]

وعندما يمزج الساقى الخمر تعلو الكأس فقاقيع تشبه الحب ، أو اللؤلؤ ، أو الدر ، أو أعين الجراد[٧] . . . وعندما تمتلىء الكأس يكون منظرها عجبا ؛ فهى تشبه فضة تستوعب ذهبا ، أو ياقوتا داخل برد ، أو عسجدا فى در ، أو جلنارا مع

---

(١) المصدر السابق ص ١٧٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٥ ، ٦٢ ، ٣٢٢ .
(٤) المصدر السابق : الصفراء ص ١٦ ، ٧٩ ، ١٨٣ . . . حمراء ص ٣٢ ، ٦٢ ، ٨٢ .
(٥) المصدر السابق ص ١٦ . وانظر كذلك ص ٧٣ ، ٨٩ ، ١٦٩ ، ٣٨٤ ، ٤٣١ .
(٦) المصدر السابق : ص ٧٣ . انظر أيضا ص ١٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١٦٨ ، ٣٧٩ .
(٧) المصدر السابق ص ٤٥ ، ٣٨٢ ، ١٦٤ ، ٣٨١ تباعا .

ياسمين ، أو ثلجا ونارا[١] . . . ويريد تميم بمثل هذه الصور أن يرينا المباينة بين لونى الوعاء والشراب .

وربما استحالت الكأس نارا خالصة فى خيال تميم :

وساق يديـــر على إلفـــه لهيبا من النـــار فى كفـــه[٢]

وإذا كان الأمر كذلك حق له أن يخشى على يد ساقيه ، فيصيح بالنديم :

لا تترك القدح المملوء فى يده إنى أخاف عليه من تلهبهِ[٣]

والخمر مضيئة فى شعر تميم ؛ فهى نور ، أو صباح ، أو سراج ، أو برق ، أو شمس[٤] . . . . ورائحتها طيبة تشبه رائحة العنبر ، أو المسك ، أو الخلوق ، أو الورد ، أو الزعفران ، أو رائحة الحسان[٥] . . .

قال تميم يصف الكأس :

ينظـم فيها ماؤهـا لؤلـؤا كأنـه نظـم ثغـور الحسانْ
كأنما الكـأس بها ثلجـة يكيـل ساقيها بها زعفـران
أو درة ضمت على عسجـد أو عسجد قد ذاب فى أقحوان[٦]

ويسقى تميما ساق قد يشبه الفتاه أحيانا ، أو ساقية هيفاء ، أو غلامية ، وربما كانت مزنرة[٧] . وكلا الجنسين جميل أريب ؛ قال :

يسعـى بها منفـرج القبـاءِ أحور رطب اللفـظ والأعضاءِ
يفهـم باللحـظ وبـالإيماءِ فهو مُنَى مقلـة كل رائ[٨]

---

(١) ديوان تميم ص ٦٨ ، ١٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٦ ، ١٦٩ تباعا .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٧٦ .
(٣) المصدر السابق : ص ٧١ .
(٤) المصدر السابق : ص ٣٢ ، ٩٢ ، ٨٧ ، ٢٤٦ ، ٦٢ تباعا .
(٥) المصدر السابق : ص ٢٥٢ ، ٣٠٠ ، ٤٣٩ ، ٣٢ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ تباعا .
(٦) المصدر السابق : ص ٤٣٩ .
(٧) المصدر السابق : ص ٢١٣ ، ٤٦ ، ٤١٥ ، ١٦٥ تباعا .
(٨) المصدر السابق : ص ١٦ .

أما ندامى تميم فهم صفوة الندامى ؛ يذكر أنهم أهل علم وأدب وفهم ، عذاب الحديث ، وأحاديثهم كلها تحفّ ، لا يسبون ولا يتناولون أطراف الكلام الردىء ؛ ومن أخلاقهم الموافقة ، وسرعة الإجابة ، والصبر ، والعفو عن السقطة ، وعدم الغدر ، والهزل فى الوقت المناسب(١) . **يقول تميم فى أحدهم :**

ولى صاحب لا يمرض من الجهل عقله ... ولا تتأذى النفس منه ولا القلبُ
إذا قلت : لا فى قصة لم يقل : بلى ... وإن قلت : أصبو قال : لابد أن أصبوا
وإن قلت : هاك الكأس قال مبادرا : ... ألا هاتها ، طاب التنادم والشرب
سريع إذا لبى ، صبور إذا دعا ... يهون عليه فى رضا خله الصعب(٢)

ويتحدث تميم عن طريقة منادمته هو فيقول :

فحثا ولا تخشيا نشوتى ... فغيرى المسىءُ عليها الملومُ
لأنى يسّر ارتياحى المدام ... ويرضى خلالى عليها النديم(٣)

وإذا بدرت من أحد نداماه كلمة جارحة لم يرد عليها بلسانه أو يده وهو الأمير المهيب ! بل إنه يخفض للنديم جناحه ، ويبالغ فى إكرامه :

فاسقنى ياندىم واشرب بكأسى ... واقسم اللهو بيننا والنعيما
لا شربتُ المدام إن لم أعظم ... فوق نفسى على المدام النديما(٤)

ويرى أن النديم مما يزيد الشراب متعة :

قد يزيد المدام للمرء طيبا ... حسن مسموعه وطيب نديمه(٥)

ولكنه مع ذلك يشرب وحده :

فإن لم يكن منكما مسعد ... فإنى بإسعاد نفسى زعيم(٦)

---

(١) ديوان تميم ص ٢٣ ، ٤٤ ، ١٧٧ ، ٢٣٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٤ .
(٣) ديوان تميم : ص ٣٧٩ .
(٤) المصدر السابق : ص ٣٨٦ .
(٥) المصدر السابق : ص ٣٩٦ .
(٦) المصدر السابق : ص ٣٨٠ .

والوحدة خير من نديم السوء :

حثا على الكأس وحدى إننى ... ممن غدا ولها عليه ذمامُ
ودعا اللئيمَ لمثله ولجنسه ... إن المدام على اللئام حرام[١]

وكان تميم يشرب فى الحانات الكثيرة المحيطة به ، أو يشرب فى الأديرة المنتشرة فى البيئة المصرية ، وخصوصا دير القصير[٢] . **يقول :**

قصرت على دير القصير مجونى ... ورحت ومالى فيه غير مصون
وكانت به للراح عندى وللصبا ... ديون فلم أمطل قضاء ديونى
إذا بكر الناقوس باكرت شربها ... وخالف أديان النواقس دينى
ورحت صريعا بين كأس مدامة ... وترجيع أوتار ولحظ عيون
ولم تهتك اللذاتُ ستر مروءتى ... ولا أفسدتْ فيه الذنوب يقينى[٣]

ويدعو تميم لهذا الدير بالسقيا فيقول :

ربَّ سق دير القُصَيْر فإنى ... نلت لذاته وطيب نسيمه[٤]

وقد تحدث عن هذا الدير كثيرا فى شعره . وذكر دير مرحنا مرة[٥] .

وكان الشاعر يحب الشرب فى الرياض حيث يضوع الشذا ، وتشدو الأطيار . وذكرُ الرياض فى حديث شربه أمر عادى . وكان يميل إلى الشرب فى منازه المختار فى الروضة ؛ فاعتاد أن يذهب إليها . ولهج بها مرارا فى شعره[٦] . من ذلك قوله :

حبذا طيب يومنا الممطور ... بفناء المختار ماءَ السرور
حين نجنى اللذات سرا وجهرا ... بشقيق الندى ألبى المنصور
أشرق الأفق بالجزيرة لما ... زارها ، فهى بين عز ونور
ملك آمر ولكنه مِنْ ... فضله فى خلائق المأمور

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٨٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٥ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٣٤٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ .
(٣) المصدر السابق : ص ٤٤٣ .
(٤) ديوان تميم ص ٣٩٧ .
(٥) المصدر السابق : ص ١٢٧ .
(٦) المصدر السابق : ص ٨٣ ، ١٦٢ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ، ٢١٥ .

ما ترى الروض كيف أبدى نسيما ... زاد فى طيبه على الكافور
وطيور الأشجار كيف تغنت ... بين تغريدها ، وبين الصفير ؟ !
يترنمن عن نفوس ثكالى ... ويجاوبن صوت مثنى وزير
من قيان كأنن غصون ... ناعمات يمسن تحت بدور
كل مخطوفة الحشا ، تضرم الشو ... ق بلفظ عذب وطرف سحور
فدع الفكر ، والبس اللهو وانعم ... طربا تحت بنده المشهور
وأدرها مدامة خندريسا ... معملا للكبير بعد الصغير
لا أرتك الأيام بؤسا ولازل ... ت عزيز الجناب صافى الضمير[1]

ويرينا هذا النص تميما يشرب حيث تصدح الموسيقى ، ويعلو الغناء . والحديث عن الموسيقى والغناء مما لا يفتأ تميم يكرره شعره فى شعره الخمرى . وربما شرب على صفحة النيل[2] .

ولا يشرب تميم فى وقت دون آخر ، بل يشرب فى الليل والنهار ، وربما واصل **كما قال :**

كم صَبوح وصلته بغبوق ... وظلام وصلته بنهار[3]

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فإنه يزعم أنه قد يذهب إلى الحانة فتطيب له **الحال فيقيم طويلا :**

ولم نزل • فى بيت خمارها ... نشربها شهرا ومثناه ![4]

ولكنه يفضل الصبوح على الغَبوق ؛ أى أنه يفضل الشرب الذى يبدأ فى الصباح **الباكر كما قال :**

إن الصبوح هو السرور بأسره ... وهو اللذاذة والنّعيم الكامل
لا شىء أحسن حين ينحسر الدجى ... ويلوح لألاء النهار الشامل

---

(١) المصدر السابق : ص ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٢٥ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٣٥ . انظر كذلك ص ٣٠٠ .
(٤) المصدر السابق : ص ٢٣ .

من أن تباكر بالندامى قهوة صفراء مما عتقتها بابل
خير النهار شبابه ، فارتع على ال لذات فيه إنهن رواحل[١]

وعندما يشرب تميم تخور قدمه ، ويثقل عليه الكلام . فإن نطق تلعثم

تقتص من أقدامنا ثأرها وتعقد اللفظ وتلوى اللسانْ[٢]

ومعنى الشطر الأول أنه لما كان الناس يستعملون أقدامهم فى عصير العنب ، فإن الخمر لا تنسى هذا الوطء ، فتنتقم لنفسها بأن تخدر أقدامهم حين يشربون[٣] .

وقد تخدر الخمر العقل ، فتصحو الأوهام على الألحان ، وتساور السكارى أشتات الخيالات . ويتحدث تميم عن هذه الحالة :

تعيد الصغب بالنشوات سهلا وتغنى بالمنى الرجل الفقيرا
وتكبر نفسٌ شاربها ارتياحا فيحسب أنه أضحى أميرا[٤]

ولا يقنع تميم بما تكفل له الخمر من لذة وراحة ، وبما يصاحبها من ألحان وأنغام وَمَرَاء ، فيضم إليها المتعة الجنسية ، إذ يمزج الخمر بالرضاب[٥] ، ويجعل نقله تفاح الخدود ، وريحانه ورد الوجنات[٦] . ويشتط فيفعل أكثر من ذلك مع النساء والغلمان[٧] . ويحدثنا بوقاحة أنه قد يهوى انسانا فلا يقدر عليه ، فيحتال عليه بالخمر حتى يسكر :

فكم حيلة لى فى الغانيا ت تعيى من الناس محتالها
إذا غادة منعت نيلها ببخل ولم تخش تبخالها
صرفت إليها عنان المدام وعل الكؤوس وإنهالها
فذلت وقد عزَّ منها المرام وما كنت آمل إذلالها[٨]

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٢٢ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٣٩ .
(٣) انظر حاشية المصدر السابق نفس الصفحة .
(٤) المصدر السابق : ص ١٨٦ .
(٥) المصدر السابق : ص ٥٩ ، ٨٤ ، ١٧٣ .
(٦) المصدر السابق : ص ٨٤ ، ٤٣١ .
(٧) المصدر السابق : ص ١٧٣ ، ١٨٣ .
(٨) المصدر السابق : ص ٣١٦ .

ويشرب تميم لأنه يؤمن باللذة فى هذه الحياة . وقد تجلى إيمانه هذا فى خروجه على التقاليد . وكانت الخمر من مظاهر ذلك الخروج . ويعبر تميم عن هذا الإيمان بقوله :

إنما العيش بلوغ السـ ـؤل مما تشتهيه
ومدام تصطفيها ونديم ترتضيه
ورخيم ساحر المقـ ـلة معدوم الشبيه
جمع التفاح والرا ح بخديه وفيه
نزق عن عاذليه صلف فى عاشقيه[1]

وكان يقوى مبدأ اللذة فى نفس الشاعر أمور :

الأول : حبه الشديد للحياة الذى يعبر عنه بطرق شتى كأن يقول لمن يخاطبه إنه يود لو وهبه شيئا من عمره[2] .

الثانى : إحساسه بخطر الزمن ، ويتمثل هذا الإحساس فى قوله الذى سبق أن رأيناه :

خير النهار شبابه ، فارتع على ال لذات فيه إنهن رواحل[3]

وقوله فى مقدمة حديث عن الشرب :

وما هو إلا شباب يزول وعمر يسير ودهر قصير
وكل امرىء مستعار الحياة ولابد أن يقتضيها المعير[4]

وقوله فى ختام شعر خمرى :

فيسنا آسى من الحدثان إلا على عمر منحناه قصيرا[5]

---

(١) ديوان تميم ص ٤٥٢ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٣٤ ، ١٤٦ ، ٢٨٧ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣٢٢ .
(٤) المصدر السابق : ص ٢١٢ .
(٥) المصدر السابق : ص ١٦٨ .

ولا يجد أوفق من أن يقتل الدهر لذة كما قال فى خمرية :

قم نغبن الدهر فإنى امرؤ آليت بالنشوة أن أغبنه(١)

الأمر الثالث : رغبته فى الهرب من الواقع ليتخلص مما فيه من هموم . وكان واقع الشاعر مشوبا بما يحمله على أن يهرب . ومن شعره الذى من هذا القبيل قوله :

لا تضق بالدهر ذرعا واقتل الدهر جهارا
بمدام تقتل الـ ـهمَّ غبوقا وابتكارا
ودع الدهر وإن خا ن مثيرا ما أثارا
إنه أسفل من أن تقتنى منه حذارا
لم نجد مما قضى الـ ـله من الأمر فرارا
فاسقنى صرفا وغنّ (داو بالخمر الخمارا)(٢)

ولهجة تميم فى الحديث عن اللذة عموما لهجة جريئة ، وربما تنسم منها القارىء رائحة الإلحاد ، كما فى قوله :

انعم من العيش بما تشتهى واطرب ودع من لام أو فندا
واغتنم اللذات مستمتعا ولا تبع يومك تبغى غدا(٣)

ويبدو أن الشاعر مقلد فى البيتين السابقين ؛ لأن القارىء سيجده فى مواضع شتى عاصيا يطمع فى المغفرة :

أديراها على ولا تخافا إلها فى إدارتها غفورا(٤)

وعندما يتحدث تميم عن الخمر يستعمل أسلوبين :

الأول هو الحديث المباشر وهو أن يصف الشاعر الخمر وملابساتها وصفا ينطق هو به ، ولا يجريه على لسان سواه ، ولا يكون فيه قص .

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٤٤ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٥٢ .
(٣) ديوان تميم ص ١٢٨ .
(٤) المصدر السابق : ص ١٦٨ .

والأسلوب الثانى هو الأسلوب غير المباشر ، وهو أن يحكى لنا حكاية كهذه :

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله ... ولا تتأذى النفس منه ولا القلبُ
إذا قلت : لا فى قصة لم يقل : بلى ... وإن قلت : أصبو قال : لابد أن أصبو
وإن قلت : هاك الكأس قال مبادرا ... ألا هاتها طاب التنادم والشرب
سريع إذا لبى ، صبور إذا دعا ... يهون عليه فى رضا خله الصعب
غدوت به يوما إلى بيت حانة ... وللغيم دمع ما يكف له سكب
وقد نفحت ريح الصبا بمنافس ... عبيرية الأنفاس طاب لها الترب
فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسف ... إلى زولة شمطاء منزلها رحب
مزنرة أما أبوها فقيصر ... وحسبك ملكٌ جده قيصر حسب
قصيرية ديرية هَرْقَلية ... تقاصر منها الخطو واحدودب الصلب
وقالت لنا : أهلا وسهلا ومرحبا ... وقل لكم منى البشاشة والرحبُ
من انتم ؟ فقلنا : عصبة من بنى الصبا ... دعاهم إليك القصف والعزف واللعب
فقالت : على اسم الله حطوا رحالكم ... فعندى الفتاة الرؤد والأمرد الرطب
وراح نفى أقذاءها طول عمرها ... فجاءت كما يذرى مدامعه الصب
أرق إذا رقرقتها فى زجاجة ... وألطف من نفس تداولها الحب
كأن سراجا فى ترائب دنها ... إذا أقبلت من ليلة الدن تنصب
فقلنا لها : هاتى بها وتعجلى ... ولايك فيما قلت خُلْفٌ ولا كذب
فجاءت تجر الزق نحوى كأنه ... على الأرض زنجى بلا هامة يحبو
فلما مزجناها بدا فوق رأسها ... حباب كما ينساب من سلكه الحب
وطافت بها هيفاء مخطفة الحشا ... معاطفها سلم وألحاظها حرب
تمايلَ ردفاها وأدرج خصرها ... ليانا ولطفا مثل ما تدرج الكتب
شكا كشحها الزنارُ مما يجيعه ... وضاق بها الخلخال وامتلأ القُلْب
أغار على أعطافها كلما انثنت ... مع الكأس أو فدى ملاحتها الشّرْبُ
أحلت لى الصهباء تقبيل وجهها ... وما كان قبل السكر فى لثمه عتب
كأنى وقد أضجعتها وعلوتها ... من الشكل رفع تحت ضمته نصب
وما فض ... ... بجناية ... سوى قولها إن المسيح لها رب
فلما أغاظتنى بإظهار كفرها ... ذببت عن الإسلام إذ أمكن الذب
وضرجت ... ... تقر له البيض المهندة القضب

وقلت لها : أرماحنا علوية ... تقد تروس الروس إن طعنت عرب !
فما برحت حتى أنابت وأسلمت ... فهل لى فى فتكى بها بعد ذا ذنب !
أبا حسن هاك المدامة واسقنى ... فقد شاب رأس الشرق واحلو لك الغرب
كأن الثريا فى ملاءة فجرها ... مصابيح إلا أنها قد بدت تخبو
سلام على دير القصير ومرحبا ... به ، فله منى التخصص والقرب
فكم لذة فيه قضيت ، وغلة ... شفيت ولا واش علينا ولا شغب
منازل يستن الصبا فى عراصها ... ويعذب فيها ماء ديمتها العذب(١)

وهذه القصيدة تحكى لنا سعى تميم تحت جنح الظلام إلى الخمارة ، وشربه وفسوقه . وفيها حوار طريف بين الساعيين وبين صاحبة الحانة . وعند شاعرنا أكثر من حكاية ، وإن كانت المذكورة من أشدها تعقيدا(٢) .

تخمير تميم والشعر العربى :

تحدثنا عن صفات الخمر عند تميم ، وصفات مكانها وزمانها ، وصفات السقاة والندامى ، وما تصنع الخمر بالشاربين وما يصنعه هو فى سكره ، وعرفنا لماذا يشرب . ولا جديد فيما قال ، فالخمر المعتقة مما كان يؤثره الشعراء العرب(٣) ، وقد تغنوا مثله بغلاء الخمر(٤) . ويذكر ابن المعتز أن من أصناف الخمر الأحمر والأصفر(٥) ، وأن العرب يشبهون الشراب الأصفر يتضرُّم الكوكب ، وصفرة الذهب ، وتضرم اللهب(٦) . أما الشراب الأبيض فيشبهونه بالأنوار وضياء النهار(٧) . وقد رأينا هذه التشبيهات الألقة فى شعر تميم وإن لم يذكر الشراب الأبيض . ويروى ابن المعتز شعرا شبهت فيه رائحة الخمر بالمسك واللادن والزعفران والقرنفل والريحان

---

(١) ديوان تميم ص ٤٤ .
(٢) انظر المصدر السابق : ص ٢٢ ، ١٧٧ .
(٣) ابن المعتز : فصول التماثيل ص ٢٥ .
(٤) الدكتور جميل سعيد : تطور الخمريات فى الشعر العربى ص ٣٨ .
(٥) راجع فصول التماثيل ص ٢٧ — ٣٠ ، ص ٣٠ — ٣٥ .
(٦) المصدر السابق : ص ٣٠ .
(٧) المصدر السابق : ص ٣٧ .

والتفاح ، وبرائحة النساء أيضا[١] . وهكذا تفنن الشعراء السابقون لتميم فى تشبيه رائحة الخمر كما تفنن .

ونرى الساقية والساق فى الشعر العربى منذ البداية . وقد عرف العصر العباسى الغُلاميَّة ، ولها ذكر فى شعر أبى نواس[٢] . أما النديم فمن لوازم الشرب[٣] . ويرى كشاجم أن على النديم أن يتحلى بالتواضع والشرف ، والوقار والعفة ، والفتك والشره ، والعبث والمزاح ، والعلم بالغناء والشعر والطبخ[٤] ، ويطيل التعرض لما ينبغى أن تكون عليه أحاديث النديم[٥] . وإذا استثنينا العلم بالطبخ الذى اشترطه الشاعر الطباخ وجدنا ندامى تميم كما شاء كشاجم . وفى شعر أبى نواس الكثير من آداب المنادمة[٦] .

وكان الشعراء القدامى يشربون فى الخمارات والأديرة . وقد ذكر الأخطل الشرب فى الرياض[٧] . وذكرُ الرياض فى خمريات أبى نواس كثير . ويحدثنا السرىّ الرفاء عن شربه فى العوامات فى مواضع شتى من ديوانه[٨] ، فهو كتميم فى شربه على صفحة النيل .

أما الغناء ساعة الشرب فعادة تعودها الجاهليون والمسلمون . ولا أدل على ارتباط الخمر بالغناء من اقترانهما فى الفقه تحريما وتحليلا ، فقد حللا تارة وحرما تارة وحلل أحدهما دون الآخر تارة أخرى[٩] . وليس الغناء على الشرب وذكر ذلك فى الشعر وقْفاً على العرب ، فلدينا شعر فرعونى فيه جمع بين الغناء والخمر[١٠] .

---

(١) المصدر السابق : ص ١٧ — ١٩ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ٦ .
(٣) كشاجم : أدب النديم ص ٣ — ٧ .
(٤) المصدر السابق : ص ٧ — ١٢ .
(٥) المصدر السابق : ص ٢٢ — ٢٧ .
(٦) انظر الباب التاسع من ديوان أبى نواس (رواية حمزة بن الحسن الأصفهانى) .
(٧) ديوان الأخطل ص ١٦٢ . انظر كذلك مادة أرض فى لسان العرب .
(٨) ديوان السرى الرفاء ص ٩٧ ، ١٣٨ ، ١٨٩ .
(٩) ابن المعتز : فصول التماثيل ص ٦١ .
(١٠) سليم حسن : أدب الفراعنة جـ ١ ص ٢١ .

ويقول آدم متز « وكان القدماء يفضلون الشراب فى الليل ، أو عند طلوع الفجر الأول . . . على أنه فى عصر ابن المعتز نفسه بدأ الناس ينصرفون عن الشراب فى هذا الوقت الغريب . وابن المعتز يصفه أحيانا بعدم الملاءمة »(١) . وما ذكره آدم متز صحيح ؛ فلا بن المعتز أرجوزة يذم فيها الصبوح(٢) . ولكن تميما كان ممن يؤثرون الصبوح ، بل لقد عارض الشريف العقيلى أرجوزة ابن المعتز بأرجوزة له(٣) . أما الشرب فى يوم الدجن فتقليد جرى عليه الشعراء ، وذكروه فى شعرهم ، وكذلك أوهام السكر ، وخدر الخمر(٤) ، والجمع بين لذة الخمر والجنس ، وها هو ابن المعتز **يقـول** :

شربت وفى يدى قدح فأكثر نقلنـــا القُبَـــلُ(٥)

فالشاعر العباسى يتنقَّل بالقبل على الشراب كتميم . والعكوف على الخمر اغتناما للذة أو فرارا من الهم منحى إنسانى عبر عنه شعراء العرب وغيرهم(٦) .

تميم وأبو نواس : أبو نواس هو أمير الشعر الخمرى فى الأدب العربى . وقد تأثر به هذا الفن تأثرا قويا ، وقلده فيه كثير من الشعراء . وتتمثل آثاره فى تميم فيما يلى :

أولا ــ استعار تميم كثيرا من معانيه . وزعم أبو الفرج فى الفصل الذى عقده على الوليد بن يزيد أن معانى أبى نواس مسروقة من الوليد بن يزيد(٧) . ومن المسائل المعروفة أن كثيرا من الخمريات فى ديوان أبى نواس ليست له ، وإنما أضافها إليه الرواة(٨) . وسرقة أبى نواس المذكورة ، واختلاط شعره بأشعار غيره يجعلان الحديث

---

(١) ادم متز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٤٢٨ .

(٢) انظر ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ١١٠ ، أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٥١ .

(٣) ديوان الشريف العقيلى ص ٣٠١ .

(٤) أنظر الباب العاشر من كتاب الكامل للمبرد .

(٥) ابن المعتز : فصول التماثيل ص ٨٥ .

(٦) أنظر تطور الخمريات لجميل سعيد ص ٢٤٧ ، وشعر الرعاة ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة ص ٥٠ ، ورباعيات الخيام .

(٧) أبو الفرج : الأغانى جـ ٧ ص ٢٠ .

(٨) أنظر مقدمة ديوان أبى نواس (رواية حمزة بن الحسن الأصفهانى) .

عن المعانى التى أخذها تميم من أبى نواس يبدو واهى الأساس . ولكن العجيب أن ابن المعتز فى « فصول التماثيل » كثير الاستشهاد بشعر أبى نواس . وكان ابن المعتز أسبق من أبى الفرج ، وكان شعر الوليد بين يديه ، فلو كان الشاعر العباسى كما صوره أبو الفرج لما أجله ابن المعتز ذلك الإجلال ، ولما اعتمد على شعره كما اعتمد . والظاهر أن أبا نواس كان يأخذ جزئيات من شعر الوليد وأبى الهندى وغيرهما ثم يدمجها فى خمرياته ، فتبدو قصائده كُلًّا متميزا ، تشع الجزئيات المستعارة فيه إشعاعات مخالفة لإشعاعاتها فى أصولها الأولى . ومن القواعد الذهبية فى علم النفس أن الجزء فى كلٍّ غيرُه فى كلٍّ آخر . ولا يمكن — مع ذلك — إهمال ما ساقه أبو الفرج ، وما وقع فى شعر أبى نواس من الاختلاط عند مناقشة أخذ تميم بعض معانيه . والأحوط أن نعرض للمعانى اللافتة مما اشترك فيه الاثنان .

قال تميم يتحدث عن قدم الخمر :

صفراء فى الكأس خلوقية مخلوقة من قبل خلق الزمان(١)

يريد أن خمره كانت قبل كَوْن الزمان . وكان الزمان لما تحركت الأفلاك . ويعبر أبو نواس عن هذا المعنى تعبيرا ألصق بالفلسفة فيقول :

تخيرت والنجوم وقف لم يتمكن بها المدار(٢)

وفى شعر تميم أن الخمر استحالت روحا خالصة ، وأنها لا تدركها العين . ويعبر أبو نواس عن هذا المعنى بقوله :

جاءت بخاتمها من عند خمارِ روح من الكرم فى جسم من القار(٣)

وبقوله :

دقَّ معنى الخمر حتى هو فى رجم الظنونِ
كلما حاولها النا ظرُ من طرف الجفون

---

(١) ديوان تميم ص ٤٣٩ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ٧٣ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٤٧ .

رجـــع الطـــرف حسيرا عن خيـــال الزَّرَجـــونِ(١)
لم تقـم فى الوهـم إلا كذَّبتْ عين اليقيـــنِ
فمتـــى ندرك مالا يُتَحـــرَّى بالعيـــون !(٢)

وحدثنا تميم عن الخمر التى أنضجها الزمن ، ولم تعذّبها النار ، وهذا حديث أبى نواس :

لما أتونى بكأس من شرابهمُ يدعى الطلاء صليبا غير خوَّارِ
أظهرت نسكا وقلت : الخمر أشربها ! والله يعلم أن الخمر إضمارى
آلى زعيمهم بالنار قد طبخت يريـد مدحتها بالشين والعـار
فقلت : من ذا الذى بالنار عذَّبها لا خفف الله عنه كربة النار !(٣)

تصور هذه القطعة أبا نواس وقد وفد على قوم ، فقدموا له كأسا من الخمر الرديئة . فتظاهر بالتدين ، واستنكر أن يشرب الخمر . ولكى يزين زعيم القوم الخمر لأبى نواس أقسم أنها مطهوة بالنار . فأشفق أبو نواس على الخمر ، وفضح نفسه بالدعاء على من عذبها ألا يخفف الله عنه عذاب النار !

وإذا كانت الخمرة مضيئة قبل أبى نواس فإن صفوها فى شعره لا مثيل له . وهو لا يكتفى بتشبيهها بالسراج والمصباح والقمر والشمس والنجوم ، وإنما يغلو حتى يقول :

فعلت فى البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح فى الظُّلم
فاهتـدى سارى الظـلام بها كاهتـداء السَّفْـر بالعلـم(٤)

وحتى تنسب إليه هذه الأبيات :

وسيارة ضلت عن القصد بعد ما ترادفـم أفق من الليل مظلمُ
فأصغوا إلى صوت ونحن عصابة وفينا فتى من سكره يترنم

---

(١) كلمة الزرجون معناها الخمر كما فى هامش ديوان أبى نواس .
(٢) المصدر السابق ص ٦٨٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٤١ .

فلاحتْ لهم منا على النأى قهوة كأن سناها ضوء نار تَضَرَّمُ
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم وإن مزجت حَثّوا الركاب ويمموا(١)

وسقاة تميم ونداماه أمثال سقاة أبى نواس ونداماه . وسبق أن رأينا شاعرنا يشرب وحده أحيانا لعدم ظفره بالنديم الملائم ، وتلك عادة أبى نواس ؛ يروى له كشاجم هذين البيتين :

خلـوت بالـراح أنـاجيها آخـذ منـه وأعـاطيها
نادمتها إذ لم أجـد مسعـدا أرضاه أن يشركنـى فيها(٢)

ويعلق المؤلف على البيتين بأن أبا نواس ينفرد مضطرا(٣) .

وتجاسر تميم ففضح نفسه بدعواه أنه ينتهز سكر الحبيب العصى فينال منه ما يريد . وهذه خدعة أبى نواس التى طالما جاهر بها(٤) .

ثانيا — استعار تميم من أبى نواس بعض التقاليد التى اشتهر بها . ومما استعاره منه الهجوم على بكاء الديار والسخرية من ماضى العرب . وكان أبو نواس — إذ يفعل ذلك — مدفوعا بالعصبية . واستظرف الشعراء بعده اتجاهه هذا فقلده بعضهم كابن المعتز وابن وكيع(٥) . وقال تميم مرة بعد أن سرد وقائع الشرب :

فهـذه وقائـع الأخبـار لا وقعـة الحشاك والثرثـار(٦)

فهو يسخر فى شعره الخمرى من أيام العرب كما سخر منهم أبو نواس وابن المعتز وابن وكيع . ولكن تميما وابن المعتز وابن وكيع حينما كانوا يقلدون أبا نواس كان تقليدهم تظرفا لا سياسة .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) كشاجم : أدب النديم ص ٦ أنظر ديوان أبى نواس ص ١١٤ .
(٣) كشاجم : أدب النديم ص ٧ .
(٤) ديوان أبى نواس ص ١٢٤ ، ١٩١ ، ٦٧٤ .
(٥) ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ٤٩ وديوان ابن وكيع ص ٦٠ .
(٦) ديوان تميم ص ١٧٨ .

وتقليد ثان تابع فيه تميم أبا نواس هو تضمين الأغنية . فإن أبا نواس لم يكن يكتفى بذكر الغناء ، فكان يضمن شعره الأغنيات . ويقف أحد الدارسين عند هذه التضمينات فيقول : « وسابقو أبى نواس فى وصف الخمر لا يغفلون الغناء فيه وكونه عنصرا لازما من عناصره . ولكن أبا نواس لا يكتفى بذلك ، وإنما يضمّن الشعر الأغنية نفسها ، وذلك كثير جدا فى شعره »[١] .

والواقع أن أبا نواس مسبوق فى ذلك وليس سابقا ، ففى « الوساطة » تضمينة للأقيشر الأسدى فى شعر خمرى له[٢] ، والأقيشر من شعراء القرن الأول . وثمة تضمينات أخرى فى غير شعر الخمر سابق لأبى نواس[٣] . بل إن هذا اللون من التضمين موجود فى غير الخمريات فى ديوان أبى نواس[٤] وإن لم يشر المؤلف إليه . ولكننا نجد فى ديوان أبى نواس أكثر من خمسين تضمينة غنائية ، وهذا قد ينبىء بأن أحدا من سابقى أبى نواس لم يكثر من التضمين كما أكثر أو يتفنن كما تفنن . وقد نظم الشعراء أشعارا فى الخمر ، وأشاروا فيها إلى الغناء كما قلنا ، ولكن الكثيرين منهم لم يضمنّوا أشعارهم الأغنيات . ومن قطع تميم التى ضمنها الأغنية قوله :

دع مقال العاذلات ... واله عن سعى الساةِ
واشرب الراح وشُبها ... بالثنايا العطرات
وانتقل إنْ شئتَ تفّا ... ح رياض الوجنات
أنا ما بين ندامى ... يَ وراحى وسقاق
ثمل لا أعرف الصحـ ... ـو ولا وقت الصلاةِ
وإذا نومّنى السكـ ... ـر على تلك الهيات
لم ينبهنى سوى حـ ... ـس مثانى الغانيات
وغناهن سحيرا ... (سقنيها بحياق)[٥]

---

(١) الدكتور محمد نجيب البهبيتى : تاريخ الشعر العربى ص ٤٤٣ .
(٢) عبد العزيز الجرجانى : الوساطة ص ١٥٥ . ويشك الجرجانى فى نسبة النص الى أبى نواس .
(٣) أنظر تضمينات لبشار فى الأغانى لأبى الفرج جـ ٣ ص ٣٢ — ٣٣ .
(٤) ديوان أبى نواس ص ٤٠٦ (رواية أبى الحسن الأصفهانى)
(٥) ديوان تميم ص ٨٤ .

وقد ضمن تميم الأغنية فى أكثر من موضع[١] .

وقد يعترض معترض فيقول : إن التضمين معروف فى الشعر العربى ، فما لنا نقف عنده فى شعر تميم ؟ والجواب أن التضمينة الغنائية تخالف غيرها من التضمينات فى أنها تزف إلى القارىء فى جو مرح ، تعزف فيه الموسيقى ، ويصدح الغناء ؛ وتخالفها فى أشياء أخرى . وهى عندى ذات علاقة بالخرجات التى عرفها الموشح والزجل فى الأندلس .

ثالثا ــ استعار تميم من أبى نواس أسلوب الحكاية الخمرية . ففى خمريات أبى نواس عدد من الحكايات الطريفة الدائرة حول الشرب . وما أصوب هذه العبارة الموجزة التى جمعت ثلاثة من أصحاب الحكاية الخمرية : « وجاء (الأعشى) بالقصص الخمرى الذى لا نراه عند غيره من الشعراء الجاهليين ، بل إننا حين نقرؤه نتوهم أننا نقرأ شعر أبى نواس أو شعر تميم بن المعز[٢] » . ولم يذكر المؤلف شاعرنا قط غير هذه المرة ، وإشارته هذه رائعة مع ذلك ، ثم ذهب يتحدث عن القصص الخمرية فى شعر الأعشى ؛ وظن فى موضع آخر أن قصص الأعشى قريبة من قصص أبى نواس ، وإن افترقا فى أن قصص الشاعر الجاهلى تأتى تابعة ، فى حين أن قصص أبى نواس تكون مستقلة ، وأجود حبكة ، وفيها ذكر الفسق والغناء[٣] . وإذا ذهبنا نقرأ ما وصلنا من شعر الخمر بعد أبى نواس وجدنا الشعراء يسعون إلى الخمارات ، ويحادثون الخمارين . وأظن أننا لن نجد أقرب إلى أبى نواس فى حكاية الخمر من تميم فى بعض المواضع من ديوان الشاعر المصرى . قال ابن المعتز :

لبسنا إلى الخمار والنجم غائر غلالة ليل طرزت بصباح
وظلّت تدير الراح أيدى جآذر عِتَاقِ دنانيرِ الوجوهِ ملاح[٤]

وفى البيتين ذكر للسعى إلى الخمارة فى آخر الليل ، والإشارة إلى جمال من يسقى . ويمتاز شعر ابن المعتز بالميل إلى الإيجاز فى الجانب الخمرى منه وغيره من

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ ، ٩٨ ، ١٥٢ .
(٢) الدكتور جميل سعيد : تطور الخمريات ص ٦٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣١ .
(٤) ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ٣٦ .

الجوانب . ولا صحة لما قاله أحد دراسيه إنه يقصُّ فى غزله[١] ، فالشاعر لايميل إلى السرد . فإذا انصرفنا عن ابن المعتز ونشدنا الحكاية الخمرية عند غيره ألفيناها عند الشريف للعقيلى وهو شاعر مصرى . وليس الشريف موجزا فى حكايته ، ولكنه لا يشبه فيها أبا نواس كما يشبهه تميم ؛ لأن الشريف يهتم بالوصف لذاته وبالعبارة أكثر من اهتمامه بالسرد ، فتفتر حكايته[٢] . ولنقرأ الآن هذه الحكاية لأبى نواس :

وأحـور ذمـىٍّ طرقتُ فنـاءه ... بفتيان صدق ما ترى منهم نكرا
فلما قرعنا بابه هبَّ خائفا ... وبادر نحو الباب ممتلئا ذعرا
وقال : من الطراق ليلا فناءنا ؟ ... فقلت له : افتح ، فتية طلبوا خمرا
فأطلـق عن أبوابـه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمرا بدرا
ومر أمام القوم يسحب ذيله ... يجاذب منه الردفُ فى مشيه الخِصرا
فقلت له : ما الإسم حُبِّيت ؟ قال لى : ... دعانى أبى سابا ولقّبنى شمْرا
فكدنا جميعا من حلاوة لفظه ... نُجَنُّ ، ولم نسطع لمنطقه صبرا
فقلت له : جئناك نبتاع قهوة ... معتقة قد أنفدت قِدماً دهرا
فقال : اربعوا عندى التى تطلبونها ... قد احتجبت فى خدرها حِججاً عشرا
فقلت : فماذا مهرها ؟ قال : مهرها ... إليك ، فسقنا نحوه خمسة صفرا
فقلت له : خذها وهات نُعَاطِها ... فقام إليها قد تملّى بنا بشرا
فشك بإشفاء له بطن مُسْنَدٍ ... فسألت تحاكى فىَ تلألؤها البدرا
وجاء بها والليل ملتِ سدوله ... مُدلا بأن وافى محيطاً بها خُبْرا
ربيبة خِدر راضها الخدر أعصُراً ... فكانت له قلبا وكان لها صدرا
إذا أخذتْها الكأس كادت بريحها ... تخالُ بها عطرا وما إن ترى عطرا
وما زال يسقينا ويشرب دائبا ... إلى أن تغنّى حين مَالت به سكرا :
(فما ظبية ترعى مساقط روضة ... كسا الواكف الغادى لها ورقا خضرا
بأحسن منها منظرا زان مخبرا ... بل الظبى منها شابه الجيد والنحرا)
فيا حسنه لحنا بدا من لسانه ... ويا حسنه لحظا ويا حسنه ثغرا
ونام وما يدرى أأرضٌ وسادةُ ... توسد سكرا أم وسادا رأى جهرا
فقمنا إليه حين نام وأرعِدتْ ... فرائصه تجرى بميدانـه ضمـرا
فلما رأى ان ليس من ذاك مَخْلَصٌ ... . [٣]

(١) عبد العزيز سيد الأهل : عبدالله بن المعتز ص ٧٣ .
(٢) أنظر ديوان الشريف العقيلى ص ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٦ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ١٢٤ .

وتتفق هذه الرائية مع بائية الشاعر المصرى فى أمرين :

الأول المهارة فى الحكاية . فشاعرنا المصرى تميم أمهر من الشريف العقيلى ؛ لاهتمام الشريف بغير السرد ، فى حين أن تميما وأبا نواس يهتمان بالسرد . والظاهرة الغريبة أن شاعرنا يميل فى شعره عموما إلى الأسلوب غير المباشر المتمثل فى القَصّ والحوار الخالص وإنطاق الجماد . وسنرى هذه الظاهرة فيما بعد .

الأمر الثانى أن أبا نواس وتميما يذكران ما جرى من الفسوق بوقاحة .

ولتميم قصيدة هائية تشبه البائية[١] ، حكى فيها سعيه إلى الشرب وتماجن . وقد حكى سعيه إلى الخمر فى غير الموضعين المذكورين[٢] ، ولكنه أقرب ما يكون إلى أبى نواس فى البائية والهائية . ولا ندع هذه النقطة دون الإشارة إلى أن لأبى نواس حكايات خمرية لا يعقد حبكتها ، أو لا يخلع فيها العذار ، وهو فى تلك الحكايات يشبه الأعشى والشريف العقيلى ، وتميما فى غير قصيدتيه السالفتى الذكر ؛ ولكنه فى أمثال رائيته التى رأيناها أستاذ تميم فى قصيدتيه ، وأشبه الناس به .

رابعا ــ عارض تميم بعض شعر أبى نواس . قال أبو نواس :

اتــــرك التـــقصير فى الشر ب ، وخذهـــــــا بنشاط
من كمـــيت كسنـــا البر ق أضاءت فى البواطـــــى
هل[٣] ــ وعفـــو الله مبـــذو ل غدا عنـــــد الصراط ــ
خلـــــق الغفـــــران إلا لامرىء فى النـــاس خاطـــى؟[٤]

وقال تميم فى عيد الغطاس :

خَلِّ من يأتـــــمُّ بالصا بان يغـــدو فى اختـــلاط
واغـــد للصهبـــاء نُسقـــا ها ونَسقِـــــى ونعاطـــى

---

(١) ديوان تميم ص ٢٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ .
(٣) استبدلت كلمة « هل » بكلمة « لم » فى النص الأصلى .
(٤) ديوان أبى نواس ص ١٨١ .

غطسوا فى الماء جهـــــلا وغطسنـــــا فى البواطـــى
وشربناهـــــا عقـــــارا خنـــــــــدريسا بنشاط[١]

وتتفق هاتان المقطوعتان فى القافية والوزن والعدد ، وفى الابتداء بفعلىْ أمر معناهما واحد ، وفى لفظى قافيتين . وتدل هذه الاتفاقات على نية المعارضة .

وفى ديوان أبى نواس هذه القطعة :

ما استكمل اللذات إلا فتى يشرب والُمـــرْدُ نداماـــــاهُ
هذا يُغذِّيـــه وهـــذا إذا ناولـــه القهـــوة حيـــاه
وكلمـا اشتـاق إلى قبلـة من واحـد ألثمـــه فاه
سقْياً لدهر كنت فيـه لهم معـاشرا ، ما كان أحـــلاه
نشربها صرفـا ولم نقتـــرع وشرطنـــا من نام نلنـــاه[٢]

ولهذه القطعة آثار على هائية تميم المماثلة للبائية ؛ فقد جعل أول الأبيات الخمسة السابقة أغنية يغنيها ساقيه[٣] . وفى الهائية التى لتميم هذا البيت :

إذا سقـــى ندمانـــه كأسه ألثمـــــه فاه وغنـــــاه

وقبيل ختامها هذان البيتان :

سَقْيـاً وَرَعْيـاً لزمـان مضى به مَعَـــدٌ فعدمنـــــاهُ
ما كان أبهى حسن أيامه فينـــا ، وأحـــلاه وأهنـــاهُ

وفى أبيات تميم الثلاثة المذكورة أجزاء من مقطوعة أبى نواس ؛ فالكلام : « ألثمه فاه ... سقيا ... ماكان ... أحلاه » كلام مشترك . وغير بعيد أن تكون أبيات أبى نواس الخمسة حطام قصيدة عارضها تميم .

تميم وشعراء آخرون : كان لشعر الشعراء المخمرين الذين عاشوا فى قرن تميم أثر فيه . فيجد القارى فى ديوانه :

---

(١) ديوان تميم ص ٢٥٨ .
(٢) ديوان أبى نواس ص ٢٢١ .
(٣) هامش ديوان تميم ص ٢٣ .

إذا هب سلطان المريسى نافحا سحيرا ، وحل القُرُّ كل نقاب
وزَرَّ على الأفق الغمام ثيابه فقم فالقه فى عدة وحراب
بكن وكانون وكأس مدامة وكيس و ... وافر وكباب
وكل كساء أدكن ومضرج كما ضرج الخدين ماء شباب
جمعت لك الكافاتِ سبعا ولم تكن بمجموعة قبلى لرب كتاب[١]

فيعجب للكافات السبعة التى يفتخر بها الشاعر . إن لهذه الكافات قصة فى الأدب العربى ؛ ففى القرن الذى عاش فيه تميم نظم ابن سكرة هذين البيتين :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كيس وكن وكانون وكأس طلا مع الكباب و ... ناعم وكسا

واشتهر هذان البيتان ، واقترنت كافات البيت الثانى باسم ابن سكرة ؛ فأشار إليهما ابن خلكان[٢] ، وتحدث ابن تغرى بردى عن الشعراء الذين جاروهما[٣] ، وها نحن نجد تميما فى قرن ابن سكرة يسلك فى قطعته الكلمات السبع ذوات الكافات ، ثم يزعم أنه لم يجتمع لأحد قبله هذا العدد من الكلمات الكافية المبدأ . وزعمه لا يستقيم إلا بأحد أمرين :

الأمر الأول : أن يكون تميم سابقا وابن سكرة لاحقا . ولكن شهرة ابن سكرة بالكافات تعترض هذا الاحتمال .

الأمر الثانى : أن يكون تميم غير صادق فيما قال .

ونجد فى ديوان تميم قصائد أخرى تتحدث عن الخمر ، عارض فيها أصحابه ، كتلك التى رد بها على الشاعر أبى الحسن على بن الحسين القيروانى[٤] .

---

(١) ديوان تميم ص ٥١ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦٧٧ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٥٨ .
(٤) ديوان تميم ص ٤٣٨ .

الفصل الثانى

الغـــزل

كان تميم بن المعز لدين الله من الشعراء الذين لديهم الاستعداد للخوض فى الغزل ، بل كان من الشعراء الغزلين . وقد أعانته مكانته الاجتماعية ، وحالة مجتمعه وحالته النفسية على التبريز فى فن الغزل ؛ فقد كان أميرا حيل بينه وبين الملك فواجه الفراغ ، ووجد الكثير من الجوارى والغلمان فى قصره ، فاندفع فى ميدان الهوى يروى شبابه الثائر ، ويتعزى عما أصابه . وعرف فى ذلك الميدان كيف يكون الحب ، وكيف تكون المتعة ؛ فطفق يحدثنا عن العواطف والمواقف ، ويصور لنا ضروب المتاع الجنسى .

وغزل تميم من أكبر فنون شعره . وهو إما قطع مستقلةوإماقطع لاحقة بغيرها كالمدائح . وليست القطع اللاحقة بالمدح نسيبا فاترا ، بل هى شعر يحس القارىء جماله ، ويلمس حيويته ؛ فهى ليست مقدمات يجرى فيها الشاعر على سنن المادحين ، وإنما هى أجزاء يقتطعها الشاعر لنفسه ، يتغنى فيها بأهوائه . أما القطع المستقلة فهى معرض طرافة .

وليس لتميم محبوب واحد يتغزل فيه كقيس بن الملوح أو جميل بثينة ، أو العباس بن الأحنف ؛ وليس له جماعة أحباب يبرز من بينها محبوب ، كما برزت جنان فى شعر أبى نواس ، وكما برزت شر فى شعر ابن المعتز ؛ بل ليس له محبوب واحد نعرف عنه أى شىء . وفى ديوانه ذكر لعدد من الأعلام كسحر وليلى وهند وأسماء ، ولكن هذه الأعلام تقليدية إلا سحر التى لا نعرف عنها شيئا يتصل به[١] . فلم يتغزل إذن فى فرد أو أفراد معلومين ، ولكنه تغزل فى الجنسين ، أحرارا وأرقاء ، بل لقد تعزل مرة فى الفلاحات المصريات حين رآهن يصنعن الجبن[٢] !

---

(١) ديوان تميم ص ٣٢٨ ، ١٣٤ ، ١٠٣ ، ٣٦١ تباعا .

(٢) المصدر السابق ص ٤٢١ .

ويحب تميم من صفات المرأة الرقة البالغة التى لا تكاد تحتمل معها شيئا ، والنجل والحور وفتور الطرف ، والجيَد ، وبروز الصدر ، والهيف ، وامتلاء العجز والساقين ، وصغر القدمين[١] . ويحب سواد الشعر ، وبياض البشرة ، وتورد الخد ، وبياض الأسنان . ويحب من الزينة الكحل والخضاب والعطر ، والقرط والخلخال . وتتفرق كل هذه الأشياء المحبوبة فى شعره ، ويجتمع منها قدر صالح فى مطلع نونيته التى عارضها داعى الدعاة ، وهو :

أسرب مها عنَّ أم سرب جنّه ... حكيتُنَّهُنَّ ولسنَّ هُنَّهْ
أأنتن أنجم ذا الجو أم ... بروج النجوم جلابيبكنه
فضحتن بالكحل أُدم الظباء ... وعُبتُّهنَّ بأجيادكنه
ألستنَّ كنتنّ قُلْتُنَّ لى ... بألّا تُحَوِّلْن عن عهدكنهْ؟
ولم أر غيدا سواكنَّ مسن ... فأشبهْنَ فى لينهنَّ الأعنَّهْ
غصون تقسمن شمسَ الضحا ... وكثبانَ خبت وصَبْغَ الدُّجُنَّهْ
حملن محاجرِ عين المها ... وأبدين ألحاظ أطلائهنهْ
فَيامَا أُعَيْذب ألفاظهن ! ... رياما أُمَيْلح الحاظهنهْ !
إذا رمن ظلما فسلطانهن ... علينا ملاحة أحداقهنه
برزن لنا عاطرات الجيوب ... بسفح الكثيب بوادى بوَنَّهْ
فعطرن من طيبهن النسيم ... وأبدين من لوعتى المستكنهْ
ولما سفرن صَبَغْن الضحا ... بماء الخدود وتوريدهنهْ[٢]

وقد يتغزل الشاعر فى المرأة الصفراء ، كما فى قوله :

رأيت فى البستان إنسانة ... صفراء للألباب خلابه
كأنها لما بدت ظبية ... من الظباء العُفْر مرتابه
أذهب ماء الحسن تفضيضَها ... فجود الخالقُ إذهابه
ياحسنَها تومى بنيلوفر ... قد ركبته فوق عُنَّابَه

---

(١) ذكرت القدم الصغيرة ص ٤٤٨ من المصدر السابق

(٢) ديوان تميم ص ٤٤٠ .

تشمـــه طورا وأرواحهـــا على ريـاح النـور غلّابـــه
فقـــلت : نيلوفـــرة هذه أم بفـــؤادى أنت لعابـــه !(١)

وفى الديوان غزل بمحبوب أسود ، وهويته غير واضحة(٢) . فإذا كان أنثى فإن تميما يكون قد تغزل فى البشرة البيضاء والصفراء والسوداء للإناث .

وتغزل تميم فى المرأة الغلامية ، فقال فى الساقية :

قامت كما قام قضيب بانِ ظاهـرة المنديـلِ والخُفْتـانِ
شاطـرة ساحـرة اللسان ترفـعت عن شبـه النسوانِ
وعـن خضاب الكـف والبنـان واعتقـلت عوالـىَ المـرّانِ(٣)

وكان تميم يحب الذكور أيضا . وقد دفع ثَمن هذا اللون من الحب غاليا . ويخلع على الذكر الذى يتغزل فيه كثيرا من صفات الأناث ولا سيما الهيف وكبر العجز ؛ ويزيد عليها التغنى بالعذار الذى يطلع فى وجوه الذكور . وربما تغزل فى الذكر الأسود(٤) . وثمة احتمال أن يكون بعض محبوبيه الذكور صفرا(٥) . وهذا مثل صالح للنمط الذى يحبه من الذكور :

الآن قد الفـــؤاد نصفيـــن فيـه وأجرى الدموع نوعيـــن
لما انحنت نون صدغه فرمى عن قوسها ، واتقـى بعيـنين
وانتصبت نصف صاد شاربـه وخَـطَّ من عارضيـه لاميـن
ومـد صدغيـه فى بياضهمـا ليـلين صُبَّـا على نهاريـــن
ورد رأسَ العـذار منحرفـــاً عن لدغ جفـنين بابلييـــن
ضرج خديـه ، ثم جرد عن غُنْـج ضنى مقلتيـه سيفيـن
فآه للمدنـــف المعـــذب من هذين حسنا ، وآه من ذين

---

(١) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠١ .
(٣) المصدر السابق ص ٤١٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٢٥ .
(٥) المصدر السابق ص ٢١٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٤٤٨ .

يحمل دعصين من روادفه ... قوامه فى ذبول خصرين !
لامُ عذار فما أُمِيلحَهُ ! ... أخاف عينى عليه من عينى
ياصارمىْ لحظه فديتكما ... لاتسلمانى إلى العذارين
ويا عذاريه ماأحَيْسن ما ... برزتما فيه لىَ بعذرين
كأن خديه فى سوادكما ... صبحان قد طرزا بليلين
أعادَ شمس النهار شمسين ... به وبدر الظلام بدرين
أرق جلدا إذا تأمَّلُ من ... شكوى بدت بين سفك دمعين[1]

واعتاد تميم أن يقرن الشعر بالحرز الأسود ، والصدغ بالعقرب أو الصولجان ، والوجه بالشمس أو القمر ، والوجنة بالتفاح ، والعيون بعيون المها ، والأسنان بالدر ، والريق بالعسل أو الخمر ، والنهود بالرمان ، والخصر بخصر الزنبور ، والكفل بالكثيب ، والبنان بالعناب أو العنم أحيانا . ويكثر الشاعر الزعم أن حمرة خد الحبيب أو بنانه من دمه المسفوك فى ساحة الحب[2] ، ويكثر تشبيه الحبيب جملة بالغزال أو الظبى ، والقد بالقضيب .

وفى ديوان تميم معانى الحب الكبيرة : الاتصال بالحبيب بالرسول أو الكتاب أو الغمز بالعين أو المحادثة أو الوصال ؛ وما يعرض فى الحب من المساعد أو الرقيب أو العاذل أو الواشى ؛ وما يكون بين الحبيبين من الصفاء أو الوفاء أو الغدر أو الهجر أو السلو أو البين ؛ تلك المعانى التى دار عليها « طوق الحمامة » . ومكان البين فى غزل تميم بارز ، ويتمثل فى الحديث عن الفراق والتوديع . ومزد هذه الظاهرة إلى تعدد رحيل تميم عن مصر .

وللشاعر لهجات متعددة فى غزله تتراوح بين السمو و لانحطاط . ففى ديوانه لهجة العذريين :

أحيٌّ وقد حثوا الركائب والركبا ... كأنك لست الهائم المدنف الصبا
ستعلم إن بانوا وخُلِّفت بعدهم ... بأنك ممن يفقد العقل واللبا
وأفضل ما فى مذهب الحفظ والهوى ... مماتك بالهجران من بعدهم حبا[3]

(١) ديوان تميم ص ٤٠٨ .
(٢) أنظر ديوان تميم ص ٣٩ ، ٥٩ ، ١٣١ ، ٣٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٤٠٤ ، ٤٤٨ .
(٣) ديوان تميم ص ٥٠ .

وفى الديوان لهجة ثانية شريفة :

إن تكن قد سلوت يانور عينى ... وتنـــاءيت فالمزار بعيـــد
ففـؤادى كما عهـدت عميـد ... وجفـــونى بدمعهـــن تجود[1]

وثمة لهجة مرحة كقوله :

الحمـــد لله شكـــرا ... هذا الـــذى أتمنـــى
قبـــلت من كنت صبـــا ... به كئيبـــا معنـــى
فكـــدت أفنيـــه بالضـ ... ـم والعنـــاق وأفنـــى
جنـــيت باللثم منـــه ... ما كان باللحـــظ يجنـــى
قل للعـــذول على ما ... حقـــى به أن أهنـــا :
لا نلتَ ما كان منـــه ... يوم الـــوصال ومنـــا ![2]

وعند تميم لهجة رابعة ، وهى تتمثل خير تمثل فى ذكره غير اللائق للمقدسات . اسمعه يقول :

أيها الدعص والقضيب الذى قا ... بل بدر الدجى ببـــدر منير
لا تمكن لحاظ عينيك من قتـ ... ـلى فما اللحظ فيه بالمعذور
لا تكن للنبى فيه خصيما ... عند رب النبى يوم النشور ![3]

ومثل هذا التعرض للمقدسات متكرر فى الديوان[4] .

وعند تميم لهجة خامسة خليعة جدا ، انحط فيها إلى الحضيض[5] .

فإذا نظرنا إلى ما يستعمل تميم من الأساليب فى غزله وجدنا أسلوبين :

الأسلوب الأول الأسلوب المباشر ، وهو أن يتحدث عن العواطف والمواقف بأسلوبه هو ، وأن يدع الحوار والإنطاق والقصص . ومن أمثلته آخر نص رأيناه .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٨٠ ، ٣٠٨ ، ٤٤٩ .
(٥) أنظر المصدر السابق ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٦ ، ٢٨٣ ، ٣٢١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٩ ، ٤٠٥ ، ٤٢٥ .

والأسلوب الثانى غير المباشر ، وهو متعدد الصور . ونعرض لصورة بالتفصيل لأنها طريفة . وأولى الصور الحكاية ؛ إذ يحكى لنا تميم أحيانا حكاية سعيه إلى محبوبته فيقول :

وليلـــــــةٍ أسريتُ فيها ولا ... بدر ينير الأرض إلاسرار
كالمقلــة الدعجـــاء زنجيـــة ... كافـــــــرة لمَع نجوم المدار
وصاحبـــى ذو رونـــق صارم ... مدرَّج المتـــنين ماضى الغـــرار
أنحف من ضعف نسيم الصبا ... حدا وأمضى من ظبا الاحورار
حتى طرقت الحى من وائل ... والجو مكحول النواحى بقار
والقوم من سوْرة كأس الكرى ... كأنما عُلـــوا بصرف عقـــار
فبتُّ فى محبـــوك مجدولـــة ... صامتة الحجـــلين ملأى السوار
مرتشفـــا من برد أنيـــابها ... حلواً بَرُوَد الطل عذبَ القِطار
وهى من الخيفة لا تهتـدى ... لموضع الشكوى ولا الاعتذار
كأنها غصن نقـــا ناعـــم ... يميس من يمنى يدى لليسار
والذعر يستنبـــط من دمعهـــا ... درا أبت سلكاه إلا انتثـــار
كأنها تمسح رشحا من الـــ ... كافـــور بالعنَّـــاب من جلنـــار
حتى إذا رق قميص الدجى ... وابـــتسم الصبـــح وراء الإزار
قامت كئيبـــا غائـــرا لونها ... تستوقف الليل عن الإنفجـــار
فعـــاد ليـــلا ثانيـــا فرعهـــا ... أغْجَبْ بليل طالع من نهار
وحذرتنـــى من أذى قومهـــا ... حتىَ إذا لم يبدُ منى الحذار
بكت وفدتنـــى بآبائهـــا ... والشمِّ من معشرها والـــنضار
ثم ثنت كفـــى على خافـــق ... من قلبها مرتجف مستطـــار
كأنها ظبـــــى رأى قانصا ... بحيث لا ينجيه منه الفـــرار[1]

وتوجد حكايات أخرى غير هذه . وقد نرى المحبوب هو الساعى[2] . ومن الحكايات الغزلية تلك التى يحكى فيها تميم ما يقع منه ساعة السكر ، وهى الجانب الجنسى من شعره الخمرى .

---

(١) ديوان تميم ص ٢١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٩ .

وفى الديوان حكاية غزلية منصبة فى قالب موازنة هى :

فما أم خِشْف ظل يوما وليلة ... ببلقعةٍ بيداءَ ظمآن صاديا
تهيم فما تدرى إلى أين تنتهى ... مولهة حيرى تجوب الفيافيا
أضربها حر الهجير فلم تجد ... لغلتها من بارد الماء شافيا
فلما دنت من خشفها انعطفت له ... فألفته ملهوف الجوانح صاديا
بأوجَع منى يوم شدوا رحالهم ... ونادى منادى الحى ألا تلاقيا[1]

والصورة الثانية من صور الأسلوب غير المباشر هى صورة الحوار . ففى ديوان تميم عدد كبير من الحواريات الغزلية ، هذا مثال منها :

ما هجرت المدام والورد والبد ... ر بطوع لكن بصُغْرٍ وكره
منعتنى من الثلاثة من لو ... قتلتنى لم أحك والله من هى
قالت : الوردُ والمدامةُ واليد ... رُ رضا لى ولون خدّى ووجهى
قلت : بخلًا بكل شيء ؟ فقالت : ... لا ، ولكن بخلتُ لى وبشبهى
قلت : يالتنى شبيهك ! قالت : ... إنما يقتل المحب التشهى[2]

وعدد الحواريات فى الديوان أكثر من عشرين[3] .

ولم يكتف الشاعر بالصورتين المتقدمتين من الصور غير المباشرة ، فأضاف صورة ثالثة غير مباشرة ، هى صورة الإنطاق ؛ فأجرى على لسان الناطق وغير الناطق شعرا غزليا . من ذلك ما أمر أن يكتب على طرة جارية وعصابتها :

أنا من نور جوهر الأنوارِ ... خضعتْ لى فى الحسن شمس النهارِ
ليس للشمس مثل خدى وقدى ... وظُبا مقلتىّ والإحورار
من جمالى شُقَّ الجمالُ وصلِيـ ... ـن لوجهى بواهرُ الأقمار
صاغنى ذو العلا وحيدةَ حسن ... لوحيد الدنيا العزيز نزارِ[4]

---

(١) ديوان تميم ص ٤٦٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٥٣ .
(٣) أنظر المصدر السابق ص ٢٥ ، ٣٩ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٩٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٤٠٣ ، ٤٤٥ ، ٤٥٣ ، ٤٦١ . أنظر كذلك ص ٣٢٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٣٨ .

وفى الديوان قطعتان أخريان على لسان الجوارى[١] . وفيه على لسان الشقق قطع منها :

ثياب الدمى البيض الحسان كثيرة ... ولكننـــــى منهن أبهى وأجملُ
أَجَرُّ على بيض الجباه وأنثنى ... على الطرر المستحسنات وأسبل
وألثم محمـــــر الخدود بإذنها ... وألْوَى على اللبات طورا وأحمل
ولم تجفنى ــ مذ كنت ــ يوما مليحةٌ ... ولم تُرَ عنى ذات حسن تَنَقَّل[٢]

ولدى تميم أخر غير هذه[٣] . والشقق إذ تنطق تعبر عن شعور تميم . نعم إنها تصف نفسها بالدقة أو الرونق أحيانا ، ولكنها تتحدث حديث العاشق ؛ فتذكر أنها تلمس خدود الحسان وتلثمها ، ولا تبالى بالوشاة والرقباء ، وتصف جمال لابساتها ، وتذكر غيرتها عليهن من الطفيليين . وهذه خلاصة المعانى التى تلوكها الشقق فى خيال تميم ، وهى المعانى التى يلوكها هو أيضا .

ويشبه حديث الشقق بعض الشبه حديث الستائر. فكما انطق الشاعر الشقة أنطق الستارة مرات . ولكن الستارة لم تكن غزِلة إلا مرتين . قالت الستارة :

أصون أبشار خدود الدمـــــى ... وأمنـــع الغـــاوى من النظـــره
وظاهـرى فى العين مستحسن ... واسمىَ مشتق من الستـــــره[٤]

وقالت مرة أخرى :

أنا أظرف الحجاب شخصا وموقعا ... وأكتمهم سرا على المتكلمِ
وإن هم محبوب بوصل حبيبه ... وقيتهما من كل واش ومبرمِ[٥]

والستارة فى النص الأول تبدى الغيرة على الخدود ؛ فتخفيها عن الأعين ، وتصد نظرات المتطفل . وتذكر نفسها بالحسن ، وأن اسمها مأخوذ من الستر . وتميم الجنسى يقصد بالستر ستر ما لا يجمل أن يراه الناس فى الغالب . والستارة فى النص الثانى تتحدث عن ظرفها وكتمانها ، وحمايتها للحبيبين من الواشى والثقيل ، وكأنما تصورها الشاعر قوادة !

(١) المصدر السابق ص ١٢٤ ، ٣٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٢١ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣٢١ ، ٣٩٩ .
(٤) ديوان تميم ص ١٩١ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٩٦ .

غزل تميم والشعر العربى :

وصف تميم المحبوب بصفات كثيرة ، وهى صفات تقليدية جرى عليها الشعراء . بل إن الهيف ، وعظم العجائز صفتان نجدهما فى الشعر الفرعونى[١] ! وسبب إعجاب العرب وغيرهم بهاتين الصفتين الجماليتين سبب عضوى وظيفى ؛ فإن المرأة التى تتمتع بهاتين الصفتين أصلح للنسل من غيرها[٢]

أما العزل فى البشرة الذهبية فسنة معروفة ، أشار محققو الديوان إلى شيوعها ومثلوا لها ببيت لبشار[٣] . وهى غير صفرة المرض ، يصف بها أبو تمام المحبوب الذى أكسب محبه صفرة المرض فيقول :

صفراء صفرة صحة قد ركبت جثمانه فى ثوب سقم أصفر[٤]

والتعلق بالبشرة الذهبية فى الشعر العربى يرجع إلى أيام الملك الضليل[٥] .

ومحبوب تميم أحور العينين ، أسود الشعر دائما . وقد شبه النجوم بالأعين الزرق أكثر من مرة[٦] ، ولكنه لم يتغزل فى حبيب أزرق العينين أو أصفر الشعر ، مع أن التغزل فى زرقة العين موجود فى الشعر العربى قبل تميم ؛ نجده فى ديوان عمر بن أبى ربيعة[٧] ، ونجد دفاعا عن الأعين الزرق فى ديوان السرى الرفاء[٨] . والغزل فى صفرة الشعر موجود قبل تميم أيضا[٩] . وإذا نظرنا إلى الشعر المصرى ألفينا الشريف

---

(١) سليم حسن : أدب الفراعنة جـ ٢ ص ١٧٢ .
(٢) عباس محمود العقاد : عمر بن أبى ربيعة ص ـ٩٤ .
(٣) أنظر هامش ديوان تميم ص ٣٧٠ .
(٤) ديوان أبى تمام ص ٣٩٦ .
(٥) أنظر معلقة امرىء القيس ص ١٣١ .
(٦) ديوان تميم ص ٢٩٦ ، ٤٤٦ .
(٧) أنظر ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٥٧٢ .
(٨) ديوان السرى الرفاء ص ١٩٣ .
(٩) أنظر بيتين لعريب فى نهاية الأدب جـ ٥ ص ٩٦ .

العقيلى الذى عاش فى آخر حياة تميم أو بعيده يتغزل فى حبيب ذهبى الشعر[١] وإذا تقدمنا فى الزمن وجدنا العيون الضيقة موضوع غزل ابن النبيه[٢] وابن نباتة[٣] . وقد تغزل الأخير فى العيون الزرقاء أيضا[٤] ، ودافع الشاب الظريف عن الشعر الأصهب[٥] . ويتكلم ابن حزم الأندلسى من الأفق الغربى فيعلن بغضه للشعر الأسود بالشعر والنثر[٦] .

ويصف ابن خلكان العزيز فيقول : « وكان أسمر أصهب الشعر ، أعين أشهل العين »[٧] أى أن العزيز كان فى شعره صفرة[٨] ، وفى عينه زرقة . وإذا علمنا مدى اتصال الفاطميين بالروم ، وأن أم المعز أم ولد ، ودرزان أم العزيز وتميم أم ولد أيضا[٩] ، أمكننا أن نرجح أن الشاعر الذى لم يتغزل فى زرقة العين وصفرة الشعر كان هو نفسه أزرق العينين ، أصفر الشعر .

وأما ما يقرن به تميم أجزاء المحبوب فلا جدة فيه . وقد جمع الصاحب عناصر الكثير من تلك فى رسالة له ، وهذا يدل على سعة انتشارها ، وتجاوزها منطقة الشعر إلى منطقة النثر[١٠] . وقد تتراكم الصور البلاغية فى الشعر تراكما كما فى بيتى أبى نواس :

ياقمرا أبرزه مأتم ينـدب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدرمن نرجس ويلطم الورد بعناب[١١]

---

(١) أنظر ديوان الشريف العقيلى ص ٧٠ ، ١٥٦ ، ٢٢٩ .
(٢) ديوان ابن النبيه ص ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ٨٢ .
(٣) ديوان ابن نباته ص ٤ ، ٢٨ ، ٦٣ . .
(٤) المصدر السابق ص ٢٥٧ ، ٣٥٨ ، ٥٩٣ .
(٥) ديوان الشاب الظريف ص ٤٣ .
(٦) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٢٨ ، ٣٠ .
(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٠٠ .
(٨) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٦٣ .
(٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٨ .
(١٠) الثعالبى : اليتيمة جـ ٣ ص ٨٤ .
(١١) ديوان أبى نواس ص ٢٤٢ .

وقول الوأواء :

زار بليل على صباح على قضيب على كثيب[١]

ويمكن العثور على سائر صور تميم فى الشعر الذى قيل قبله .

ومعانى الحب الكبيرة عند تميم أشهر من أن نقف عندها كلها . وحسبنا أن نخص اثنين منها بالوقوف . قال تميم :

فديت من ألحاظه جذوة تذكى ومن ملثمه باردُ
لما تشكيت إليه الهوى والشوق نام والجوى زائد
أرسل فى تفاحة خده إلى كيلا يفطن الحاسد
فلونه فى لونها ظاهر وريقه فى ريقها جامد[٢]

« وكان لابد فى تهادى العشاق بالهدايا الصغيرة من مراعاة الذوق ... وفى كثير من الاحيان ترسل المحبوبة تفاحة عليها أثر عضة لها . يقول ابن العتز :

وآثار وصل فى هواك حفظتها تحيات ريحان وعضات تفاح
وكتْبٌ لطافٌ تربها المسك أدرجت على وصف أحزان وتعذيب أرواح

ويقول :

جاء الرسول مبشرا بزيارة من بعد طول تهجر وتعتب
وبكفه تفاحة قد مُسِّكَتْ آثار عضتها كقرف عقرب

وكان ذلك من عادات الرومان أيضا[٣] » . ويبدو أن ابن المعتز كان مغرما بالتفاح المعضوض ؛ فقد ذكره فى موضع ثالث غير الموضعين اللذين ذكرهما المؤلف[٤] . وذكره قبله أبو تمام فى قوله :

تفاحة جرحت بالدر من فيها أشهى إلى من الدنيا وما فيها
حمراء فى صفرة غُلَّتْ بغالية كأنها قطفت من خد مهديها
جاءتْ بها قينة من عند غانية نفسى من السقم والأحزان تفديها
لو كنت ميْتاً وناداتنى بنغمتها لكنت للشوق من لحدى أليبها[٥]

---

(١) ديوان الوأواء ص ٢٨ .
(٢) ديوان تميم ص ١١٤ .
(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٤٧ .
(٤) ديوان ابن المعتز جـ١ ص ٥٧ .
(٥) ديوان أبى تمام ص ٢٦٨ .

وقد أشار الجاحظ إلى استخدام التفاح المعضوض وغير المعضوض فى الحب[١] ، وتغنى به ابن الرومى وأبو نواس[٢] والبهاء زهير فيما بعد[٣] . بل إن استخدامه فى هذا المضمار أوسع نطاقا مما ذكر آدم متز ، فقد لهج به الشعراء فى العصر الفرعونى[٤] وشعراء عصر الإسكندرية[٥] .

وقال تميم :

ماذم يوم الفـــــراق إلا ... من غاب عن موقف الفراق
أولـــه أننـــا وقـــوف ... للثم والضم والعنـــــاق
لا نتقـــى فيـــه عين واش ... ولا نـدارى ذوى النفـــاق
إن هاج حر الـــوداع شوق ... فبالـــوداع اشتفـــى اشتيـــاق
لولا الفـــراق الـــذى دهانـــا ... والـــبين ما أمكـــن التـــلاق[٦]

يزعم الشاعر أنه لا يذم يوم الفراق إلا من يجهله . فمن ميزاته أنه وسيلة المحب للقاء حبيبه ، وحجته فى تقبيله واحتضانه ومعانقته ؛ فتنطفىء حرارة الشوق ، ويرغم أنف الواشى والمنافق . ويولع تميم بهذا المعنى فيكرره[٧] . ويعلق ابن حزم على هذا الموقف قائلا :« ... ولهذا تمنى بعض الشعراء البين ، ومدحوا يوم النوى ، وماذاك بحسن ولا بصواب ، ولا بالأصيل من الرأى ... »[٨] ويمضى المؤلف يهجّن هذا المعنى . وتهمنا إشارته إلى أنه معنى طرقه الشعراء . ونجد مصداق قوله فى بيت السرى الرفاء :

أذم يوم النـــوى وأحمدهـــا ... لوقفـــة تلتقـــى بها المقـــلُ[٩]

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٧٠ ، ٧١ . انظر نهاية الأرب جـ ١١ ص ١٦٢ — ١٦٨ .
(٢) ديوان ابن الرومى جـ ١ ص ١٢٢ ، وديوان أبى نواس ص ٦٩٥ .
(٣) ديوان البهاء زهير ص ١٨ ، ١٥٥ .
(٤) سليم حسن : أدب الفراعنة جـ ٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٥) شعر الرعاة ص ٧٢ ، ٧٧ ، ٨١ . شعر الاسكندرية ص ١٠٦ .
(٦) ديوان تميم ص ٣٠٠ .
(٧) المصدر السابق ص ١٢٨ ، ٣٠١ .
(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٨٩ .
(٩) ديوان السرى الرفاء ص ٢١٨ .

اما لهجات تميم الأربع فمألوفة فى الشعر العربى قبله ، تتبع أولاها مدرسة العذريين ، وهى مدرسة يبلغ شعرها الذروة فى النقاء ، ويصور ألوانا غريبة من الوفاء والشوق . وقد رأينا قطعة تميم التى يعجب فيها من حياته وقد ذهب الركب بمن يحب ؛ ويتوقع بعدهم الجنون ، ويرى أنه جدير بأن يموت من الهجران . وهذه لغة المجنون . بل إن بيت تميم :

ستعلم إن بانوا وخلفت بعدهم بأنك ممن يفقد العقل واللبا[1]

يشبه بيتا للمجنون ضمنه تميم نفسه قطعة له ، والبيت هو :

ستعلم إن شطت بهم غربة النوى وبانوا بليلى أن عقلك زائل[2]

وقد ذكر الناسخ ذلك .

وفى شعره ذى الطابع العذرى التفات متكرر إلى الطير ، وتأثر بنواحه ، قال مثلا :

أ إن ناح قُمْرِى بغصن بشامة وغـــرد فى أعلى الأراك حمامُ
أهاج لك التذكار شوقا كأنما له بين أحناء الضلوع ضرام !
خليلى ، هل بعد الفراق تواصل وهل بعد توديع الحبيب مقام ؟
دهتنى النوى حتى كأن أحبتى على القرب منى والدنو حرام
ومما استهام القلب وهو مصدع وأوهى جمان الدمع وهو سجام
مطوقة ورقاء تندب شجوها وتسهر فيه الليل وهو تمام
تنوح بلا دَمْع وللخرن آية على نوحها مشهورة وغـــرام
ألا ياحمام الأيك ، مالك والها كأنك ممن أسكرتـــــه مدام
كلانا محب صدع البين شمله وكل محب بالفـــــراق يضام
سلام على من حجبت شخصه النوى وإن كان لا يغنى المحب سلام[3]

---

(١) ديوان تميم ص ٥٠ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣١٤ .
(٣) ديوان تميم ص ٣٩٧ .

وتذكر الأبيات السابقة بقول الشاعر العذرى :

إن هتفت فى جنح ليل حمامة بكيت ولم يعذرك بالجهل عاذر[١]

ويقول المجنون :

ألا ياحمام الأيك مالك باكيا أفارقت إلفا أم جفاك حبيب[٢]

وأما لهجات تميم الباقية فلهجات مألوفة فى الشعر العربى .

وحكاية السعى إلى الحبيبة فى الليل معروفة ، نظمها امرؤ القيس ، واشتهر بها عمر بن أبى ربيعة ، وجاراه الشعراء فى القرون التالية . وكثيرا ما يستغلها ابن هانىء الأندلسى[٣] . وقد رأينا الحكايات الجنسية التى تنتظمها لحميريات تميم ، وعلمنا أن لها نظائر فى شعر أبى نواس .

وكان الشاعر القديم إذا أراد الحديث عن سرعة ناقته قرنها بحمر الوحش التى يطاردها الصياد ، أو التى يطارد ذكورها الإناث ، أو التى تحثها الأمومة ؛ ويعقد فيما يرتبه من الأحداث ، وما يخلع على الحيوان من العواطف ، فتصبح الموازنة حكاية ، وفى معلقة طرفة مثال صالح[٤] ، وربما استبدل الطائر بالحيوان كما فى قول معاوية الراعى :

وما بيضة بات الظليم يحفها بوعثاء أعلى تربها قد تلبدا
فلما علته الشمس فى يوم طلقة وأشرف مكاء الضحى فتغردا
أراد القيام فازبأر عفاؤه وحرك أعلى جيده فتأودا
وهز جناحيه فساقط نفضه فراش الندى من متنه فتبددا
فغادر فى الأدحىّ صفراء تركة هجانا إذا ما الشرق فيها توقدا
بألين مسا من سعاد للامس وأحسن منها حين تبدى مجردا[٥]

فموازنة تميم السابقة من هذا القبيل .

---

(١) أبو الفرج : الأغانى جـ ٢ ص ٥١ .
(٢) المصدر السابق : جـ ٢ ص ٧٢ .
(٣) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٥٦٢ ، ٧٠١ ، ٧٧٣ .
(٤) محمد نجيب البهبيتى : تاريخ الشعر العربى ص ٩٥ .
(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٤٨ .

وأسلوب الحوار أسلوب معروف فى الشعر ؛ استعمله امرؤ القيس ، وعمر بن ابى ربيعة ، ووضاح اليمن[١] وحذا حذوهم الشعراء من بعدهم . فلا جدة فى استغلال تميم لهذا الأسلوب إلا فى الروح[٢] .

وأسلوب الإنطاق يشبه ما كان يكتبه أهل بغداد على عصائب الجوارى وطررهن وما أشبه . ومثال ذلك من العقد : « قال الاصمعى : رأيت على باب الرشيد وصائف على عصابة واحدة منهن مكتوب :

نحن حور نواعـــــم من أراض مقـــــدسه
أحسن الله رزقنـــــا ليس فينـــا منـــحسه
فاتـــــق الله يافتـــــى لا تدعنـــــى موسوسه»[٣]

تميم وعمر بن أبى ربيعة :استغلَّ شاعرنا حكاية السعى والحوارَ فى الأسلوب غير المباشر ، وقد عرف عمر بن أبى ربيعة بهاتين الصورتين من الأسلوب غير المباشر . وقد شاعت الحكاية والحوار فى القرون التالية ، ولكنهما عند تميم وعمر لا يتشابهان تمام التشابه ، لاختلاف طبيعتىْ الشاعرين ، ولتباين عصريهما . ولكن الحكاية التى قرأناها لتميم تشبه رأئية[٤] عمر بن أبى ربيعة فى أمرين :

الأول أن كلا الشاعرين يسعى إلى الحبيبة فى الظلام ، ومعه السيف ، ويدخل عليها والناس نيام ، فتذعر الحبيبة ، ثم تنيله ما يريد ، ويظل معها حتى يشرف الليل على نهايته ،فتحس الحرج ، ويبدى الشاعر استعداده لامتشاق الحسام إذا ما تعرض له متعرض من الحى ، فترتاع الحبيبة ، وتخشى الفضيحة .

الأمر الثانى الذى تتشابه فيه حكايتا تميم وعمر أن تميما يصف فزع المحبوبة فيقول :

قامت كئيبـــا غائـــرا لونها تستوقف الليل عن الإنفجـــارْ

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) انظر فصل أثر البيئة المصرية من هذا البحث .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٤٢ . انظر من المصدر المذكور ص ٤٣٩ — ٤٤٢ .
(٤) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ١٨١ .

ويصف عمر الموقف نفسه فيقول :

فقامت كئيبا ليس فى وجهها دم من الحزن تذرى عبرة تتحدرُ

والصلة بين البيتين واضحة ؛ إذ يتفقان لفظا فى نصف الشطر الأول : « قامت كئيبا » ، ويتفقان معنى فى بقية الشطر . وذلك كله يدل على أن تميما قد تأثر فى حكايته بعمر تأثرا مباشرا .

تميم وأبو نواس :عرف الشعر العربى المجون قبل أبى نواس وبعده ؛ فكان الوليد بن يزيد شاعرا ماجنا ، وكان والبة بن الحباب ماجنا ، وكذلك كان أبو نواس ، وابن الحجاج ، وابن سكرة . وللمجون نصيب فى غزل تميم وغيره . وسبق أن رأيناه ينظم أبياتا تجمع كافات ابن سكرة . ومن الصعب أن يقال إن ابن سكرة أو غيره أستاذ تميم فى المجون ؛ إذ يبدو أن تماجنه عموما ليس تلمذة لشاعر واحد بعينه ، وإنما هو مسايرة لتيار المجون وتأثر بالبيئة . قال تميم حوارية :

عانقت لام صدغها صاد لثمى فأرتنـــى المرآة فى الخد لصا
فاستـــرابت بما رأت ثم قالت أكتابا أرى ولم أر شخصا !
ودعتنـــى لمحوه ، فتمكنـــــ ت من الوجنتين لمسا وقرصا
ثم قالت : ألا امحه محو من يجـ ـهد فى محوه ومن يتـــقصَّى
قلت : بالقشط يُمَّحي قالت :اقشط بالثنايا ، وأتبـع الـــقشط مصا
قلت : إن الذى ـ أمرت به فر ض علينا مؤكد ليس يعصى
ورأت إثر ما محوتُ ،فقـالت : كان لصا فصار ـ والله فصا
قلت : إن الفصوص تطبع باللث م على خد كل من كان رخصا[1]

وضع تميم شفتيه عند نهاية الخصلة المتدلية على وجه الحبيب كحرف اللام وقبله ، فتركت الشفتان أثرا على الوجنة يشبه حرف الصاد اتصل بالخصلة التى تشبه اللام فتكونت من لام الشعر وصاد القبلة كلمة « لص » . فلما نظرت الحبيبة فى المرآة رأت الكلمة التى لم تخطها بنان كاتب ، وكانت ماجنة كالشاعر ، فأظهرت العجب ، وطلبت من الشاعر أن يمحو الأثر . فطفق يتحسس ويقرص ، وهى

---

(١) ديوان تميم ص ٢٥٥ .

تستحث . ولم يجدا غير الكشط وسيلة ، فأعمل تميم أسنانه ، حتى ترك على الوجنة ما يشبه الفص . وهذه الحوارية الخليعة تشبه قول أبى نواس :

يا ماسح القبلة من خده ... من بعد ما قد كان أعطاها
خشيتَ أن يعرف إعجامَها ... مولاك فى الخد فيقراها
ولو علمنا أنه هكذا ... كنا إذا بسنا مسحناها
فصار فيها رسمها باقيا ... يعرفها من يتهجاها
ولا تركناها على حالها ... ولامها منها محوناها
فكان باق الاسم لى قبلة ... بالفتح فى خدك مجراها[1]

وهذه القطعة مضطربة بينه الخلط . والصواب أن يوضع البيت الرابع منها بعد البيت الأول ، وأن نتصور بعض أبياتها ساقطا حتى يستقيم المعنى . والصلة بينها وبين حوارية تميم واضحة مع ذلك .

وقد روى الجرجانى فى الوساطة شعرا قبيحا لأبى نواس ، انتزع تميم معناه ، وصبه فى شعر يخالف الأصل فى الوزن ويتفقان فى القافية[2] .

تميم وشعراء آخرون : ذكر الناسخ أن تميما قرأ أبياتا لابن المعتز فعارضها ، وحكم صديقة الحسين بن ابراهيم الرسى ، ففضل الحكم شعر صديقه[3] . وأبيات **ابن المعتز هى** :

شغلت بلذة القبل ... ووعد الكُتْب والرسل
ومعشوق يواصلنى ... بلا مطل ولا عِلَل
أتى عجلا يطير به ... جناح الخوف والوَجل
وندمان يساعدنى ... ويسقينى ويشرب لى
مضرجة إذا أضرمـ ... ـتها ترميك بالشعل
موردة إذا مُزِجتْ ... كورد الخد من خجل

---

(١) ديوان أبى نواس ص ٣٢٧ .
(٢) انظر الوساطة للجرجانى ص ١٦٥ وديوان تميم ص ٤٢٥ .
(٣) ديوان تميم ص ٣٥٠ .

وشعر تميم هو :

شغـــلت بخلسة المقـــل ومـــزج الكُحْـــل بالكَحَـــل
ومـــا اعتـــلت به الألحا ظ فى أجفـــانها النجـــل
ومـــعشوق يكـــاد يذو ب خداه من القبـــل
يعاتبنـــى ويُعْتبنـــى ويغضبنـــى ويـــغضب لى
تلاقينـــا بلا وعـــد ولا كتب ولا رسل
يشجعنـــا تعاشقنـــا وتخذلنـــا يد الوجـــل
فألثمنـــى حصى بَرَدٍ تفجـــر من جَنَـــى عَسَل
وَبْرقَـــع وجهـــه عنـــى بظاهـــر حمرة الخجـــلَ
غزال لم أرح يومـــا به خلـــوا من الوجـــل

وقد تناول شاعرنا بداية بيتى ابن المعتز الأول والثانى ، واتجه بهما اتجاها مغايرا ، وينصرف ابن المعتز إلى الخمر بعد الأبيات الثلاثة الأولى ، ويمضى تميم فى غزله لا يلوى على شىء ، فيختلفان هنا أيضا . وجدير بالذكر أن الأبيات الثلاثة الأولى من قطعة ابن المعتز هى كل ما ورد فى ديوانه[١] ، وهكذا احتفظ له ديوان تميم بالنص كاملا .

ولأبى الفتح البكتمرى قطعة مطلعها :

قالوا : بكيت دمـا ! فقلـــ ت : مسحتُ عن خدى خلوقا[٢]

عارضها تميم بقطعة مطلعها :

ياكانيـــا عن دمعـــه بـ « مسحت عن خدى خلوقا »[٣] !

وعارضها مرة آخرى بقطعة ثانية مطلعها :

لا تعـذل الصعب المشوقـــا حكـــم الهوى ألا يفيقـــا[٤]

---

(١) انظر ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ٥٩ .
(٢) الثعالبى : اليتيمة جـ ١ ص ٧٤ .
(٣) ديوان تميم ص ٢٨٥ .
(٤) ديوان تميم ص ٢٨٦ .

وقد عارض تميم أبا القاسم على بن بشر الكاتب فى نص له[١] . ويحق لنا فى هذا المقام أن نناقش بعض المقدمات الغزلية للمدائح التى عارض بها تميم المادحين . **ولنبدأ بالمتنبى . قال تميم :**

يُعَدُّ وجيعَ الوجد ما هيّج البعدُ ... وأوجع منه قرب من قربه الصدُّ
أبى الدمع إلا أن تفيض شؤونه ... فيبدو إذا أبدته ما لم يكن يبدو
وعصيان دمع العين غدر بربه ... إذا بان عنه الصبر واحتكم الوجد
وما ينقضى عهدُ الأسى من متيم ... إذا لم يدم يوما لمحبوبه عهد
أ آمـــرتى بالصبر وهـــى تحده ... وعاذلتى فى السقم وهى له جند
كما لم تجد عيناك بدا من الضنى ... كذا ما لجسمى من ضنى بهما بد
إذا وعدت هندتنى جودها الوعد ... وإن سمحت يوما فنائلها ثمد
يضيق بها خلخالها وسوارهـــا ... ويجذبها من خلفها كفل نهد
وإن هى أسرت فى الدجى نم حسنها ... عليها ، ونم الحلى والمسك والند
لها خلق فى كل يوم من الجفا ... طريف ، له بين الحشا حُرَقٌ تُلْد[٢]

وقال المتنبى فى مطلع مدحه للحسين بن على الهمدانى :

لقد حازنى وجد بمن حازه بعد ... فياليتنى بُعْدٌ ويالَيته وجـــد !
أسر بتجديد الهوى ذكر ما مضى ... وإن كان لا يبقى له الحجر الصلد
سهاد أتانا منك فى العين عندنا ... رقاد ، وقُلّام رعى سربكم ورد
ممثلة حتى كأن لم تفـــارق ... وحتى كأن اليأس من وصلك الوعد
وحتى تكادى تمسحين مدامعى ... ويعبق فى ثوبىّ من ريحك الند
إذا غدرت حسناء وفت بعهدها ... فمن عهدها ألا يدوم لها عهد
وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضى ... وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخـــلاق الـــنساء وربما ... يضل بها الهادى ، ويخفى بها الرشد
ولكن حبا خامر القلب فى الصبا ... يزيد على مر الزمان ويشتد[٣]

ويُلْحَظُ على الشاعرين اتفاقهما فى الحديث عن حبيب بعيد ، وانتقالهما إلى الحديث عن أخلاق النساء .

---

(١) انظر اليتيمة جـ ١ ص ٣٢٢ ، وديوان تميم ص ٥٠ .
(٢) ديوان تميم ص ١٠٢ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٢٤٤ .

وفى قول تميم :

إذا وعدت هندتنى جودها الوعد وإن سمحت يوما فنائلها ثمد

نظر إلى قول المتنبى :

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ألا يدوم لها عهد

ويلحظ على قطعة تميم أن هذا البيت :

وعصيان دمع العين غدر بربه إذا بان عنه الصبر واحتكم الوجد

مستقى من بيت المتنبى فى قصيدة أخرى :

فإن دموع العين غدر بربها إذا كن إثر الغادرين جواريا[1]

ولعل بيت تميم :

أ آمرتى بالصبر وهى تحده وعاذلتى فى السقم وهى له جند

يعتمد فى شطره الثانى على مطلع المتنبى فى الشطر الثانى منه :

أود من الأيام مالا توره وأشكو إليها بيننا وهى جنده[2]

ويلحظ على قطعتى تميم والمتنبى اشتراكهما فى الاعتماد على التفكير الذى مال بهما إلى تقرير الأحكام وتعقيد العبارة ؛ واشتراكهما فى الطباق ، وفى فخامة العبارة .

وكان الوأواء الدمشقى ممن عارضهم تميم فى مدائحه . وقد مرت بنا المقدمة التى تغزل تميم فيها فى المذكر ، وهى مقدمة القصيدة التى عارض بها الوأواء[3] . فإذا قارناها بمقدمة الوأواء وجدناهما تتفقان فى هذه الوجوه :

أولا :الحبيب مذكر فى كلتا القصيدتين .

ثانيا : الحديث عن سطوة العينين ، وتضاد لونى الصدغ والوجه بطريقتين متماثلتين .

---

(١) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٥١١ .

(٢) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٣) انظر قصيدة الوأواء فى ديوانه ص ١٧ .

ثالثا : اسغلال الحروف الأبجدية فى البيان .

رابعا : قال تميم عن خدى المحبوب وعينيه :

ياضارمى لحظة فديتكما لا تسلمانى إلى العذارين
وياعذاريه ما أحسن ما برزتما فيه لى بعذرين

وقال الوأواء :

يامرهفى مقلتيه دونكما قلبى فقداه بين نصفين
وياعذاريه هاكما كبدى فابتدرا نحوه بسيفين

والشبه ظاهر بين بنية بيتى تميم وبيتى الوأواء ، إذ يستخدم كلا الشاعرين أسلوب النداء فى مخاطبة العينين والعذارين .

الفصل الثالث

المـــدح

عاش تميم فى ظل الخلافة الفاطمية ، ثالثة الخلافات فى العالم الإسلامى . وكانت كل خلافة وكل إمارة محوطة بالمادحين ، يتغنون بها ، ويشيدون بمآثرها ، ويمجدونها بالحق وبالباطل . وما كان من المعقول ألا ينافس الفاطميون الحاكمين فى الشرق والغرب ، ولا كان من الممكن أن يسكت تميم والشعراء من حوله يترنمون كالنحل بأمجاد الفاطميين . ولو فعل — وما كان أحب إليه أن يفعل أحيانا — لزاد ما بينه وبين أبيه وأخيه سوءا ، ولعرض نفسه لمتاعب جمة . يقول ابن الأبار : « وكان تميم لما استقر بمصر ، وتوفى أبوه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين ، وولى أخوه نزار يمدحه طلبا للسلامة منه ؛ لأنه لم يكن يأمن عاديته بسبب انخلاعه عن العهد[١] » .

ولم يكن الشاعر فى حاجة إلى أن يمدح غير أبيه وأخيه ، ولم يكن مركزه الاجتماعى يسمح له أن يمدح غير الخليفتين . قال جامع الديوان : « لم تذله ركة الطمع ، فيستذل مديحه ، ولم تخالجه مهانة السوقة فتغش خطابه الملوكى صريحه ، بل كان هو مقصود الثناء ، مصمود الفناء ، ألسنة المدائح فى مكارمه مطلقة الأعنة[٢] » . والحق ما قاله جامع الديوان ؛ فقد رأينا أيا الرقعمق يمدح شاعرنا[٣] . ولعله مُدِح بشعر كثير لم يصلنا .

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء « مصورة بجامعة الدول العربية ص ١٣٣ » .

(٢) ديوان تميم ص ٥ .

(٣) الثعالبى : اليتيمة جـ ١ ص ٢٥٠ .

مدائح المعز :

خاطب الشاعر أباه بضع عشرة مرة فى الديوان[١] ، ولكنه لم يكن مادحا فى كل المخاطبات ؛ إذ نراه يشكر ، أو يدعو أو يعتذر ، أو يهنىء دون أن يمدح . ولكنه مدحه مدحا صريحا عدة مرات بقصائد ومقطوعات[٢] ، ومدحه مرة برجز[٣] ، ومدحه فى نهاية طردية[٤] .

ويمدح الشاعر أباه بالأخلاق الحميدة التى عرفها الشعر العربى منذ الجاهلية ؛ ويغدق عليه الخصال الدينية ، ويذكره بصفات الحكم ، وبالصفات الشيعية . والشجاعة والكرم من أظهر ما يمدح به المعز من الأخلاق التقليدية ، تانك الخلتان اللتان تناولتهما الأقلام المادحة فى القرون الخالية حتى أذبلتهما . والبهاء من الصفات التقليدية التى مدح به تميم أباه ، قال :

إن المعـــز الملك الأغـــرا لم يبـــق من بذل نداه حرا[٥]

ولا يقف الشاعر عند مدح أبيه بالصفات السابقة فقط ، بل يمدحه بالعفو وسعة الصدر كما فى قوله :

رأيتك يفنى العذرُ حقدك كله فترضى ، ولا يفنى مواهبك القصدُ
ولا توعد الجانى إذا زل ، بل له إذا اعتذر المعروف عندك والوعد[٦]

وقـــوله :

سمحَ السجايـــا مستهلا غمـــرا أرحب من يمشى عليها صدرا[٧]

كما يمدحه بالعقل فى مثل قوله :

وفـــلٌ بالرأى العوالى السمرا[٨]

---

(١) انظر الديوان ص ٣٤ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٣٢٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٤ ، ٤٢٢ ، ٤٥٤ .

(٢) انظر المصدر السابق : ٤٩ ، ٥٥ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ٣٦٣ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٤) المصدر السابق : ص ١٩ .

(٥) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٦) ديوان تميم ص ١٠٥ .

(٧) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٨) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

وصدق تميم ؛ فقد عرف المعز بمثل هذه الصفات ، وهو من خير رجال التاريخ لين جانب ، ورحابة صدر ، ورجاحة عقل ، وسعة حيلة .

ويمدح الشاعر أباه بالصفات الدينية . وقد تقترب هذه الصفات الدينية من الصفات الشيعية أو تختلط بها . قال يصف المعز بخوف الله

ألستَ من يرهب الإله ، ولا يصده عن حدوده سببُ[١] ؟ .

وقد يصفه بالتقوى والوفاء بالنذر :

يدرع التقوى ويوفى النذرا[٢]

وقد يصفه بجميل الإحسان ، ومجانبة الآثام ، وعدم الاغترار بالدنيا كما قال فى آخر الطردية :

من لم يكدر مَنُّه جدواه ولم يمحِّصْ إثمه تقواه
ولم تغير دينه دنياه[٣]

وربما مدح تميم المعز بصفات الحكم كما فى قصيدته التى مطلعها :

إليك مدت رقابها العرب والملك ماء عليك منسكب[٤]

وكما فى إشارته إشارة عابرة إلى الخطبة :

فلا تحسبوا اللفظ الذى سار خطبة ولكنه حَلْىٌ لهم وعقود[٥]

وقد يمدح الشاعر أباه بالصفات الشيعية كما رأينا .

بنية المدح : حين يبدأ تميم المدحة يهجم على المدح مباشرة كما فى قصيدته التى مطلعها :

إليك مدت رقابها العربُ والملك ماء عليك منسكبُ

---

(١) المصدر السابق : ص ٥٦ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٨٤ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٢ .
(٤) المصدر السابق : ص ٥٥ .
(٥) المصدر السابق : ص ٩٩ .

أو يشكو ويتوجع كما فى هذا المطلع :

لو أن أيام هذا الدهر تحتشم ما كان عنهن منى العذل ينصرم[١]

أو يمرح كما فى مقطوعته التى أولها :

شكا العود بالأوتار شجوا فأطربا وترجم عن معنى الضمير فأعربا[٢]

ولم يكن الشاعر يُغرق فى المديح ، وإنما كان يزاحم أباه فى المدحة . وخير مثال قصيدته التى مطلعها :

يعد وجيع الوجد ما هيج البعد وأوجع منه قرب من قربه الصد[٣]

وتلك التى مطلعها : « لو أن أيام هذا الدهر .... » السالف الذكر . فإن حديثه عن نفسه فيهما قد استغرق من كل حوالى النصف . وهو — وإن نسى نفسه فى بعض المدائح — جائر جدا على أبيه فى تلك المقطوعة الخليعه « شكا العود .... » التى قام جامع الديوان إنها فى مدح المعز ؛ إذ تبدأ المقطوعة بالحديث عن العود المطرب الحنون ، والخمر والساقية المخضبة البنان . ثم ينتقل الشاعر إلى الفخر ، ثم يختم ببيتين فى مدح المعز .

وتنتهى المدحة بالدعاء[٤] أو بالصلاة أو السلام على المعز[٥] ، أو بالفخر بالشعر[٦] ، أو بغير لازمة[٧] . تلك نهايات ما مدح به تميم أباه .

فإذا نظرنا نظرة عامة إلى المدح رأينا ما يلى :

أولا : قلة نصيب المعز من المديح إذا قيس بما ناله الخليفة العزيز . ومرد هذه الظاهرة إلى عامل الزمن ؛ فإن المدة التى عاشها تميم فى حياة أبيه شاعرا ناضجا مدة

---

(١) ديوان تميم ص ٣٦٣ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٩ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٠٢ .
(٤) المصدر السابق : ص ٩٩ .
(٥) المصدر السابق : ص ٥٧ ، ١٠٦ .
(٦) المصدر السابق : ص ٣٦٦ .
(٧) المصدر السابق : ص ٤٩ .

قصيرة ، إذ مات أبوه وهو فى حوالى الثامنة والعشرين من عمره . وربما كانت العلاقة السيئة بين الأب والابن من أسباب قلة المديح .

ثانيا : شيوع التكلف فى تلك القصائد المختصة بالمدح وفى المدح التابع . وهذا راجع إلى أن الشاعر كان لم يبلغ ذروة نضجه ، ولم يمرن قلمه على المديح ؛ وإلى أن العلاقة بين المادح والممدوح كانت سيئة .

ثالثا : انعدام الابتداء بالوقوف على الأطلال .

مدح العزيز :

خاطب تميم أخاه بالشعر كثيرا ، فمدح ، وعاتب ، وشكا ، وواسى ، ودعا إلى الشرب . ونصيب المديح مما خاطب به شاعرنا أخاه كبير ؛ فقد مدحه مدحا خالصا عشرات المرات . وتعود أن يقف على الخليفة جانبا من الطرديات والأرجاز يشيد به فيه . ونظم فى مدحه المخمسة المشهورة[١] .

ويمدح الشاعر أخاه بالأخلاق الموروثة كالكرم والشجاعة والحلم والذكاء والعزم وغيرها ، وينسب إليه الخلال الدينية ؛ ويسند إليه صفات الحكم ، ويضفى عليه الصفات الشيعية . وتتجمع الصفات الموروثة فى مثل قوله :

إذا رمت أن أثنى بما أنت أهله ... من المدح أعيتنى خصائل أربعُ :
نوال إذا قل النوال أفضتَــه ... ورأى كحد السيف ، بل هو أقطع
وحلم إذا قلَّتْ حلوم ذوى النهى ... وطاشت حجا الأقوام لا يتضعضع
وإشراق أخلاق صفت فى عذوبة ... ورقَّتْ كما رق الشراب المشعشع[٢]

وقــوله :

تلقاه فى الحرب كرارا إذا استعرتْ ... وحام طير الردى بالمعشر النُّزُلُ
حَسَّامُ ما من عظيمات الأمور أبيْـ ... ـن الحسم ، وصَّالُ ما منهن لم يصلَ
لا بالضعيف قوى الآراء عن حَدث ... يُردِى الأنام ولا الهيابة الوكل
ينال بالسيف ماتعيا السيوف به ... وبالنباهة ما يُعيى ذوى الحيل
يقظان حين ينام الحزم ، محترس ... مترفٌ شرس عجلان ذو مهل[٣]

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٦٨ .
(٢) ديوان تميم ص ٢٦١ .
(٣) المصدر السابق : ص ٣٤٠ .

فالممدوح فى النصّ الأول كريم ، ثاقب الرأى ، حليم ، عذب الأخلاق ؛ وفى الثانى مقدام ، ماهر ، ذكى ، ثابت ، واسع الحيلة ، متيقظ ، حذر ، يجمع بين الترف والخشونة ، والتعجل والتريث . ولم يكذب تميم فى هذه الصفات ؛ فقد رأينا أخاه كذلك فى حربه وسلمه .

ومما يلفت النظر فى الصفات التى خلعها تميم على أخيه كثرة حديثه عن بهائه الذى تمثل خير تمثل فى كثرة تشبيهه بالشمس والقمر . وكثير من تشبيهاته يراد بها البهاء[١] . ويبدو أن العزيز كان يرتاح إذا سمع أحاديث بهائه ؛ وقد عرفناه فنى الذوق ، بهى المنظر . فلم يكذب تميم فى الحديث عن بهائه أيضا . وإذا كان عبد الملك بن مروان قد ضاق بعبد الله بن قيس الرقيات لما قاله فيه :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب[٢]

ورأى فى ذلك مالا ينبغى أن يقال ، فإن الزمن قد غير النفوس بعده ، وهيأ لأبى نواس أن يقول فى الأمين :

رُفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تقطع دونه الأوهام[٣]

وينسب الشاعر إلى أخيه خلالا دينية ، كأن يجعله يصل الرحم :

أطاب لى العيش أنى منك منتصر بأنصر الناس للقربى وللنسب[٤]

أو يجعله برا باليتامى :

ومن يبر اليتامى من كل خلق سواه[٥] ؟

ثم إنه يمدحه بصفات الحكم . واهتمام الشاعر بهذه الناحية يزداد ، فيقول :

سعى للشآم وقد أصبحت بها الحرب نزاعة للشوى
فكشف من ليلها ماسجا وقوم من زيغها ما التوى[٦]

---

(١) انظر ديوان ص ١٤٦ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٤١٤ .
(٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٧١ .
(٣) ديوان أبى نواس ص ٤٠٨ .
(٤) ديوان تميم ص ٦٩ .
(٥) المصدر السابق : ص ٢٤ .
(٦) المصدر السابق : ص ٩ .

ويقـول :

وسستهم بمحكـــــم الآراء سيـــاسة الوالـــد للأبنـــاء
سالمة من فتـــن الأهـــواء منتصبـــا للعـــود والإبـــداء
والأخـذ فى الدولة والإعطاء[١]

فالنص الأول يرينا العزيز حاكما حازما يقضى على الفتن الناشبة فى أطراف دولته ، ويزيل شرورها ، ويتدارك ما أحدثته الفتن من ضلال ؛ والنص الثانى يريناه سياسيا يتسم بالحكمة والرفق والديموقراطية .

ومن صفات الحكم الحديث عن فصاحة الخليفة فى الخطبة . وإذاكان الشاعر قد ذكر خطبة أبيه ذكرا عابرا ، فإنه قد وصف خطبة أخيه وظروفها ، وكرر وصفها . وهذا مثل يتصل بالفصاحة وحدها :

وقمت بهم فى منبر الملك خاطبا بما لم يقم مَلْكٌ سواك ويخطبُ
وأفصحتَ حتى ليس إلاك مفصح وأسهبت حتى ليس إلاك مسهبُ
تبشر طورا بالإلـــه ، وتـــارة تخوف من عصيانـــه وتـــرهّب
بيانا ووعظا قد تناهيت فيهما كأنك لم يسبقك قُسٌّ ويعربُ
وأثبت فى الأسماع برهان حكمة يقصّر عنها من يقول ويخطب
لأنك فى بحر البلاغة مُعرق وفى ساحتى أرض النبوة منجب[٢]

ومعروف الارتباط الوثيق بين الخطبة والخلافة منذ كانت الخلافة .

وأما الصفات الشيعية فقد أكثر من إضفائها على العزيز كما مر بنا .

بنية المدحة : يفتتح الشاعر مدائح أخيه بالنسيب على عادة الشعراء ، أو بالخمر مثل :

وزنجيـــة الآباء كرخيـــة الجلب عبيرية الأنفاس كرمية النسب[٣]

---

(١) المصدر السابق : ص ١٧ .
(٢) المصدر السابق : ص ٤٣ .
(٣) ديوان تميم ص ٦٢ ، انظر كذلك ص ٧٨ ، ٨٦ ، ٣١٥ .

وقد افتتح بغزل المذكر مرة[١] ، وبوصف الحصان مرة[٢] . وقد يفتتح بالحنين إلى الوطن[٣] ، أو بالفخر[٤] ، أوبالحكمة[٥] ، أو بالمدح مباشرة[٦] . ويزاحم أخاه فى المدح مزاحمة شديدة ؛ إذ يفتخر فيطيل ، ويتحدث عن الخمر فيسهب ، ويتغزل فيكثر ، ويشكو أو يشكر فيبلغ مشتهاه . وقد يقف القصيدة كلها على أخيه[٧] ، وقد يذهب هو بأكبر النصيبين ، وقد يجور على أخيه كما فى المقطوعات التى تحدث فيها عن أهوائه ، ولم يجعل لأخيه منها غير الذنب[٨] .

وربما كان انبساط الشاعر مع أخيه ، وإكثاره من الحديث عن مشاعره وأهوائه راجعين إلى ما يلى :

أولا : كان العزيز مرحا ، وكان يرفع الكلفة بينه وبين أخيه ؛ لذلك نرى تميما يدعوه إلى الشرب[٩] ، ونرى أبا الرقعمق يمدحه بشعر أوله مجون[١٠] .

ثانيا :شعور تميم أنه الأخ الأكبر جعل له دالة على أخيه .

ثالثا : إحساس تميم أنه أمير ، وأن الخلافة كانت فى طريقها إليه لولا تدخل القدر ؛ فنفسه جديرة بأن يمدحها ، ويتغنى بأهوائها .

وقد جنح الشاعر إلى الأسلوب غير المباشر فى المدح قليلا ، فأنطق الليمون بقوله :

أنا الليمون قد غذيتُ عروق ببرد الماء فى حرز حريز
حسنتُ فليس يحسن أن يحيا بأمثالى سوى الملك العزيز[١١]

---

(١) المصدر السابق : ص ٤٠٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣١١ .
(٣) المصدر السابق : ص ٥٢ ، ٢٠٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٧ .
(٥) المصدر السابق : ص ٩٨ ، ٣٥٩ ، ٣٨٨ .
(٦) نفسه ص ٢٤ ، ٥١ ، ١٤٥ ، ١٥٦ ، ١٨٢ . . . الخ
(٧) المصدر السابق : ص ٥١ ، ١٥٦ ، ١٦١ . . . الخ
(٨) المصدر السابق : ص ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ١٦٢ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٤٥٣ .
(٩) المصدر السابق : ص ٣٥٩ .
(١٠) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٤١ .
(١١) الحلة السيراء ص ١٣٤ .

وأجرى على ألسنة النسوة حوارية مدح[١] .

ويختم تميم المدحة بالصلاة والسلام على العزيز ، أو بالدعاء له ، أو بالفخر بشعره . وقد يعرى المدائح من اللوازم فى ختامها .

ويلحظ على مدائح العزيز ــ وهى عشرات ــ ما يلى :

أولا : الوفرة . وهى ترجع إلى طول المدة التى عاشها الشاعر فى ظل العزيز ، فقد بلغت حوالى تسع سنوات ؛ وإلى انقياد الشعر للشاعر ، فقد ازداد نضجا ؛ وإلى استعداد الشاعر النفسى لأن يمدح ، فقد كان الصّفاء يظلل المادح والممدوح أحيانا ؛ وإلى الثواب الجزيل الذى كان يعود به المدح على صاحبه .

ثانيا :ذكر الحوادث التاريخية ، وتصوير الخليفة بطلا للجماعة . والسر فى ذلك أن الدولة الفاطمية قد تعرضت لأخطار عظيمة فى عهد العزيز كما رأينا . وقد نهض الخليفة الشاب بأعبائها خير نهوض . والشاعر كان يرى مصير أسرته يتأرجح ، وملكها يتعرض للزوال ؛ وكان يرى أخاه الشاب يتحدى الأعاصير بجسارة ، ثم إنه قد شارك بنفسه فى الحرب ؛ فمن الطبيعى أن يكون لهذه الحال صدى فى شعره ومن الأمور ذات الدلالة التاريخية أن الشاعر قد تحدث مرارا عن الأحداث التى تتعلق بالأعداء المشارقة ؛ وتحدث مرة فى الديوان عن هزيمة بحرية لحقت بالروم ، ولم يذكرهم مرة أخرى ؛ ولم يذكر قط أحداثا معاصرة له تتصل بالمغرب أو الأندلس فى ديوانه كله . والسبب أن شر المشارقة كان متصلا ، وشر الروم كان أهون لانشغالهم بالحرب البلغارية ، وأن الشقة كانت قد بعدت بين العزيز وبين المغرب والأندلس .

ثالثا : ظهور الطابع المرح فى مدح العزيز . ولم يكن مرحا فى مدح المعز إلا فى القطعة الخليعة .

رابعا : ظهور الإخلاص فى المدح أحيانا ؛ وهو ثمرة العلاقات الحسنة التى كانت تظلل الأخوين فى بعض الفترات .

---

(١) ديوان تميم ص ٤١٣ .

خامسا : عدم الوقوف على الأطلال ، فلم يقف تميم فى مطلع أى قصيدة مدح على الأطلال ، وإن فعل ذلك فى الرجز[١] ، والرائية التى ناقض بها ابن المعتز[٢] وقد ثار أبو نواس على الوقوف على الأطلال ، ثم وقف عليها فى المديح وغيره ، فكأن تميما كان أشد إخلاصا للثورة من صاحبها .

مدح تميم والشعر العربى :

إذا نظرنا نظرة عامة إلى مدح تميم رأيناه ينظر إلى الشعر العربى ككل الشعراء ، فيستعير منه ، ويظهر أثر الاستعارة فى أبياته ؛ ورأيناه يعارض قصائد مختلفة . وقد أولع تميم بالجمع بين الكرم والشجاعة فى البيت الواحد كما فى قوله :

كأن العطايا والمنايا نوافل يجود بها فى حين يرضى ويغضب[٣]

ومثل هذا الجمع متكرر فى ديوانه ، تجد له أمثلة متعددة[٤] . وهو جمع معروف فى الشعر العربى كما فى قول طرفة :

يداك : يد خيرها يرتجى وأخرى لأعدائها غائظه[٥]

أو قول حسان بن ثابت :

له كف تفيض دما ، وكف يبارى جودها ريح الشمال[٦]

أو قول الأخطل :

له يومان : يوم قراع كبش ويوم يستظل به مطير[٧]

أو قول جرير :

مأوى الجياد إذا السنين تتابعت وفتى الطعان عشية العصواد[٨]

---

(١) ديوان تميم ص ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٨٥ .
(٣) المصدر السابق : ص ٤٣ .
(٤) المصدر السابق : ص ٦١ ، ١٥٧ ، ٣١٧ ، ٤٤٢ ، ٤٥٠ .
(٥) ديوان طرفة ص ١٥٥ .
(٦) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٠ .
(٧) ديوان الأخطل ص ٢٠٤ .
(٨) ديوان جرير جـ ١ ص ٤٨ .

أو قول ابن الرومى :

ماجـــد حارب الحوادث دونى بنـــدى حاتم وبـــأس شبـــيب[١]

أو قول ابن هانىء :

فارغب أو ارهب إن أيمانهم مبسوطـــة تسعـــد أو تشقـــى[٢]

أو قول الوأواء :

الـــذى لا تراه مذ كان إلا واقفـــا بين نائـــل وعقـــاب[٣]

وفى اليتيمة بعض الأمثلة لهذا الجمع[٤] ، وفى ديوانى الفرزدق[٥] والسرى الرفاء فيض منها[٦] . ولا تعد أبيات تميم المماثلة أخذا ؛ بل تعد حذوا .

وقال تميم :

ليس بنـــاس لوعـــده ، وإذا جاد بنعمـــى فهـــو ينساهـــا[٧]

ومثله قول السرى :

ناس من الجود كل ما يجود به وذاكـــر منـــه كل ماوعـــدا[٨]

وقد قال قبلهما ابن الرومى :

مهما وعدت فمذكور ومحتسب وما اصطنعت فشىء غير محتسب[٩]

وقال تميم يمدح أباه :

أغـــر أروع وضاح لناظـــره كأنه فى أعالى هاشم علـــم
حلو الشمائل فى أخلاقه شرس طورا ، ولين ، وفى عرنينه شمم

---

(١) ديوان ابن الرومى جـ ١ ص ١١٣ .
(٢) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٤٩٤ .
(٣) ديوان الوأواء ص ٩ .
(٤) انظر اليتيمة جـ ٣ ص ١٥٦ ، جـ ٤ ص ١٣ .
(٥) ديوان الفرزدق جـ١ ص ٥٨ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٢١٩ ، ٢٩٢ ، ٣٤١ . . . الخ
(٦) ديوان السرى الرفاء ص ٩ ، ١٤ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٥٧ .
(٧) ديوان تميم ص ٣٨ .
(٨) الثعالبى : اليتيمة جـ ١ ص ٤٦٣ .
(٩) ديوان ابن الرومى جـ ١ ص ٢١٤ .

طابت ولادته من أحمد وزكت منه الخلائق والأعراق والشيم
يلقى دواعى الخنا واللؤم منه بلا وليس تخذله فى صالح نعم[١]

وقد اجتمع فى قوله آثار من الخنساء والفرزدق معا ؛ إذ أخذ من كل لبنات ضمنها الأبيات . وشعر الخنساء المراد هو :

أغر أبلج تأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار[٢]

وشعر الفرزدق المنظور إليه هو :

بكفه خيزران ريحها عبق من كف أروع فى غرنينه شمم[٣]

وربما قال قائل : إن أبيات تميم متأثرة بالفرزدق وحده ؛ فقد جاء فى قصيدة الفرزدق الميمية هذا البيت :

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم[٤]

ويرد بأن بيت تميم فيه ثلاث كلمات من بيت الخنساء ، وكلمة رابعة هى « أروع » لها وزن كلمة « أبلج » التى فى بيت الخنساء ولها معناها أيضا ، وبيت الفرزدق ليس فيه إلا كلمة واحدة موجودة فى بيت تميم . ثم إن صفة الشموخ التى قصدها تميم أظهر فى بيت الخنساء منها فى بيت الفرزدق .

تميم وأبو نواس :لشعر أبى نواس بعض الأثر فى مديح تميم ، فبيته :

فأمضيت عزمك حتى أخفت به فى بطون النساء الأجنه[٥]

يشبه قول أبى نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق[٦]

وقوله :

حتى الذى فى الرحم لم يك صورة لفؤاده من خوفه خفقان[٧]

---

(١) ديوان تميم ص ٣٦٦ .
(٢) ديوان الخنساء ص ٨٠ .
(٣) أبو الفرج : الأغانى جـ ١٩ ص ٤١ طبعة ساسى .
(٤) المصدر السابق : نفس الصفحة .
(٥) ديوان تميم ص ٤٤٢ .
(٦) ديوان أبى نواس ص ٤٠١ . انظر ديوان داعى الدعاة ص ١٦٤ .
(٧) ديوان أبى نواس ص ٤٠٦ .

وقد عارض شاعرنا رائية أبى نواس المشهورة التى أنشدها بين يدى الخصيب[١] ، وانتزع منها بعض الصور والألفاظ ، وإن خالفها فى عدد الموضوعات ونوعها وترتيبها . قال تميم يمدح أخاه :

تباشرت الدنيا به وبملكه وأشرق منه منبر وسرير

وهذا معتمد على قول أبى نواس :

زها بالخصيب السيف والرمح فى الوغى وفى السلم يزهو منبر وسرير

وقال شاعرنا :

فدم لأبى المنصور يامالك سالما فليست عليك الدائرات تدور

وبيته متأثر مبنىً ببيت أبى نواس :

فتى يشترى حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور

تميم وأبو تمام :تأثر تميم فى مديحه بعض التأثر بأبى تمام . فعندما انهزم أفتكين قال تميم فى معرض مدح أخيه :

فإن يك بدر لم يقس بشبيهه فذى الوقعة الكبرى شبيهتها بدر[٢]

وكان أبو تمام قد قال فى يوم عمورية يخاطب المعتصم :

إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة أوذمام غير منقضب

فبين أيامك اللائى نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب[٣]

والشبه بين القولين ظاهر .

وقد عارض تميم بائية عمورية التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب[٤]

بقصيدة مدح بها العزيز مطلعها :

قواضب الرأى أمضى من شبا القضب والحزم فى الجد ليس الحزم فى اللعب[٥]

---

(١) ديوان تميم ص ١٤٢ ، وديوان أبى نواس ص ٤٨٠ .

(٢) ديوان تميم ص ٢٠٢ .

(٣) ديوان أبى تمام ص ١١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧ .

(٥) ديوان تميم ص ٦٨ .

ويمضى شاعرنا يأتى بالحكمة تلو الحكمة متأثرا بالشاعر السابق . ثم ينتقل إلى المدح ، فيتضاءل أثر أبى تمام ، ويكاد ينحصر فى استعارة القوافى . ولا يصح أن يتخذ تضاؤل الأثر الذى تركه أبو تمام على المديح دليلا على أن الشاعر المتأخر لم يعارض المتقدم عامدا ؛ فإن الاقتراض فى الحكم بين .

تميم والمتنبى : تأثر تميم بالمتنبى تأثرا ظاهرا فى المديح ، فضمن بعض أشطار من شعره ، واقترض بعض معانيه . فقد قال فى معرض مدحه العزيز لما انهزم أسطول الروم :

ولم تدع منهم بيض السيوف سوى من قد حماها اللَّمَى والدَّلُّ والخفرُ[١]

وقال السرى الرفاء :

أفنت ظباك الروم حتى إنها لم تبق إلا ظبية أوريما

وأشار الثعالبى إلى أن قول السرى مأخوذ من قول المتنبى :

ولم يبق إلا من حماها من الظبى لمى شفتيها والثُّدَىُّ النواهد[٢]

وهكذا استعار الشاعران معناهما من المتنبى .

وقد عارض تميم عدة قصائد للمتنبى[٣] ، وقلده فى جوانب منها ، أو حذا حذوه ، واستعار منه بعض معانيه . وكلما تقدم الزمن بالشاعر المصرى زادت معارضاته لأبى الطيب استقلالا فى معانيها . ومن معارضات تميم المبكرة قصيدته التى مطلعها :

يعد وجيع الوجد ماهيج البعد وأوجع منه قرب من قربه الصد[٤]

وهى معارضة لقصيدة المتنبى التى مطلعها :

لقد حازنى وجد بمن حازه بعد فياليتنى بعد وياليته وجد[٥]

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٣ .

(٢) اليتيمة جـ ١ ص ٤٥٣ .

(٣) انظر ديوان تميم ص ٣٤ ، ١٠٢ ، ٢٨٨ ، ٣٦٣ ، ٣٨٨ وانظر على التوالى ديوان المتنبى : جـ ٢ ص ٤٩٨ ، جـ ١ ص ٢٤٤ جـ ١ ص ٤٥٧ ، جـ ٢ ص ٢٥٨ ، جـ٢ ص ٢٨٨ .

(٤) ديوان تميم ص ١٠٢ .

(٥) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٢٤٤ .

وقد ضمن للمتنبى شطر فى بيت تميم :

وما راح عن كسب المحاق مقصرا (ولو خبأته بين أنيابها الأسد)

وبيت المتنبى هو :

بصير بأخذ الحمد من كل موضع ولو خبأته بين أنيابها الأسد

واستعار شاعرنا معنى الشطر الثانى من بيت المتنبى :

وأنفسهم مبذولة لوفودهم وأموالهم فى دار من لم يَفِدْ وفد

ونشره فى بيته :

إذا زاره وفد غدا من تليده وطارفه عن الذى لم يزر وفد

كما نظر إلى قول المتنبى :

وأصبح شعرى منهما فى مكانه وفى عنق الحسناء يستحسن العقد

وقال :

وليس لكل الناس يستحسن الثنا كما ليس فى كل الطلا يحسن العقد

هذا أهم ما استعاره تميم لداليته من دالية المتنبى . وقد استعار لها معانى أخرى فى المديح من قصائد أخرى للمتنبى . قال الشاعر المصرى :

ولو كفر العافون نعماك لم يكن لطبعك منك الآن عن كرم رد

وجاء المتنبى بهذا المعنى من قبل فى قوله :

لو كفر العالمون نعمته لما عدت نفسه سجاياها[1]

وتحسن الإشارة إلى أن للمتنبى قصيدة لها وزن داليته التى عارضها تميم ولها قافيتها ، ومطلعها :

أقل فعالى — بله أكثرها — مجد وذ الجد — فيه نلت أم لم أنل — جد[2]

وهى قصيدة لا يكاد يتغزل فيها ، وإنما يمضى فى المدح ويشير إشارة عابرة إلى أنه يبكى فقد من أحب . ورَجح أن تميما عارض الدالية السابقة التى ناقشنا بعض معانيها لأن أثرها أكبر من أثر الدالية التى مطلعها فخر . ولم تخل قصيدة تميم مع ذلك من أثر لدالية المتنبى الثانية ، ولكنه أثر قليل ظهر عندما افتخر تميم بعد أن قضى أربه من الغزل .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٠٨ .

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ص ٢٣٧ .

وقصيدة تميم التى مطلعها :

ما قال أوه لفقده واهـا كمستريح لقوله آهـا[١]

من قصائده المتأخرة ؛ فقد نظمها فى مدح العزيز معارضا بها قصيدة المتنبى فى مدح عضد الدولة :

أوه بديل من قولتى واهـا لمن نأت والبديل ذكراهـا[٢]

وقد تأثر شاعرنا فى مديحه بالشاعر السابق ، ولكنه التأثر الذى لا يؤخذ عليه ؛ فإنه قد نظر إلى مدحة عضد الدولة نظرة فاحصة ، ثم ذهب يعارضها معارضة الند سالكا طريقه الخاص ، صابغا شعره بالتشيع .

تميم وابن هانىء : لابن هانىء قصيدتان متحدتا البحر والقافية ، أولاهما فى مدح المعز ، ومطلعها :

تقدمْ خطى أو تأخر خطى فإن الشباب مشى القهقرى[٣]

والثانية فى رثاء والدة جعفر ويحيى ابنى على ومطلعها :

ألاكل آت قريب المدى وكل حياة إلى منتهى[٤]

وكان منتظرا أن يعارض تميم بقصيدته التى مطلعها :

أعذلا وما عذلتنى النهى ولا طرد الحلم عنى الصبا[٥]

قصيدة ابن هانىء فى مدح المعز ، ولكنه عارض بمدحة فى العزيز المرثية ، بدليل اتفاق مدحة العزيز والمرثية فى الحديث عن الزمن ، والفخر بالنفس ، وبدليل اعتماد تميم على معانى ابن هانىء فى الغرضين المذكورين وفى المذيح ، وبدليل تضمينه لهذا الشطر من المرثية :

وقلبا يسد على الغلا

وفى المرثية مديح لجعفر ويحيى منه هذا البيت :

فلم تغمد السيف حتى انثنى ولم تصرف الرمح حتى انحنى

---

(١) ديوان تميم ص ٣٤ .

(٢) ديوان المتنبى جـ ٢ ٤٩٨ .

(٣) تبيين المعانى فى ديوان ابن هانى ص ٧٧٣ .

(٤) المصدر السابق : ص ٧٨٥ .

(٥) ديوان تميم ص ٧ .

وما أشبهه ببيت تميم :

فلم تصدر الرمح حتى انثنى ولم تغمد السيف حتى انفرى

وهناك تشابه عام بين القصيدتين يستدل عليه بقول ابنى هانىء فى مدح أحد المعزين :

فمن قومك الصيد صيد الملوك ومن قومها الأسد أسد الشرى

وقوله فيه أيضا :

فصلك يُرقَى ولا يستجيب ونارك تذكى ولا تصطلى

وقوله فى قبر المتوفاة :

بكتة المغازى وبيض السيوف وهذى العناجيج قبَّ الكُلَى

وقوله إن قبر المتوفاة لو كان فى بلاد العرب :

أتته الحجيج من الراقصات فمنها فُرادى ومنها ثُنَى

وثم تلاق بين الأبيات السابقة وأبيات تميم التى أولها :

يقود إلى الحرب من جنده أسود رجال كأسد الشرى

وثانيها :

فلولا الإمام العزيز الذى تداركها وهى لا تصطلى

وثالثها :

كأن الرماح سكارى تجول بها الخيل فى النقع قبَّ الكلى

ورابعها :

وغنت على البيض بيض الذكور غناء يعيد الفرادى ثنى

• ونرى التلاق بين أبيات المجموعتين يزداد تضاؤلا باستمرار ؛ فبعد أن كان شبها فى ألفاظ ومعان مطروقة فى البيت الأول عند كلا الشاعرين ؛ زاد التلاق المعنوى واللفظى ضآلة فى البيت الثانى عند كل ؛ ثم إن التلاق فى البيت الثالث عند كل يقف عند الصفة المضافة ؛ أما فى البيت الرابع من كلتا المجموعتين فإن التلاق لا يتعدى بعض الألفاظ .

تميم والوأواء الدمشقى : مدح الوأواء سيف الدولة بقصيدة مطلعها :

صَوْلَـجٌ لامين فى عذاريـــن ... فى ذهبـــيين جوهـــــرين[1]

فعارضها تميم بقصيدته التى مطلعها :

الآن قد الفـــــؤاد نصفين ... فيه ، وأجرى الدموع نوعين[2]

وأعلن معارضته لها مفتخرا بقصيدته :

تزرى بألفاظهـا العـذاب على ... (صولج لامين فى عذاريـــن

وتختفـى قلـة إذا ذكـــرت ... (فى ذهـــبين جوهـــرين)

وقد رأينا العلاقة بين غزل تميم وغزل الوأواء . ويتشابه مديحا الشاعرين ، قال تميم بمدح أخاه :

المخجـل الغـيث راحتـاه إذا ... جاء بغيـــثين مرزمبَّيـــن

وقال الوأواء :

من قاس جدواك بالغمام فما ... أنصف فى الحكم بين شكلين

وقال تميم :

برزت كالشمس يوم أسعدهـا ... بل زدت نورًا على المنيريـــن

كأن فى السرج منك منتصبا ... بدر سماء ولـــيث شبـــلين

وقال الوأواء :

ينظر منك الأنام بدرَ دجى ... وصارمـــاً فاتك الغراريـــن

والشمسَ لما برزت بارزةً ... والأسَدَ الباسط الـــذراعين

وقال تميم :

يا ابن نبى الهدى وأفضل من ... يسمـــو بجديـــن هاشميين

من ذا كمنصورك المبارك أم ... معـــزٌّك الرافـــعين هذيـــن

أم من يدانـــيك فى أبوتـــه ... من علـــويِّين فاطمـــيين

وقال الوأواء لسيف الدولة :

قل لسمى الوصى يا ثانى الـ ... قَطْـر ويـا ثالث الربيـــعين

ويـا هلالا بدت مطالعـــه ... فى أفـــق بدريـــن تغلبـــيين

---

(١) ديوان الوأواء الدمشقى ص ١٧ .

(٢) ديوان تميم ص ٤٠٨ .

ويلحظ على النصين الأولين تشابههما فى المعنى العام ، واختلافهما فى التعبير ؛ وعلى النصين التاليين انفاقهما فى تشبيه الممدوحين بالشمس والبدر والأسد ، واختلافهما فى نسق التشبيهات وفى زيادة التشبيه بالصارم عند الوأواء ؛ وعلى النصين الأخيرين أن الشبه بينهما عام ؛ فإن تميما لما رأى الوأواء يذكر كلمة الوصى ذكرا عابرا مشيرا إلى التشابه فى الاسم بين الإمام على وسيف الدولة ، ويشيد بأصل الممدوح ، رد أخاه إلى الوصى والنبى ، وافتخر بالأصل الفاطمى ، وهذا الفخر صدى لذلك .

ولا نستطيع أن نقول إن تميما سارق ، فإن ما توارد عليه الشاعران معان عامة فى المدح . والأثر فى النسق .

الفصل الرابع
سائر الموضوعات
(أ) الوصف

قرأ تميم الكثير من الأوصاف البدوية والحضرية التقليدية فى الشعر العربى ، وأحب البيئة المصرية الزراعية الحضرية ، فراح يطالعها صباح مساء ، فيرى ظواهرها الطبيعية والإنشائية والاجتماعية . وكان هو من الشعراء الوصافين ؛ يدل على أصالة نزعته إلى الوصف أنه كان يبتدىء به بعض قصائده ، فقد افتتح بوصف الحصان قصيدة مدح بها أخاه[١] ، وبوصف الناعورة والرياض قصيدة هجا بها الحزب الأموى[٢] . وليس شعر الوصف عنده قليلا ، بل هو جانب كبير من جوانب الديوان ، بعضه مستقل ، وبعضه تابع كالمثالين السالفى الذكر .

يصف تميم الظواهر الطبيعية كالسماء والأجرام السماوية والهواء والسحاب والليل والنهار ، والصحراء والسراب والمورد ، والنيل والغدران والبرك ؛ ويصف المشاهد الإنشائية كالقصور والمجالس والفوارات والبرك الصناعية ، وكالأطلال ، وكالمراكب والسلاح والأنسجة وبعض الآلات الموسيقية والشموع ؛ ويصف بعض الحيوانات كالحصان والناقة وكلاب الصيد ، وبعض الطيور كالباز ؛ ويصف من النبات الرياض والكرم ، والفواكه كالتفاح والخوخ والعنب والمشمش والأترج والليمون ، والنيلوفر والياسمين والخرم والورد والنوار والسوسن والنرجس ؛ ويصف بعض الظواهر الاجتماعية كالاحتفال بالعيدين والنيروز* ؛ ويصف المأكولات أحيانا . وهكذا صور الموصوفات البدوية والحضرية .

---

(١) ديوان تميم ص ٣١١ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٤٥

ولتميم فى الوصف لغتان :

اللغة الأولى هى اللغة المتسمة بالوعورة . وتستخدم هذه اللغة حين ينظم الرجز ، فيصف به الفلاة والمطية والسراب والمورد والسلاح ، والفلك والسحاب والبرق والرعد والمطر وما يطلعه المطر من النبات ، والصيد ، وربما وصف بها السعى إلى الحبيبة ، أو الشرب . قال يصف الفلاة :

وصامت الجوّ بعيد الفرقد ... مشتبه الأعلام جهْم المشهدِ
مَرْتِ الربا عارى العراء فدفَد ... يحار فيه كل هاد مهتد
صلدِ السباريت صليب الجلمد ... يُمرِضُ فيه الريحَ بعدُ المقصد(١)

ويمضى الشاعر بعد هذه الأبيات فى وصف المطايا وغيرها باللغة نفسها . وله عدة منظومات من هذا النوع(٢) . ولعل صعوبتها راجعة إلى أنها فَنٌّ يلائمه أن يكون كذلك ؛ فقد ارتبط الرجز بالإغراب من جهة ، ودارت تلك المنظومات فى جو بدوى يوحى بلغة غليظة من جهة أخرى .

ومهما يحاول الإنسان فإنه لن يستطيع أن يتخلص من أثر بيئته . وإذا كان تميم قد نجح فى توعير لغته فإنه لم يستطع أن يتجرد من طبيعته الحضرية كل التجرد فى أرجازه ؛ قال :

وأنجم الجوزاء لم تبدد ... كأنها لآلئ لم تُعقَدِ
سابحة فى فلك من عسجد ... وتارة تسبح فى زمرد
سبح المدارى فى أثيث أجعد ... كأنما شعراه إذْ لم تخمد
جمانة فى كف عبد أسود(٣)

فهذا خيال حضرى ترف ، لا يكتفى بتشبيه النجوم باللآلىء ، فيشبهها بلآلىء منثورة ، تخوض فلكا من الذهب أو الزمرد خوض الأمشاط الشعر المجعد الطويل . ويخص الشِّعْرَى فيشبهها بحبة من الفضة فى كف عبد أسود . وما أشبه الصورة الأخيرة بقول المعرى فيما بعد :

---

(١) المصدر السابق : ص ١٣٢ .
(٢) المصدر السابق : ص ١٣ ، ١٩ . وانظر كذلك ص ١٧٥ .
(٣) ديوان تميم ص ١٣٤ .

ليلتى هذه عروس من الزنـ ـج عليها قلائـــد من جمان[١]

واللغة الثانية التى يستخدمها تميم فى الوصف هى اللغة السهلة . وهى التى تعالج الموصوفات الحضرية من ظواهر طبيعية وحيوية واجتماعية ، ومشاهد إنشائية .

ولم ينس الشاعر لغة الإنطاق فى الوصف ، فجعل القصر يتحدث عن نفسه فيقول :

إن يحسد الصبح إشراق فمعذورُ ... بى تشرق الشمس والأفلاك والنورُ

أطاعنى الحسن وانحط الجمال على ... سمكى وأسعد بنياتى المقاديـــر

فساحتى بابن هادى الخلق مشرقة ... ومنزلى بالعلا والمجد معمـــور

كأننى برج سعد ما يفارقه ... خفْض وطيب وتقديس وتطهير

يضاحك النيلُ أركانى مغازلـةً ... إذا بدت للصَّبا فيه قوارير

ولا تزال تلاقينـــى بنفـــحتها ... من كل وجه رياض أو أزاهير

ولست بالقفرِ والبيداءِ محدقـةً ... ولا علىّ غبار الترب منثور

من حلَّنى فهو صافى العيش مبتهج ... ومن رآنى قرير العين مسرور[٢]

البيئة المصرية فى وصف تميم :

من حق البيئة المصرية علينا أن نخصها بوقفة لنراها فى شعر تميم ، ففى شعره تصوير لمظاهرها المتميزة ، ومشاهدها العامة . فالنيل العظيم قد تكرر الحديث عنه فى الديوان ، يتفرغ له تميم نيصفه حينا[٣] ، ويصفه ويصف ألوان متعته حينا آخر[٤] . وقد تكرر وصفه للنيل أيام الفيضان[٥] .

---

(١) سقط الزند جـ ١ ص ١٢٣ .

(٢) ديوان تميم ص ١٧١ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٤٠ ، ٢٥٥ . انظر وصف بركة متصلة به ص ٩٠ ، ٢٤٢ .

(٤) المصدر السابق : ص ٦١ ، ٦٤ ، ٢٤١ ، ٢٨٥ ، ٣٢٤ .

(٥) المصدر السابق : ص ٦٤ ، ١٤٠ ، ٢٥٥ ، ٢٨٥ .

قال يصف إقبال النيل فى مدحة من مدح أخيه :

وزادت مدود النيل حتى كأنها ... أتتك ارتغابا تقذف الموج أو رهب
كأن بنات الماء فاضت على الثرى ... يمسك ، ومجت فيه عنبرها الترب
فقد غصت الخلجان حتى كأنها ... مدائن تدعو من جيوشك بالحرب[1]

وقال يصف النيل وركوبه :

ياحبذا حلوان فالنيلُ ... ربع بحسن اللهو مأهول
رحت ومركوبى به أدهم ... على جناح الريح محمول
كأنه فى الماء زنجية ... لها من الموج أكاليل
والنيل فى رونق شمس الضحا ... سيف صقيل المتن مسلول
حتى إذا ما درجته الصبا ... وماج منه العرض واطول
فهو لمن أبصره جوشن ... على مهاد الأرض مسدول
أو حُبُكٌ ترصيعها جوهر ... مبدد فيهن محلول
نادمتُ فيه أحوراً كشحهُ ... أهيف فوق الردف مجدول
أكثر مايبذل من وصله ... لثم على الكأس وتقبيل[2]

وفى الديوان صور متكررة لوصف الاحتفال بالعيد ، منها وصف الاحتفال بعيد الفطر[3] :

لئن أتى العيد من لقياك فى فرح ... لقد مضى الصوم من منآك فى ثُكُلِ
برزت فيه بروز الشمس طالعة ... وقد أعاد الضحاء النقعُ كالطفَلِ
والبيض تزهر ، والأعلام خافقة ... والأرض فى رهج والجو فى زجل
فليس يصرف لحْظَ العين مرسله ... إلا إلى سابح فى الأرض أو بطل
والشمس فوق مدار الجيش قد حُجبت ... فى جوها بمتون البيض والأسَل
حتى بلغت المصلَّى خاشعا نُسُكاً ... خشوع جدك فى أزمانه الأول
فقمتَ فيهم خطيبا مِصقعاً لَسِنًا ... بكل منفصل نثرا ومتصل
فأىُّ قلب جليدٍ لم يرقّ لهم ... وأى موعظة غراء لم تُقَل
بلاغةٌ نبوىُّ النظم محكمها ... وخطبة لم ينلها مُهْمَلُ الخطل

---

(١) ديوان تميم ص ٦٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٢٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٤ انظر الصور المماثلة ص ٤٣ ، ١٤٣ ، ٣٤١ ، ٤١١ . .

أبنتَ بالحق ما قد كان مشتبها ... من الهدى فتجلى كل مشتَكِل
برهان صدق شفيتَ الأولياء به ... وسقته بين ريث القول والعجل
نالوا بما سمعوا الزلفى ، فما افترقوا ... إلا وهم من رضا الرحمن فى جمل
صلُّوا وراءك ، والأملاك خلفهم ... مبلِّغين لأعلى السؤل والأمـــل

وهذه صورة صادقة ، رآها الشاعر فرسمها . وها هو المقريزى ينقل عن المسبحى وصفا لعيد الفطر ، وما كان فيه من ركوب الخليفة فيقول[1] : « وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب ، والقباب الديباج بالحلى ، والعسكر فى زيِّه من الاتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل ، والسيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب بالجوهر ، والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة . وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده ــ عليه السلام ــ فصلى على رسمه وانصرف » :

أرأيت الشبه بين ما جاء فى النص السابق وبين ما جاء فى شعر تميم ، وإن عبَّر كل عن احتفال العيد بأسلوبه الخاص ؛ فأطال أحدهما وفصل حيث أوجز الآخر وأجمل ؟ إن رواية المؤرخ المصرى تثبت أن تميما صادق الأداء .

ولم ينس الشاعر النيروز ، وهو عيد جرى الفاطميون على الاحتفال به كل عام ، فوصفه أيضا بعد الفراغ من تهنئة أخيه[2] :

ذكرتك ما بين كرِّ الكؤوس ... وقد أقبل اللهو مُرْخَى العِنان
وقد جاوب الزيرَ فى جذبه ... مع البَمِّ ترجيعُ صوت المثانى
وجـــاوب قمريـــةٌ فاختٌ ... وعالتهمـــا نغمـــات القيـــان
ونحن نقسِّم وسط الكـــؤوس ... نضارا له حبَبٌ كالجمـــان
ولما تبـــددت مراجيحنـــا ... تحركهـــا بالغـــوانى الغـــوانى
ونحن من الماء فى وابـــل ... مشوب بخمـــر ومسك وبـــانِ
فَمِـــنْ مُعْجِـــل رش زرَّافـــةٍ ... ومـــن قاذف بسلاف القنـــانَ
وقد مد فى النيل بدرُ الدجى ... صفيحةَ سيـــف صقيـــل يمان

(١) الخطط جـ ١ ص ٤٥١ .
(٢) ديوان تميم ص ٤٢٦ .

ألا ما أطرف ما صور تميم صخب الاحتفال ، وما دار فيه من مجون ولهو في الليل ، على شاطىء النيل الذى يتألق تحت ضوء القمر كالسيف اليمانى المصقول ، نسمع الموسيقى تصدح ، والمغنيات تغنى ، والأراجيح تهزج ؛ ونرى الشَّرْب تدور عليهم الكؤوس ، والعابثين يرشون الخمر على الناس بالمنازف والقنينات ؛ ونبصر النسوة عند الأراجيح طائفتين : طائفة تركب وطائفة تدير . ومن يعرف الموالد المصرية يجدها فيما قال تميم ؛ فالعزف والغناء والسكر والتأرجح والمعابثات عناصر رئيسية فيه ، ذهبت القرون وبقيت هى ، وكأنها أطياف تعاود مصر من الماضى . وما أشبه ما قاله تميم بما وصف به المقريزى النيروز[١] .

وقد أشار تميم إلى عيد الغطاس[٢] ، ووصف مراكب الاحتفال التى كان يشرف عليها[٣] . ومازلنا إلى اليوم نحتفل بإرسال الكسوة إلى الكعبة . وهذه سنة سنها لنا الفاطميون . ولم يفت تميما أن يصف الكسوة أو الشمسة كما يسميها هو . وقد وصف المقريزى كسوة أعدها المعز للكعبة ، وأوصافها تكاد تكون شرحا لأبيات تميم[٤] ؛ فليس بعيدا أن تكون الكسوة التى وصفها المقريزى هى التى وصفها تميم ، لأن المعز لم يعش فى مصر إلا أقل من ثلاثة أعوام .

والشىء الجلى فى شعر تميم أنه كرر وصف الاحتفال بعيد الفطر ؛ حتى إن القارىء ليظن أن أوصافه الطويلة للموكب والخطبة والصلاة جميعها لعيد الفطر ؛ فإنه ذكر فى بعضها اسم هذا العيد ، وترك بعضها دون أن يذكر فيه أى العيدين ، ولم يذكر عيد الأضحى ذكرا صريحا فى أى منها . ولعل هذه العناية راجعة إلى أن عيد الفطر كان أبهج الأعياد ، وأحبها إلى الناس ؛ لأن بشير إتمام فريضة العزم والحزم . وقد اشتط شاعرنا مرة حين هنأ أخاه بالعيد ، فأظهر الشماتة بزوال الصيام ، وأعلن ترحيبه بشوال المعين على اللذة والقصف[٥] .

---

(١) أنظر الفصل الأول من الباب الأول .

(٢) ديوان تميم ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٤) ديوان تميم ص ٩٥ . أنظر الخطط جـ ١ ص ٨٥ ، أو اتعاظ الحنفا ص ١٩٣ ، الفاطميون فى مصر حاشية ص ٢٥٦ .

(٥) ديوان تميم ص ٤١٣ .

وفى الديوان أوصاف أخرى غير ما ذكر ؛ فقد وصف الشاعر بعضَ مشاهد مصر كالرياض والبساتين التى أكثر الفاطميون من إنشائها[١] ؛ ووصف النواعير الدائمة الأنين[٢] ، والقصور[٣] . وبين الفينة والفينة نسمع صليل النواقيس ينبعث من دير القصير ، مألف تميم ومحط أنسه الذى ذكره كثيرا ووصفه[٤] . ولكن فاته وصف الأهرام وأبى الهول فلم يذكرها فى شعره قط ، مع أنها كانت تقوم على طرف الصحراء غير بعيدة منه .

وصف تميم والشعر العربى :

قلد تميم الشعراء القدامى فى وصف البيد ووحشتها وإقفارها ، وما فيها من أطلال وآل ، وما يختلف عليها من ليل ونهار ، وسحاب وبرق ورعد ، ومطر قد يجرى فيها فيطلع بعض النبات ؛ وجاراهم فى وصف الراحلة والسرى فى جوف الصحراء . واصطنع لأوصافه تلك لغة قريبة من لغة القدامى . ومعروف أن الأوصاف — ولاسيما الحضرية — من أبرز فنون الشعر العربى المتحضر . ويرى آدم متز أن الشعر الوصفى كان عوضا عن التصوير الذى نبذه العرب ، ثم قوى تياره لما حمل العرب الشعوب المحكومة على استبدال اللغة بالريشة ، فأصبح شعر الوصف متنفسها الوحيد[٥] . ويعد الصنوبرى وكشاجم من وصافى الطبيعة الكبار[٦] . ويقول : « وفى أواخر القرن الرابع أولع الأدباء بوصف جميع الأشياء على اختلافها ؛ فنجد وصف الميزاب إلى جانب وصف الشاعر صورته فى المرآة ، وذلك إرضاء لرغبة الناس فى المستحدث . وقد وصف المأمونى الشاعر ببخارى جميع أصناف الأطعمة من جبن وزيتون ، والسمك المشوى ، وماء الخردل ، والبيض المفلق والفالوذج والهريسة وغيرها كثير[٧] » .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٨ ، ١٧١ .

(٤) أنظر ديوان تميم ص ٤٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٣٤٣ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣

(٥) الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٤٢٧ .

(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٧) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٤١ .

والحق أن نزعة الوصف كانت قوية فى القرن الرابع حتى لقد نافس النثر فيها الشعر . ولكن الولوع بوصف كل شيء لم ينتظر نهاية القرن الرابع ؛ فإن ديوان كشاجم الذى عد من وصاف الطبيعة فيه قطع كثيرة يصف بها الأطعمة والعود والفرجار والدواة والمحبرة والسكين والقلم وغيرها . وكشاجم من الشعراء الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن الرابع . والقرن الرابع قرن تميم ؛ فما كان له أن يعتزل تيار الوصف القوى فيه ، فجاراه ، وعالج موضوعات عالجها معاصروه .

تميم والبحترى : وصف البحترى خروج المتوكل لصلاة عيد الفطر فقال :

أظهرت عز الملك فيه بمحفل ... لجب ، يحاط الدين فيه وينصرُ
خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت ... عُدَداً يسير بها العديد الأكبر
فالخيل تصهل ، والفوارس تدعى ... والبيض تلمع والأسنة تزهر
والأرض خاشعة تميد بثقلها ... والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماتعة تَوَقَّدُ بالضحى ... طورا ، ويطفئها العجيج الأكدر
حتى طلعت بضوء وجهك فانجلت ... تلك الدجى وانجاب ذاك العِثْيَرَ
وافتن فيك الناظرون : فاصبع ... يُوما إليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يُزْهَى ولا يتكبر
فلو آن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المنبر
أيدّتَ من فصل الخطاب بحكمة ... تنبى عن الحق المنين وتخبر
ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر
ومواعظ شفت الصدور من الذى ... يعتادها وشفاؤها متعذر
حتى لقد علم الجهول ، وأخلصت ... نفس المروّى ، واهتدت المتحير
صلوا وراءك آخذين بعصمة ... من ربهم وبذمة لا تخفر[1]

وإذا رجعنا إلى الوصف الذى رأينا فيه خروج العزيز لصلاة العيد وقرناه بوصف البحترى ، وجدنا كلا الخليفتين يسير فى جيش كبير يتألق سلاحه ، ويثير ترابا يحجب أشعة الشمس ، وقلما وقفت الرعية تطالع الموكب ، فإذا بلغ الخليفة

(١) ديوان البحترى جـ ١ ص ١٠ .

المصلى دخله بخشوع ، وصلى بالناس ، ثم صعد المنبر فخطب خطبته بليغة أنذر فيه وبشر ، وشفى الصدور ، فما انصرف المصلون الا وقد غفر الله لهم . وتتكرر هذه العناصر المشتركة فى أوصاف تميم المتعدة لموكب أخيه . وإذا كان ثم بعض شبه بين بيت تميم :

فليس يصرف لحظ العين مرسله إلا إلى سابح فى الأرض أو بطل

وبين بيت البحترى :

وافتن فيك الناظرون : فإصبع يُومَا إليك بها وعين تنظر

فإن الشبه تام بين بيت البحترى وبيت تميم فى نص آخر يصف الموكب :

فمن مشير براحة صُرفتْ إليك أو ناظر بعينين[1]

وإذا كان هناك شيء من الشبه بين بيت تميم :

حتى بلغت المصلى خاشعا نسكا خشوع جدك فى أزمانه الأول

وبين بيت البحترى :

ذكروا بطلعتك النبى فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبروا

فإن الشبه أقوى بين بيت البحترى هذا وبين بيت تميم فى وصف من أوصافه :

تأملوا من نبيهم خلقاً فيك وخلقاً محمديّنين[2]

وإذا كانت قطعة تميم التى رأيناها من قبل ليس فيها ما يشبه معنى بيت البحترى :

فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لسعى إليك المنبر

فإن قطعة أخرى لتميم فى وصف الاحتفال بالعيد قد حوت ما يشبه هذا المعنى :

ولو نطقت أحجار أرض لسلمت عليك المصلى أو أتتك تسير[3]

ولا يفوتنا أن نلحظ ورود عبارة البحيرى « صلوا وراءك » فى وصف تميم الذى رأيناه ، والشبه بين عبارة البحترى « والأسنة تزهر » وعبارة تميم « والبيض تزهر » . ولا تدع المشابهة بين أوصاف تميم ووصف البحترى مجالا للشك فى أن

---

(١) ديوان تميم ص ٤١١ . أنظر كذلك ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤١١ .

(٣) ديوان تميم ص ١٤٣ .

الشاعر المتأخر متأثر بالشاعر المتقدم . وكأنما عزَّ على تميم أن يرى المتوكل فى هالة الموكب الدينى دون أخيه .

تميم وشاعرآن آخران :

ذكر صاحب زهر الآداب قطعة لتميم فى الوصف ، وأشار إلى أنه اعتمد فيها على الحسن بن وهب[١] .

وفى وصف تميم للشمعة يقول :

إذا ما رأسها قُطِف استفاقت وجانبها التخوُّف والحذار[٢]

وكأنما راقته المفارقة فى البيت فكررها فى آخر :

يُجَزّ لإصلاحها رأسها فإفسادها عند إصلاحها[٣]

وهذه المفارقة مما أولع به السرىُّ الرفاء قبله ، فقال عن الشمعة :

وإذا عرتها مرضة فشفاؤها ضرب الرقاب[٤]

ثم راح يكررها فى غير موضع[٥] .

---

(١) الحصرى : زهر الآداب جـ ٣ ص ٤٥ .
(٢) ديوان تميم ص ٢٢٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥١ .
(٤) ديوان السرى الرفاء ص ٧٢ .
(٥) المصدر السابق ص ١٨٦ ، ٢٧٦ .

ب ـ الفخـــر

ينظم تميم فى الفخر القطع المستقلة ، ويقف عليه جوانب من شعره فى الفنون الأخرى كالمديح . ويدور فخره حول شجاعته وصبر وكرمه وعقله ، وغير ذلك من الصفات الحميدة . ويفتخر أيضا بعلمه وأدبه ، وحسبه ونسبه . وربما أدار القطعة حول صفة واحدة من الصفات المذكورة كقوله :

ومشفقة تخشى على من الردى تعنفنى فى بعى الصبر بالفتك
فقلت لها : لا تعذليني على العلى أليس مذاق الذل شرا من الهلك
يعز على سيفى ورمحى وهمتى جلوسى جبانا تحت حادثة أبكى(١)

وكان تميم معجبا بنفسه جدا ؛ فافتنّ فى الفخر بها ، فتارة يقول مثل قوله السابق ، وتارة يقول وهو يصف الخمر :

أرقّ من فهمى ومن تمييزى(٢)

أو يقول وهو يصف المرأة :

وحكـــــى أديمك رقـــــةً وبضاضةً شعـــرى الرقيقـــا(٣)

أو يقول وهو يصف شعرا له :

وهاكها تشبه فكرى الـــذى نظّمها فى لفظه أو حكى(٤)

وفى البيت الأخير فخر مركب ؛ إذ أشاد الشاعر بفكره فى الوقت الذى أشاد فيه بشعره ! وهو كثير الفخر بالشعر ، يواجه به أخاه مرارا فى أخريات قصائده كما فى قوله :

فدونكها من مادح لك ماجد تذل له شوس القوافى وتخضعُ
له فطنة لم تنبُ يوما سهامها عن الغرض الأقصى ولا تتمنع
على أنه أمسى وأبيات شعره جُمانٌ على بردىْ علاك مرصع
ثناء كأن المسك من طيب نشره إذا ردّدتْ ألفاظـــه يتضوع(٥)

---

(١) ديوان تميم ص ٣٠٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٠٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٦٢ .

وقد يقلد تميم فى فخره ، فتراه بدويا أحيانا . وأكثر ما يكون ذلك فى الرجز حين يصف مخاطرته بنفسه للوصول إلى المحبوبة ، أو حين يصف سراه فى الليل الرهيب بقلب ثابت ، أو حين يتحدث عن صبره على تعب السفر . ومن الفخر البدوى ـ وهو من غير الرجز ـ قوله :

وطَروق ليل فاتـه مستنبحـا ... حتى يخيل من العواء سمعمعا
أوقدتُ نارى باليفـاع لعينـه ... ودعوتـه وهْنـا إلى فأوضعـا
وقريته بشرى فبـات ممهـدا ... وألم غرثانا فألفَـى مشبعـا[1]

وقد يغلو الشاعر فى فخره فيبلغ درجة الإحالة :

همـى أنافت بى على الهمم ... قبل الفطـام ومبلـغ الحلُـم
وسما بقـدرى فى العـلا أدبى ... حتى وطئتُ كواكب الظلَـم
تثنـى على إذا سكتُّ يدى ... بسماحها وتضيىء لى شيمى[2]

ويذكرنا البيت الأخير بقول أبى الطمحان القينى :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم العقد ثاقبه[3]

والشاعر غال جدا فى قوله الذى يبدأ بهذا البيت :

أنـا المرئ بالأفهـا ... م والمعـروف بالخبُـر

وقد كرر كلمة « أنا » ثلاثا وثلاثين مرة فى أبيات متتابعة بلغت عشرين[4] .

ولم يكن تميم يفخر فى اليقظة ، بل كان يفخر وهو نائم . قال جامع الديوان : « ورأى فى النوم رجلا يسأله عن علمه بالنجوم ، فلم يجاوبه بشىء ، فإذا بهاتف يقول له : قل يا مولاى :

عندى أعاجيب من علم النجوم فلو ... بيـنتها لتناهـى دونها الكلـمُ
لى فى العلوم وفى الأفضال سابقة ... وكل مَعْلُـوَةٍ مأثـورة قدم[5]

---

(١) ديوان تميم ص ٢٧١ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٧٤
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٩
(٤) ديوان تميم ص ١٧٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٩١

وهذان البيتان ليسا إلا تعبيرا عن إعجاب الشاعر بنفسه ؛ فليس الهاتف إلا عقله الباطن .

وإذا كان الشاعر مقلدا فى فخره البدوى ، فإنه صادق فى فخره بشجاعته وعلمه وكرمه ؛ فقد حارب فى الشام فى جيش أخيه ، وكان واسع المعرفة كما يدل شعره ، وكان كريما كما دل مدح أبى الرقعمق له .

فخر تميم والشعر العربى :

قلد تميم فى فخره فبدا فتى بدويا ، وصدق فى فخره فلبس ثيابه الحضرية وبدا على حقيقته ، وإن بالغ أحيانا . وربما ظن فخره بشعره تأثرا بالمتنبى الذى طالما فخر بشعره ، ولكن الحق أن الفخر بالشعر يرجع إلى عصر سابق لعصر تميم والمتنبى ؛ فكثيرا ما فخر أبو تمام بشعره[١] . والمتنبى — مع ذلك — بين الأثر فى فخر تميم .

تميم والمتنبى : لاشك أن المتنبى شاعر فخور . ولفخره نغمة خاصة يحسها القارىء كلا متكاملا ؛ وهى تأتلف من معان عليها مسحة الغرور ، تلابس ألفاظا معينة استدعتها تلك المعانى ، فإذا قرىء ترك فى النفس أصداء طنانة متميزة . واقرأ هذا الفخر الحماسى لتميم :

سيستقلُّ بنصرى صولةٌ ذكر ... وصارم ليس ينبو حده خَذِمُ
لا أحمد العزم ما لم تنحطم قضب ... من السيوف ، ولم تحصد بها لمم
ولم يجل بالقنا والخيل ساهمة ... فتى ، ولم يجر بين الحجفلين دم
ولم تشن على الأعداء لى دُفَعٌ ... تظل منها سيوف الهند تبتسم
لا فخر للمرء إلا حد منصله ... لا ما تزخرفه الألفاظ والقلم[٢]

وقد قيل هذا الفخر فى أول عهد تميم بالشعر . وفيه من فخر المتنبى نغمته ، وفيه شىء من معانيه ، وشىء من عبارته فى المدح . فالتهديد بمهاجمة الأعداء على هذا النحو موجود فى قصيدة قالها المتنبى فى أول عهده بالشعر أيضا . وهذه بعض أبياته مختارةً :

سيصحب السيف منى مثل مضربه ... وينجلى خبرى عن صحة الصمم
لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت مازال منتظرى ... حتى أدلت له من دولة الخدم[٣]

---

(١) أنظر ديوان أبى تمام ص ٢١ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ١١٩ .
(٢) ديوان تميم ص ٣٦٤ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٣١٤ .

فكلا الشاعرين سيستعين بسيفه ورجاله فى حرب غامضة لاتدرى على من ستشن . وواضح اتفاق النصين فى البحر والقافية وإن اختلفا فى حركة الروى . وبين بيت تميم الثالث وبيت المتنبى الثانى اتفاق لفظى . وابتسام السيوف فى البيت الرابع من النص الأول يذكر بقول المتنبى مادحا :

إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا من التيه فى أغمادها تتبسم(١)

والبيت الأخير من شعر تميم يحمل المعنى الماثل فى بيت المتنبى :

حتى رجعت وأقلامى قوائل لى ! المجد للسيف ليس المجد للقلم(٢)

ويعجب تميم بمعنى من معانى المتنبى وهو استبدال الفخر بالنفس بالفخر بالآباء ، فيردده فى مثل قوله :

ليس من ساد عن وراثة جد وبحظ من الحظوظ متاح
يستحق الثنا ، ويستوجب الشكـ ـر ويحوى مدائح المداح
إنما السيد المعلى المفدى من علا للعلا صدور الرماح
ورمى ليل كل خطب بهيم بذكاء أضوا من المصباح
واقتنى العز بالظبا والعوالى واشترى الحمد بالندى والسماح
فكذا تُبْتَنى المكارمُ والمجـ ـدُ ويُسْتَبعدُ العدو الملاحى
لاكمن قد جرى برجل سواه وسما طائرا بغير جناح(٣)

وهذا المعنى من المعانى المحببة إلى المتنبى ؛ لأنه كان من أسرة لا وزن لها ، فكان يستبدل الفخر بنفسه بالفخر بأسرته ، فيقول مثلا :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا حث ، والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيله

وهذا المعنى متكرر عند أبى الطيب(٤) .

تميم وابن هانىء الأندلسى : عارض تميم بمدحته مرثية لابن هانىء(٥) . وفى المرثية فخر واضح الأثر فى فخر المدحة ؛ فقد قال ابن هانىء :

---

(١) المصدر السابق جـ٢ ص ٢٥٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤١٣ .
(٣) ديوان تميم ص ٩٢ . أنظر كذلك ص ٢٧١ .
(٤) أحمد الكندرى وآخرون : المفصل فى الأدب العربى ص ٧٣ .
(٥) تبيين المعانى فى ديوان أبن هانى ص ٧٨٥ ، وديوان تميم ص ٨ .

ولى زفـرات تُذيب المطـى وقـلب يسد على الفـلا

فضمن تميم الشطر الثانى ناصبا كلمة مرفوعة فى الأصل :

على أن لى عزمـات إذا تنـوهض هضن طوال القنـا
ونـفسا تعـنُّ بها الحادثـات (وقلبـا يسد على الفـلا)

وقال ابن هانىء :

فلو كنت أطوى على عزمة تكشف ليلى عن الشنفـرى

فأخذ تميم المعنى وتصرف قائلا :

وبّـرزتُ عزمـا على ثابت وأربيت فتكا على الشنفـرى

فإذا كان ابن هانىء يقرن نفسه بالشنفرى فى الفتك ، فإن تميما يجعل نفسه أفتك من الشنفرى ، وأعزم من صعلوك آخر هو تأبط شرا .

وعند شاعرنا معان أصلها شكوى قلبها هو فخرا ، فقد قال ابن هانىء :

ومن لى بمثل سلاح الزمان فأسطو عليـه إذا ما سطـا

فقال تميم :

وإنا لقوم نروع الزمـان ولسنا نراع إذا ما سطا

وقال ابن هانىء يشكو ويفخر فى آن :

أشيمك بابـرق شيم النجـوم وما فيك لى بلل من صدى
كلانـا طوى البيـد فى ليلـه فأضعفنـا يتشكـى الوجـى

فقال تميم :

فلا تستشيما بروق السحـاب فللـرى فى شيم برق الظبـا
أعينـا أخـا لكمـا لم يبت على طول مسراه يشكو الوجى

كذلك افتخر تميم بن المعز المعتز بنفسه أيما اعتزاز . وقد تلون فى فخره ؛ فقلد غيره حينا مغترباً عن بيئته ، وصدقنا أحياناً إذ صور نفسه العامرة بالعزة ؛ وجارى الشعراء وهو يفتخر ، وتأثر ببعضهم ، وكان المتنبى أظهرهم فى فخره أثرا .

جـ ـ الشكوى

كان المنتظر أن يكون تميم هو الخليفة الخامس فى ثبت الخلفاء الفاطميين . ولو أنه كان حسن الطالع لعرفت مصر سلسلة من الخلفاء غير العزيز والحاكم ومن أتى بعدهما . ولكن أباه عزله ، ولم يكن ما بينهما على ما يرام . ونعرف أنه لما تولى العزيز سعى الوشاة بين الأخوين ، وألّبوا الخليفة على الأمير . ولما اتسع نطاق الفتن فى الشام أصاب شرها الشاعر ؛ فحمل سيفه وخرج ليقاتل أعداء الدولة التى حرم زعامتها ، ولقى الشدة من حكومتها . ولم يقف الشر عند هذا الحد فقد تجاوزه إلى شىء يتسلى به تميم ، ويفرغ فيه همومه ، ألا وهو الشعر ، إذ راح حساده يزعمون أنه ليس له ، وأن هناك من يصنعه له[1] . ولا شك أن هذه التهمة التى تعود الشعراء أن يتهم بها بعضهم بعضا قد آلمت الشاعر . ولا يستطيع أن يتصور مدى إيلامها إلا شاعر يواجه بمثلها . وهكذا أصيب تميم فى نفسه وفى فنه ؛ فكثر أنينه ، وجأر بالشكوى من الناس والزمان . وانسكبت شكواه فى قطع مستقلة انتثرت فى الديوان هنا وهناك ، أو اندست فى قصائد أخرى قالها فى المديح أو الخمر أو غيرهما .

أراد مرة أن يمدح أباه فابتدأ المدحة قائلا :

لو أن أيام هذا الدهر تحتشمُ ما كان عنهن منى العذل ينصرمُ
وكيف يرضى عن الأيام من عبثت به فأنوارها فى عينه ظلـــم[2]

ثم يلتفت إلى الناس فيحقرهم ، ويعود إلى الشكوى مرة أخرى . وهذا الابتداء يعبر عن ضيق الشاعر بواقع حياته فى ظل أبيه ، وضعه فى بداية القصيدة ، ولم ير أن يؤخر موضعه من القصيدة ليبدأ البدء الذى تعوده المادحون !

ويجمع الشاعر بين شكواه الناس وشكوى الزمان فى قصيدة وجهها إلى أخيه أولها :

رضيت بحكم سابقة القضاء وإن أضحت تكدر صفو مائى
وهل يَسْطيع أهل الأرض حلا لعقد شد من فوق السمـــاء

---

(١) راجع تصدير ديوان تميم .
(٢) ديوان تميم ص ٣٦٣ .

إلى كم تهدم الأحداث ركنى ... وترمينى بجور واعتداء
يعاقبنى الزمان بغير ذنب ... وتخذلنى يدى وذوو اصطفائى
ويسعى لى لمن لوجاء ساع ... به عندى لخضّب بالدماء
حياتى بين واش أو حسود ... وساع لى يُسَرّ بطول دائى[1]

وبعد أن يقضى الشاعر أربه من العتاب يختم القصيدة بهذا البيت الشديد :

وعيشى زائد طيبا إذا لم ... يكدره لديك بنو الزناء

وكان الشاعر يضيق بالشكوى إلى الناس ؛ لأن قلوبهم لا تلين ، فيلجأ إلى الطير شاكيا :

أقول لسرب من حمام عرضن لى ... يغردن فى أعلى الغصون ويندبنا
ويسكنّ فى خضراء ناعمة الربا ... أنيقة روض النبْت آنسة المغنى
بوارح لا يخشين بيناً ولا نوى ... رواتع لا يعرفن هما ولا حزنا
فقلت هنيئا للحمام أمانه ... وإن كانت الأيام لم تعطنى أمنا
أسرب حمام لو لقيتُن بعض ما ... ألاقى لأصبحتن أول من يضنى
ولو قد علمتُنّ الذى أنا عالم ... لما ناح منكم هاتف لاولا غنى[2]

فهو يرى الحمام على الأفنان الخضراء يغنىّ حينا ، ويندب الهديل المفقود حينا ، لا تزعجه قعقعة سلاح ، ولا يعصر قلبه هم ؛ فيهنئه بحياته الوادعة ، ويشكو إليه ما لو لقيه لأخرسه .

وربما ضاق الشاعر بالشكوى إلى أى كائن ؛ فالناس لا يفيدون ، والله يعلم ما تخفى الصدور ، فما أوفق أن يترك الشكوى حينئذ ويصبرَ ليُثاب :

عدانى عن الشكوى إلى الناس أننى ... عليل ومن أشكو إليه عليلُ
ويمنعنى الشكوى إلى الله علمه ... بجملة ما ألقاه قبلَ أقولُ
سأسكت صبرا واحتسابا فإننى ... أرى الصبر سيفا ليس فيه فلول[3]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ .
(٢) ديوان تميم ص ٤٢٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٢٦ .

شكوى تميم والشعر العربى :

تذكر القطعة التى شكا فيها تميم إلى الحمام سنة جرى عليها العذريون فى شعرهم ، وهى أن يبثوا الطير ما يلقونه من تباريح الحب . وتميم لا يشكو إلى السرب هواه فى هذه المرة ، ولكنه يشكو همومه التى ابتلى بها .

تميم والمتنبى : إذا قلبنا الطرف فى ديوان تميم وجدنا المتنبى ذا أثر فى شكواه . فأبو الطيب كان شكاء . وإذا أعدنا النظر فى الشكوى التى فى مطلع المدحة رأينا أثر المتنبى فيها ؛ فإن لهجتها فى الحديث عن ظلم الأيام هى لهجته . والشطر الثانى من البيت الثانى من ذلك المطلع الكئيب هو من أنقاض بيت المتنبى :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم[١]

ويقول تميم :

أرانى إذا ما رمت أمرا يعوقنى ... من الدهر والأيام عن كونه طرد
وأصبح فردا فى مرامى ؛ ومن يرم ... عظيما يقل المسعدون له بعد[٢]

وهذان البيتان معتمدان على بيتى المتنبى :

أهم بشىء والليالى كأنها ... تطاردنى عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان فى كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعد[٣]

ولكن اعتماد تميم على المتنبى فى الشكوى كان محدودا ؛ فلم يطل النظر إليه كما فعل وهم ينظم مدائحه فى أبيه وأخيه . لقد كان له مندوحه عنه ، كان فى غنى عنه وعن غيره بما امتحن به مستقبله ، وعلائقه بأسرته ، وبما ابتلى به من مرض ، وحاسد لفنه .

---

(١) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٢٦١ .
(٢) ديوان تميم ص ١٠٣ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ١ ص ١٧٩ .

د ــ الحكمة والموعظة

للحكمة نصيب ما فى شعر تميم . وهى تنتظم فى سلك الفنون الأخرى كالمديح ، أو تنفرد بقطع مستقلة كما فى قوله وقد اختبرِ عود فى حضرته :

جربــوا عودا فقــلت لهم إذ أصابــوا : حبــذا وردى
هكــذا فى النــاس ذو كرم وليــم فاسد العقــد(١)

سمع الشاعر موسيقى العود المختبر . وكان يتوقع أحد أمرين : أن يكون العود مرضيا أو يكون غير ذلك . فذكرته تجربة العود بتجاربه فى الحياة ، تلك التجارب التى تكشف حقائق الناس ، فيحمد هذا كما حمد العود ، ويذم ذاك كما كان العود سيذم لو أنه اتضح عيب فيه .

ويفكر تميم فى الزمن ، فيراه متقلبا لا يدوم على حال ، فينطق . بمثل قوله :

لا تأمن الدهر الغيور وإن صفا لك سلمه بعد الوغى وتحلما
وإذا جرى لك بالسعود فداره واحذر تقلبه وإن هو أبرما(٢)

ويردد الشاعر حكما تتصل بالموت فى مطالع مرائية ؛ فيرى أن كل حى فان وصائر إلى الله لأن الموت محتوم على الناس : عظيمهم وحقيرهم ، يدركهم أينما كانوا ، فيقد أعمارهم بسيوفه القاطعة ، فما أهون هذه الحياة مهما طالت . ونحن مع ذلك نغفل عن الموت الذى لا يغفل عنا ، ونخدع بالحياة ، ونغر بأمانيها ، ونفكر فيها ، وما أجدرنا أن نفكر فى الموت ؛ فلن يسلم من غرور الحياة إلا من جعل الموت نصب عينيه(٣) .

وكان تميم يفكر أحيانا فى المعاصي التى يباشرها هو ويباشرها الناس ، مع أنهم سيحملون تبعتها على عواتقهم يوم يودعون هذه الحياة ؛ فيعجب من هذه الحال ، ويعجب كل العجب من الذين يقترفون المعاصى ملحدين ؛ فيرى أولئك ضعاف العقول ؛ لأن من أنشأهم أول مرة يحييهم كذلك !

---

(١) ديوان تميم ص ١٢٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٠٧ .
(٣) راجع المصدر السابق ص ١٤٧ ، ٢٢٦ ، ٤٠٦ .

ياعجبا للناس كيف اغتدوا ... فى غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن ... لهم على إحدى المعاصى ثبات
من شك فى الله فذاك الذى ... أصيب فى تمييزه بالشتات
يحييهمُ بعد البلى مثلما ... أخرجهم من عدم للحياة[1]

ولتميم حكمة خلقية عملية . فتراه مرة ينصح المجلود أن يحرص على الإفادة ، وطيب الذكر ، والتواضع فيقول :

إذا الدهر أعطاك القياد مملكا ... ودارت بما ترجوه يوما سعودهُ
فلا تعمَ فيه عين قلبك حيرةً ... وخذ وأفد من كل ما تستفيده
يموت الفتى طفلا وكهلا وعبطة ... ويبقى على الأيام والدهر جوده
فكن لجميع الناس فيه مشاركا ... فعما قليل سوف تصحو رعوده
ولا تتكبر إن قدرك فوق ما ... ملكت ، وإن الكبر مالا يزيده
وزد لعطاء الله ذل تواضع ... فإنك والأقوامَ طرا عبيده[2]

وللشاعر حكمة تتعلق بالحمية والشجاعة كقوله :

تميط الأذى عن حامليها الصوارم ... وتبنى المعالى للكرام المكارم

* * *

وما تنفع البيض البوَاتر صحبها ... إذا لم تكن يوما ظُباها العزائم
وما الحلم بالمحمود فى خلق الفتى ... إذا لم يكن للحلم جهل ملازم[3]

تميم وأبو تمام : بدأ أبو تمام بائية عمورية بحكم تدور حول الإيمان بالسيف والكفر بالتنجيم[4] . فلما عارض تميم البائية بدأ قصيدته بحكم تدعو إلى الإيمان بالرأى ثم القوة ؛ لأن الرأى أمضى من السيف[5] . وكأنه — إذ يغضُّ من شأن القوة — يعارض — من طرف خفى — سخرية أبى تمام من التنجيم الذى تعالجه أسرته ، ويعلمُه هو حق العلم . وقد اعتمد — مع ذلك — على بائية أبى تمام فى قوله :

---

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .
(٢) ديوان تميم ص ١٣٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥٩ .
(٤) ديوان أبى تمام ص ٧ .
(٥) ديوان تميم ص ٦٨ .

وليس يستطعم الراحات طيبة من لا يخوض إليها شدة التعب[١]

فما أشبه هذا البيت بقول أبى تمام فى بائيته يخاطب المعتصم :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب[٢]

تميم والمتنبى : يحس المرء روح المتنبى فى أبيات تميم المتعلقة بالحمية ، ويسمع فيها لهجته . ومما لا ينبغى أن يفوته أن قصيدة تميم التى منها الأبيات المشار إليها فيها كلمة « ضبارم » فى آخر هذا البيت :

وما كلُّ من تندى يداه بماجد ولا كل من يغشى الحروب ضبارمُ

وكلمة « ضبارم » من الكلمات الغريبة التى استعملها المتنبى فى وصفه للمعركة :

فلله وقت ذوب الغش ناره فلم يبق إلا صارم أو ضبارم[٣]

ولو ورد فى نص تميم كلمة غير « ضبارم » التى قرع بها المتنبى الأسماع ، لما كان لنا الحق أن نقف عندها لنقيم بها علاقة بين الشاعرين .

وقد استعار تميم من المتنبى بعض حكمه ، فقال :

والملك لا يظفر بالسناء ما لم يكن يغسل بالدماء[٤]

وهو معتمد على بيت المتنبى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم[٥]

وقال شاعرنا :

وأفضل الحلم حلم عند مقدرة وأعذب الجود ما وافى بلا طلب[٦]

وقال :

ولا يعد الحلم حلما إذا لم ينشر الحلم مع الإقتدار[٧]

---

(١) المصدر السابق ص ٦٨ .
(٢) ديوان أبى تمام ص ١١ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٢٧٣ .
(٤) ديوان تميم ص ١٨ .
(٥) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٣٨٣ .
(٦) ديوان تميم ص ٦٨ .
(٧) المصدر السابق ص ٢١٩ .

وكلا البيتين شبيه ببيت المتنبى :

كل حلـم أتى بغير اقتـدار حجة لاجـىء إليها اللئـامُ[١]

وقال تميم :

ولولا احتمال النفس كل مشقة إذن لتساوى فى العلا الحر والعبد[٢]

وقال المتنبى من قبل :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتـال[٣]

وقال تميم :

وشر الأرض أرض ليـــــــ س فيها لك إخـــــــوان[٤]

وبيته شبيه بالشطر الأول من بيت المتنبى :

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم[٥]

ذلك وضع الحكمة فى شعر تميم ، لم يفرغ لها فراغه للغزل والخمر ، فقل نصيبها من ديوانه ، وإن أبدى براعة فى نظم بعضها حينا فأتى بما هو مؤثر منها ، واعتمد فى بعضها الآخر على غيره ولا سيما أبو الطيب المتنبى ، فكان أقل درجة .

---

(١) ديوان المتنبى جـ ص ٣٥٦ .
(٢) ديوان تميم ص ١٠٥ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٥٠٨ .
(٤) ديوان تميم ص ٤٣١ .
(٥) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٢٦٥ .

هـ ـ الرثـاء

لتميم مراث قليلة ، رثى بواحدة أخاه عبد الله الذى انتزع منه ولاية العهد ، وبثانية أباه ، وبثالثه أخاه عقيلا ، وباثنتين جاريتين[١] ، وباثنتين أخريين أسلافه[٢] . ويلحظ على مرثيتى أخويه اتفاقهما فى البحر والقافية ، وفى البنية وبعض المعانى ، فهما تبدآن بالحكمة ، وتشيران إلى غرور الحياة ، وحتم الموت على الأمير والمأمور . ويبدأ تميم أربعاً من مراثيه بالحكمة .

ورثاء تميم ذو ألوان ، فيكون تارة نواحا على الميت كما فى رثاء جاريته :

ذكرتك بالريحان والرّاح ذكرة ... مرددة كادت لها النفس تزهقُ
فلما تناولن الغنـــاء شواديـــا ... واتبع مزموما من الضرب مطلق
تتبعت العينـــان شخصك فيهم ... فلما نأى ظلت دموعى تَرَقْرَقُ
إلى الله أشكو فقدها مثلما شكا ... إلى الله فقد الماء عطشان موثق
كأن فؤادى منذبان بها الردى ... جناح وهتْ أجزاؤه فهو يخفق[٣]

كانت الجارية الميتة من المغنيات اللائى يسقين تميما ويغنينه على الشرب . فلما جلس ليشرب يوما ، ورأى الخمر ، وسمع الغناء ، وتنسم الريحان ، تذكر تلك التى ارتبطت فى ذهنه بهذا الجو ؛ فرأى مكانها خاليا بين الجوارى المحيطات ، فبكى من الحنين إلى تلك التى تركته كالظمآن المقيد ، وجعلت قلبه يخفق كجناح الطائر الضعيف .

وقد يخلط الشاعر النواح بالتأبين كقوله فى رثاء عقيل :

كان عف الضمير عذب السجايا ... ليس فى سر أمـره تعسيـرُ
صادقَ الود ، وارىَ الزند لا يعـ ... ـدوه فى كل حالـة تطـهير
صار من بعد ذلك الأنس وحشا ... وهـو فى قعر حفـرة مقبـور
آه من لوعة لها فى سواد الـ ... ـعين دمع وفى الفـؤاد زفير
كيف يبقى امرؤ تولى أبوه ... وأخـوه فحبلـه مبتـور[٤]

---

(١) ديوان تميم ص ١٤٧ ، ٥٧ ، ٢٢٦ ، ٣٠٣ ، ٤٠٦ .
(٢) راجع الفصل الأول من الباب الثانى .
(٣) ديوان تميم ص ٣٠٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

وقد جعل رثاءه كله تأبينا مرة[١] . وقد أضاف إلى النواح والتأبين عنصرا ثالثا فى الرثاء هو الاعتبار فى قصيدته التى منها النص السابق فقال :

أيـن آبـائى الذيـن تفانـوا ... وبهم كانت الليـالى تنيـرُ ؟
أين جدى حسينٌ بن على ؟ ... أيـن زيـدُ المفجـع الموتـور
أين مهديُنـا الممـلك والقـا ... ئم ؟ أيـن المعـز والمنصور ؟
أين تلك الحلوم والفضل والأنـ ... ـاة والبطش والعلا والظهور ؟
أين ذاك السلطان والملك والمنـ ... ـعة والجمع والعديد الكثير ؟
أين تلك الجيوش والعزة القعـ ... ـساء والبأس والحديد الذكير ؟
فرقتهم يد المنـون فبـادوا ... وحوتهم بعد القصور القبور

ومن الظواهر اللافتة فى النص السابق كثرة تكرار « أين » فى أول عدد متتابع من الأبيات ، كأنما يعدد الشاعر . وجدير بالذكر أن ظاهرة التعديد متكررة فى مراثيه[٢] .

رثاء تميم والشعر العربى :

تميم والشعر العذرى : تأثر تميم فى نواحه على جاريته الميته بالشعر العذرى ! فالبيت الرابع من قطعته معتمد على بيت الشاعر قيس بن ذريح فى الغزل بعض الاعتماد :

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا ... إلى الله فقد الوالدين يتيم[٣]

والبيت الخامس منها معتمد على البيت الثانى من الشعر المنسوب إلى المجنون :

كأن القلب حين يقال يغدى ... بليلى العامريـة أو يراح
قطاة غرهـا شرك فبـاتت ... تنازعه وقد علق الجناح[٤]

تميم والمتنبى :عرفنا أن تميما يبدأ الرثاء بالحكمة المتعلقة بالموقف . وهذه سنة المتنبى سار عليها شاعرنا . وأول ما يلحظ على مرثية عبد الله ولى العهد[٥]أن هذا البيت منها :

---

(١) المصدر السابق ص ٤٠٦ .
(٢) ديوان تميم ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٢٧ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ . انظر كذلك ١٢٠ .
(٣) الأغانى جـ ٩ ص ١٩٨ .
(٤) الأغانى جـ ٢ ص ٤٨ .
(٥) انظر القصيدة ص ١٤٧ من ديوان تميم .

(وإذا لم يكن من الموت بد) فطويل الحياة نزر حقير

فيه شطر من بيت المتنبى :

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا[١]

ومرثيتا عبد الله وعقيل متأثرتان بقصيدة قالها المتنبى يرثى بها محمد بن اسحق التنوخى أولها :

إنى لأعلم واللبيب خبير أن الحياة وإن حرصت غرور
ورأيت كلا ما يعلل نفسه بتعلّة وإلى الفناء يصير[٢]

ومطلع مرثية عبد الله :

كل حى إلى الفناء يصير والليالى تعلة وغرور

والعلاقة واضحة بين النصين لفظا ومعنى ، وكأنما البيت السابق تلخيص لسابقيه . ثم إن كلتا مرثيتى تميم تدور حكمتها التى فى المطلع حول ما قال أبو الطيب : غرور الحياة ومصيرها . ونجد فى مرثية عبد الله ولى العهد هذا البيت :

شيعت نعشه ملائكة الله وروّته رحمة وطهور

وهو شبيه ببيت المتنبى يصف نعش محمد بن إسحق :

وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون أهل اللاذقية صور

وفى رثاء عقيل جاء هذا البيت :

ليس ينجو من الغرور سوى من قبره فى فؤاده محفور

وتذكر بنية الشطر الثانى ببيت المتنبى :

حتى أتوا جدثا كأن ضريحه فى قلب كل موحد محفور

وهكذا تأثر تميم بالمتنبى فى مراثيه كما تأثر به فى المدح والفخر ؛ فمال إلى الحكمة وهو يرثى ميله ، وأخذ منه بعض معانيه . ويجمع الشاعرين شبه ما هو أنهما ليسا من شعراء الرثاء المجيدين ، وكأن كلا الشاعرين — لما أصابه — لم يكن يحرق قلبه من يموت .

---

(١) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٤٧٣ .
(٢) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٣٣٧ .

و ــ الهجـاء

هجا تميم خصوم حزبه ، وله هجاء قليل غير الهجاء الحزبى . ضاق مرة بأحد الكتاب فهجاه بقصيدة طريفة أولها :

إذا لم تعـــــرف الخيرا ... فتأتيـــــــه ، ولا الشرا
ولم تقصد بأفعالـــــــــ ... ك لا نفعـــــا ولا ضرًّا
ولم يعـــتدل بك التمييـــــ ... ز لا يمنـــــى ولا يسرى
فأنت الماء لا يعـــــدو ... به تيـــــــاره المجرى(١)

وهذه الأبيات تصور المهجو لا يميز الخير من الشر ، ولا يبدى إرادة ، ولا يقصد بما يفعل شيئا ؛ كالماء المندفع فى المجرى . وبناء على هذه المقدمة يمضى الشاعر فى تجريد مهجوه مما قـد يعد مفخرة ؛ لأنه لم يقصد به شيئا . ويجرده أيضا مما يحسب عليه عيبا لعدم النية . وينتهى إلى استحسان الموت لهذا الكائن المحايد .

وللشاعر هجاء اجتماعى قليل كقوله :

أرى أناسا ولكن جلهـم نَعَمٌ ... كُثْرٌ قليلٌ ، وموجودون قد عدموا
ناس سواسية يضنى الكريم بهم ... حتى كأنهم الأوصاب والسقم
من لم يكن عالما ذا بالأنام فلا ... يجهل بأنهم إن حصلوا غنم
أرتهمـونى قليـلا همة بلـغت ... بحيث لا ينتهيه الهم والهمم(٢)

ولتميم هجاء وجهه إلى غير العاقل ، وهو هجاؤه للبلاد التى لها صلة بالجيش . فنحن نعرف أنه كان يصاحب الجيش ، فيعسكر معه فى العباسية أو عين شمس أو بلبيس أو غيرها ؛ فينقطع عن ملاهى القاهرة ، ويحال بينه وبين البيئة المصرية البهيجة . فراح يهجو محاط الجيش المرتبطة فى ذهنه بالألم والحرمان . قال يهجو عين شمس :

عين شمس ، لا عاينتك الشموس ... منـــزل مقفـــر وربـــع دريسُ
يرجع الطرف خاسئا وحسيرا ... وتقاسى الكروب فيه النفوس

---

(١) ديوان تميم ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦٤ .

عسكرت فيه للأفاعى جيوش وثوى للذئاب فيه نحيس
فهو عار إلا من الشؤم والشر ، فلا حلَّ أرضه التقديس[١]

وفى الديوان هجاء لبلبيس[٢] والعباسية[٣] ، وفيه هجاء للشام كلها[٤] :

ياشام ، شؤمك عاد بينى وبين الخليج
فنحن منك ومنه فى كل أمر مريج[٥]

تميم والمتنبى : لابد أن يذكرنا هجاء تميم الاجتماعى السابق الذكر بالمتنبى ، لما فيه من عتوه وكبره ، ولاحتوائه على بعض معانيه . فالبيتان الأول والثالث منه يعيدان إلى الأذهان قول المتنبى :

بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم[٦]

أو الشطر الأول من بيته :

أرى أناسا ومحصولى على غنم وذكر جود ومحصولى على الكلم[٧]

والبيت الثانى من هجاء تميم الاجتماعى مأخوذ من بيت أبى الطيب :

وإنما نحن فى جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن[٨]

وهجاء تميم كرثائه قليل . ونلحظ عليه عفة اللسان فيه . فإذا استثنينا كلمة واحدة فى قصيدته التى هجا بها أحد الكتاب ، ورأينا بعضها من قبل ، لم نجد فى هجائه كلمة بذيئة ، مع أنه فى شعره الخمرى وغزله يخلع العذار .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٨٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٣ .
(٤) المصدر السابق ص ٩٠ .
(٥) ديوان تميم ص ٩٠ .
(٦) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٣٣٠ .
(٧) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٤ .
(٨) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤٨ .

ز — الإخوانيات

يخاطب تميم الحسين بن إبراهيم الرسى ، فيقول معاتبا :

تأخرت الرسائل منك عنى وأبطت عن تعهدى الرقاع[١]

* * *

ولسنا نلتقى لقيا اجتماع فيغنينا عن الكتب اجتماع
ولكن تُعرب الأقلام عنا إذا افترقت بشخصينا البقاع

ويخاطب أحد أصحابه فيقول فى كتابه :

مالى عدمت مكاتباتك برهة لملالة ذا أم لخوف موجع[٢] ؟

ويخاطب آخر فيقول :

ما تعرفت حالنا بكتاب مثلما يفعل المحب المعنى[٣]

وذكر القلم والكتابة وما أشبههما متكرر فى شعر تميم ؛ لأنه كان يراسل إخوانه وأسرته بالشعر . وكان الشاعر كثير الإخوان ، وكان لفيف من أصحابه شعراء يراسلونه بالشعر ، منهم آل الرسى ؛ فكثر فى ديوانه هذا الفن الشعرى الذى يصح أن نسميه شعر الإخوانيات . وهو يدور حول السؤال عمن يتصل بهم الشاعر ، أو الرد على سؤالهم ، أو التهنئة ، أو التعزية ، أو المواساة ، أو الإهداء ، أو الاستهداء ، أو الاعتذار و**الإعذار أو الدعابة أو الإلغاز** . وهذه موضوعات خفيفة فى كثير من الأحيان . ويلحظ عليها أنها قد يندرج بعضها فى ثنايا الفنون الأخرى ، وقد يندرج فيها غيرها كالوصف والفخر مثلا .

* * *

أما بعد ، فهاهى موضوعات شعر تميم بن المعز التقليدية ؛ رأينا أساليبها ، ووقفنا على معانيها وهى موضوعات متنوعة ، تتفاوت مقاديرها فى الديوان تفاوتا يرجع إلى ميول الشاعر واتجاهاته ، فتكثر حيث يطيب له الحديث ، وتقل حيث لا يناسب

---

(١) ديوان تميم ص ٢٦٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٢٥ .

الموضوع استعداده النفسى . وقد تأثر تميم بأبى نواس فى الجانب المرح من شعره ، وتأثر بالمتنبى فى الجانب الجاد . وترك شعراء آخرون بعض الآثار فى ديوانه ، من أهمهم البحترى . ولم يكن لابن هانىء الأندلسى غير أثر عابر فى أساليب تميم ومعانيه مع أنه كان شاعر البلاط الفاطمى فى دور المغرب . وما أبعد ما بين شعر تميم السهل وشعر ابن هانىء الغليظ الصاخب . أما ابن المعتز فإن له فى ديوان تميم آثارا ؛ رأينا تميما يناقضه فى مجال الشعر الإسماعيلى ، ويعارضه فى إطار الغزل باعتراف ديوانه ، وسنراه متاثرا به تأثرا آخر فيما بعد .

البـــــاب الرابع

الفصل الأول

أثر البيئة المصرية فى شعر تميم

كان الفاطميون يطمعون فى الاستيلاء على مصر منذ بداية دعوتهم . وطالما حاولوا الظفر بها ، فلجأوا إلى العنف حينا ، وإلى الدعاية حينا آخر ، حتى تحققت أمنيتهم على يد القائد الصقلى . وما كادوا يضعون فيها أقدامهم حتى أطمأنوا إليها ، وشغلوا بها عن المغرب ، ذلك الأفق الذى اكفهرَّ لهم ، وآذَهُمْ حفظ الأمن فيه .

وراح الحكام الجدد يحسنون إلى أهل الوطن الجديد ، ويتقربون إليهم ، ويحافظون على تقاليدهم ؛ فنجد تميم بن المعز يأنس بهم ؛ فيصطفى منهم رفاقه ، ويختلط بهم فى المواسم والأعياد ، ويشترك معهم فى الملاهى ؛ كما نجده يهيم بطبيعة مصر ، فيعشق النيل ، ويهوى البساتين وسائر ما فى مصر من مواطن الجمال . وحينما كانت تزعجه فتن الشام كان يحن إلى مصر حنينا حارا .

وكان تميم فى الخامسة والعشرين يوم وفد على مصر مع أسرته . وهكذا قدر لشاعريته أن تنضج فى البيئة المصرية ، وأن تجود بأغانيها فيها . فماذا كان شأن هذه البيئة فى شعره ؟ .

أ ــ بيئة مصر وفكاهة الشاعر

عرف المصريون بالفكاهة فى كل العصور ، جرت على ألسنتهم ، وانسابت فى أدبهم الشعبى ، وتسربت إلى أدبهم الرسمى ، ومازالت آثارها ماثلة على مخلفات الفراعنة . وقد عرف لهم ذلك القدماء والمحدثون . قال عنهم ثيوكرتوس شاعر

الإسكندرية القديم : « إنهم شعب ماكر ، لاذع القول ، روحه مرحة »[١] . وكان الشيخ تاج الدين الفزاوى يقول : « إن الحكماء وأهل التجارب ذكروا أن من أقام ببغداد سنة وجد فى علمه زيادة ، ومن أقام بالموصل سنة وجد فى عقله زيادة ، ومن ... ومن ... : ومن أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسنا »[٢] .

أما شهادات المحدثين فكثيرة ، منها قول الدكتور جون ولسون إن الفلاح المصرى الأسبق فلاح الأسرات الأولى « خفيف الروح ، محب للسرور »[٣] . وأنه « بينما كان يؤدى أعماله كان يغنى ويضحك »[٤] ويعود المؤلف بعد ذلك فيتحدث عن فكاهة المصريين حديثا مسهبا فيبدأ قائلا : أما ما قلناه عن المصريين بأنهم قوم مرحون ، يأخذون الأمور من ناحيتها الميسورة ، وأنهم قوم محبون للسرور ، فليس[٥] إلا حقيقة يجب علينا أن نؤكدها ... وربما كانت سرعة بديتهم ، وحبهم للنكتة هما خير ما يمثل لنا حسن دماثة أخلاق المصريين التي صبغت الخلق المصرى ، وطبعته بطابعها القوى ... »[٦] . ولا يزال المؤلف يردد هذه الفكرة حتى يذكر أنهم توصلوا إلى إستخدام الرسم الساخر الكاريكاتير[٧] .

وتدل الشهادات السابقة والواقع على أن مصر بلد الفكاهة ، وأن الفكاهة من السمات الشديدة الوضوح فى خلق أهلها ، بَلْهَ الشعراء والأدباء منهم . وقد عاش تميم فى مصر كما رأينا ، واختلط بأهلها فى المناسبات الكثيرة ، واختار منهم طائفة كانوا ندماءه وصحابه . فَلْنَتحرَّ ما تركت فى شعره البيئة الفكهة منذ فجر التاريخ .

---

(١) الفكاهة فى مصر ص ٢٤ .
(٢) النكتة المصرية ص ٤٢ .
(٣) الحضارة المصرية ص ١٤٠ .
(٤) المصدر السابق ص ١٤١ .
(٥) وردت الكلمة بدون فاء جواب الشرط فأضفتا الفاء .
(٦) جون ولسون : الحضارة المصرية ص ٢٤٦ . أنظر امتداد الحديث حتى ص ٢٥٦ .
(٧) المرجع السابق ص ٣٥٥ .

ليست الفكاهة ظاهرة فى شعر تميم ظهورها فى دواوين الشعراء المصريين التالين أمثال البهاء زهير . ومع ذلك ففى ديوان تميم شيء من الظرف ، وفى حورياته الغزلية سرعة البديهة . وهاتان السمتان هما من سمات المصريين من قديم كما لحظ صاحب « الحضارة المصرية » . غير أن اعتراضاً ما يبدو أنه يعوق الحديث عن ظرف تميم وسرعة بديهته . هذا الاعتراض هو أنه قد دخل مصر شابا ، فلماذا لا يكون ظريفا أصلا ؟ ولماذا لا يكون بعض شعره الظريف قد قيل فى المغرب ؟ .

أما كون بعض شعره المتسم بالظرف مقولاً فى المغرب فيُضعَّف بما يأتى :

أولا : فى الديوان ثلاث قطع مغربية لا أثر للظرف فيها(١) .

ثانيا : لم يشتهر المغرب بالظرف لاخلقا ولا أدبا .

ثالثا : لم يأت تميم مصر شاعرا ناضجا ؛ فقد تأخر نتظر الفنىّ بعض التأخر ؛ بدليل أنه ليس فى ديوانه شعر مغربى بيِّن غير القطع الثلاث . فلا تنتظر أن يكون له فى المغرب شعر ذو خطر . وربما ظن مغربيا بعضَ شعره الضعيف الخالى من الدلائل على المحلّ . ولكن هذا الظن يعترضه أنه ليس فى الديوان كله دليل واحد على مغربية بيت واحد من الشعر عدا القطع الثلاث .

رابعا : إذا كانت الحواريات هى خير ما يمثل سرعة البديهة عند تميم ، فإن حالها تدل على أنها قيلت فى مصر ؛ فهى قطع ذات بنية فنية معقدة . والقوة والتعقيد مما لا يتاح للشاعر إلا بعد معاناة الشعر فترة من الزمن . فمن غير المعقول أن يقول الشاعر تلك القطع فى باكورة حياته الفنية(٢) .

أما الذهاب إلى أن الشاعر كان ظريفا قبل دخوله مصر فذلك جائز . غير أنه لا يجوز أن ننسى أن تميما كان يختلط بالمصريين ، وأنه اتخذ منهم رفاقه وندماءه . ولا شك أنه كان يسمع فكاهات المصريين فى كل مكان . فإذا فرض أنه كان ظريفا بطبعه فإن ظرفه سيزداد وإذا توسعنا فى الفرض ؛ وقبلنا الاحتمال الضعيف أن تميما قد نظم شعرا فكها فى المغرب اندس فى ديوانه أو سقط منه فإن أحدا لا يستطيع أن ينفى أن فكاهة شعره المقول فى مصر ستتأثر بالبيئة الجديدة العريقة الفكاهة ، فتقوى ؛ لأن أثر البيئة حتمى كبر أو صغر . ثم إن الشاعر قد يكون ظريفا فكها ولا تظهر فكاهته فى شعره للحاجة إلى بيئة مرحة يسودها شعر فكه يعديه ، ويعيش فيها مجتمع يقدر الفكاهة .

---

(١) أنظر ديوان تميم ص ٣٤ ، ٣٢٣ ، ٣٨٤ .

(٢) أنظر ديوان تميم ص ٣٩ ، ١٢٣ ، ١٥٢ ، ١٦١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٩٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣٥ ، ٣٥٢ .

ورب معترض يقول : قد نقبل أن شعر تميم الفكه مقول فى مصر كله ، ولكن ما المانع أن يكون قد تأثر فى شعره ذاك بالأشعار الفكهة فى الأقاليم الأخرى ؟ .

ويرد على الاعتراض الثانى بأنه لابد أن يتأثر تميم بما قرأ من الأشعار الفكهة فى الأقاليم الأخرى ، ولكن فكاهته لا ترد كلها إلى تلك الأشعار ، فلا يكون لبيئة مصر وشعرائها وأدبائها نصيب فيها . وكيف ننسى القول القديم الذى سمعناه أن من أقام فى مصر سنة وجد فى أخلاقه رقة وحسنا ؟ . ومن طريف ما لاحظ مؤلف حديث قوله : بناء على القو القديم وتأييدا له : ى فإن الذين يسكنون مصر من الغرباء والأجانب يتطبعون بطابع أهل مصر ، فتخفف روحهم ، ويتعودون النكتة . وإنك لتسمعها هناك من اليونانى والإيطالى والتركى[1] . . . » .

قال تميم يحث على الشرب ، وهذا من شعره المصرى المحقق :

السكر فى أسْكَرَ عندى وقار ... فأخلع بها للهو عنك العذار
ولا تطـع فى نشوة لائمـا ... إن قبول اللوم فى السكر عار
وهاكهـا تسلب لب الفتـى ... وحلمه فى لَطَـفٍ واختصار
حمراء فى الكأس ، فإن شُعشِعتْ ... ولَّد قرع الماء فيه اصفـرار
فى قدح ليس له مشبـه ... إلا صفـاء المـا وضوء النهار
كأنما الساق إذا مجهـا ... فى صفوه يجمع ثلجاً ونار
فرح صريع الكأس إن كنتُ من ... ألّافها ، واغد خليع العـذار
أما ترى النيل وريح الصَّبـا ... تنظـم فيـه زَرَدَات صفـار
لا سيما إن غرد النـاىُ أو ... ناولك الكأسَ صَمُوتُ السِّوار
وبتُّ تجنـى لعسا أشنبـاً ... مستعذب الظُّلْم بُرودَ القِطار
ومقلـةً مثمـرة فتكـةً ... ووجنـةً منبتـة جلنـار
كأنّ لام الصدغ فى عاجهـا ... ليل تبدَّى صبحـه فى نهار
من كان لا يسليه هذا وذا ... فهوَ وحقِّ الله ــ عين الحمار[2]

---

(١) النكتة المصرية ص ٤٢ .
(٢) ديوان تميم ص ١٦٩ .

ألا ترى روح الفكاهة تتسلسل فى الأبيات ؛ تبدو فى البيت الأول فى معناه وفى التلاعب اللفظى فى مبناه ؛ وتبدو فى البيت الثانى فى النهى عن طاعة من يلوم فى حب الخمر ، وفى عد الركون إليه عارا ... إلى أن تتألق تلك الروح فى البيت الأخير . وكأنما الشاعر يستدرجك إلى الضحك . ولا داعى أن يسمح المرء لوقوف الشاعر بالسكون على المنصوب أن يكدر عليه الفكاهة ؛ فإن هذه لغة صحيحة ، وكثيرا ما يستخدمها الشاعر .

وأنصت إلى هذه الحوارية الدالة على حضور بديهة فكهة :

ضمخّوا الريح بالعبير وقالوا ... إنْ تنسَّمتها لقيتَ الوصالا
نشرها نشرنا ، فإن شئت رؤيا ... نا فلا تَغْذُ أن تلاقى الهلالا
قد بعثنا فى الريح والشمس والبد ... رإلى مقلتيك منّا مثالا
فدع العذل فى الصدود فإنا ... لا نطيق الوشاة والعذالا[1]

وإلى هذه الدالة الدلالة نفسها :

سألته قبلة يوما على عجل ... فاحمرّ من خجل واصفرّ من وجل .
واعتلّ ما بين إسعاف يرققه ... وبين منع تمادى فيه بالعلل
وقال : وجهى بدر لاخفاء به ... ومبصر البدر لا يدعوه للقبل[2]

واستمع إلى هذه التى تستدرجك إلى الضحك استدراجا :

قطّعتَ بالعتب حشا لم يزل ... يُقطعه الفقد للقياكا
لا تتهمنى بالجفا ظالما ... حسبى من الأيام رؤياكا
وكيف أنساك ولى مهجة ... حياتها ماء ثنياكا !
والله لا أنسى له قوله ... كم تتناسانى أرعاكا !
إن كنتَ من نسل معزّ الهدى ... كيف تُرى فى الحب أفّاكا !!
فقلتُ : لا أفضَلْتُ إنْ لم أكنْ ... مقبّلا من أجل ذا فاكا !!![3]

فالشاعر فى المقطوعة الأخيرة يصف لنا موقفا وافاه فيه حبيبه ، فجعل يعاتبه ، ويتهمه بالنسيان والجفاء . وراح الشاعر يدافع عن نفسه ، ويقول للحبيب إن رؤيته

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٠٧ .

تجعله يرضى عن الزمان ، وإنه برىء من التهمة التى وجهت إليه . ومضى يشرح له كيف أن كلامه يقطع الأمعاء ، كما يقطعها أن يحرمه لقياه . واحتج الشاعر لبراءته بأن حياته مرتبطة بالحبيب ؛ فإن ريقه السبب فى استمرار حياته ، فكيف ينسى سبب حياته ؛ ولكن قلب الحبيب لم يرق له ، فزجره قائلا قولا أقسم تميم لا ينساه :

حتام تتعمد نسيانى وأحفظك ؟ أما تستحى أن تكون ابن الإمام وأنت محب ختّال ؟ .

وهنا أسعفت الشاعر لباقة المصريين الفكهة فوثب على الحبيب قائلا :

لست من الأفاضل فى شىء إن لم أقبل الثغر الذى قال ما قال ؛

وإن المرء ليخيل إليه أنه يسمع أولاد البلد فى الحوارية الأخيرة وما قبلها يحاورون ويداورون .

والتورية التى اقترنت بمصر هي من قبيل الفكاهة ، وبها يعتد الدارسون الذين يريدون أن يذكروا لمصر إضافة ما إلى الأدب العربى ، كما ذكر للأندلس أنها أضافت إليه فن التوشيح . والطريف أن ديوان تميم أقدم ما نعرف من مظانّ التورية فى مصر وتميم إذ نظم مخمسته المشهورة كان متبعا ؛ فليست مخمسته بدعة جديدة فإن هذا النوع الأدبى معروف لدى بشار وأبان اللاحقى وأبى العتاهية[١] . ولكنه حين أقدم على التورية وحلّى شعره بعدة نماذج ساذجة منها كان متابعا للون من ألوان التعبير الفكه عرفه الشعر المصرى غير العربى أيام الفراعنة فى الزمان السحيق[٢] .

وقد أشار صاحب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » إلى أن الفكاهة كانت شائعة فى مصر منذ أوائل القرن الخامس[٣] فى رده على دعوى ابن حجة وصلاح الدين الصفدى أن التورية فن خلقه القاضى الفاضل ؛ وأيد إشارته بأمثلة من شعر ابن حيدرة العقيلى[٤] . وقد أشار إلى ذلك من بعده محقق ديوان الشريف العقيلى[٥] .

---

(١) أحمد السكندري وآخرون : الوسيط فى الأدب العربى ص ٢٤٧ .

(٢) أنظر جـ ٢ من أدب الفراعنة لسليم حتى ص ٩٧ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، وكتاب الحضارة المصرية لجون ولسون ص ٤٢٠ .

(٣) الدكتور شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٣٨٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٦ .

(٥) أنظر حاشية ديوان الشريف العقيلى ص ٢٧٧ .

وها هو تميم يدلنا على أن ما يشبه التورية موجود عنده فى القرن الرابع أيضا ، فقد كان له بستان على النيل يسمى المعشوق ، فأغراه هذا الاسم بما يشبه التورية ، فقال يصف ارتفاع ماء النيل :

مالى أرى الماء علا وارتقى ... كأنَّ فيه حَبَبَ البُردِ
وزاحم المعشوق فى قده ... تزاحم الأعظم للجلد
تُراهُ ماء النيل وافت به ... سبع وعشر كُمَّل العد
أم نثر المعشوق من دمعه ... خوفا من الهجران والصد[١]

وما يشبه التورية طاهر فى البيتين : الثانى والرابع .

وقال أيضا :

يأيها المعشوق ، بالله من ... صفر بالهجران نيلوفرك
فقال واسترجع فى قوله : ... غيرنى الحب كما غيرك
لم يترك لى عشق شمس الضحى ... لونا ولو تاركته ما ترك
صفرة وجهى ترجمان الهوى ... فىَّ ونبتى فى جوانى البرك[٢]

وهكذا أنطق الشاعر البستان ، واستغلَّ اسمه وصفرة النيلوفر فيه ، فنسبه إلى العشق . أليست الصفرة من أمارات العشق ؟ وإذا كان البستان اسمه المعشوق فلماذا لا ينتهز تميم هذه الموافقة فيتلاعب بالألفاظ ؛ فيحوم بذلك حول حمى التورية أوْ يقع فيه ؟

إنه لا أحد ينكر أن وجود كلمة المعشوق فى المقطوعة تجعل بينها وبين التورية نسبا . والشأن فى ذلك كالشأن فى سابقتها ، وكالشأن فى أخريين فى الديوان ، داراحول « المعشوق » واستغل تميم فيهما الاسم[٣] .

ولعل أقرب نموذج فى الديوان إلى ما اعتدناه من التوريات استخدام تميم للكلمة العاصى — وهى اسم أحد أنهار الشام — فى مدح أخيه :

---

(١) ديوان تميم ص ١٤٠ .
(٢) ديوان تميم ص ٣٠٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٩٤ ، ٢٩٨ .

أثـرتَ عليهمُ بالشام حربـا تضعضع بالعـراق لها السريـرُ
ودان بها لك العاصى وألقت أزمتها لكفـيْك الأمـور(١)

ومثلها قوله :

سأدفع بالراح جيش الهمـوم وما عال نفسى ومـا غالها(٢)

فإن كلمة الراح التى قصد بها الخمر رشحها للتورية الفعل أدفع ، فتراوحت كلمة الراح بين معنى الخمر ومعنى بطون الأكف .

ب ــ بيئة مصر وعبارة الشاعر

تتسم عبارة تميم باللين فيما عدا الطرديات ، ويشيع فيها الاستواء . ولابد أن يكون لمصر يد فيما امتازت به عبارته ؛ فلا يصح أن نهمل أثر البيئة السهلة الخضراء التى كلف بها الشاعر ، وراح يضرب فى جنباتها . وإذا كان الشعر العربى قد اتسمت جملته بما اتسم به شعر تميم منذ خرج من البيداء الماحلة إلى العالم الأخضر المتحضر ، لا يمكن ــ مع ذلك ــ إسقاط البيئة المصرية من الحساب ، وعدُّ ما فى شعر تميم مسايرةً للتيار العام ؛ لأن أثر البيئة حتمى .

وفى شعر تميم بعض العبارات والألفاظ التى يرجح أنها متأثرة باللغة العامية المصرية ، لأنها مازالت جارية على ألسن المصريين إلى اليوم . ومن عباراته تلك قوله متغزلا :

بينـى وبينـك فى الـذى أوليتنـى ربى وربك(٣)

فهذا البيت يذكرنا بالعبارة العامية المصرية : « بينى وبينك ربنا » .

وكذا قوله متحدثا عن تضييق البازى على الطيور وقتلها فى النهاية من أرجوزة :

حتى سقاها المر من جناه(٤)

ونحن نسمع فى العامية : « سقاه المر » .

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٣١٦ .
(٣) الديوان ص ٨١ .
(٤) الديوان ص ٢١ .

ومن هذا القبيل قوله لأخيه وقد تأخر عن زيارته :

لو لم يكن لى عذر أنت تعلمه لجئت أسعى بلا عذر على بصرى[١]

وكأنما يريد أن يقول كما يقول العامة : « لجئت أسعى على عينى » .

وشبيه بالأمثلة السابقة قوله يصف خمرا :

يحلف من يشربها بالمصحف . بأنها لو لم تفح لم تعرف[٢]

فإن قوله : « يحلف بالمصحف » قول ذو مسحة عامية :

واسمع قوله فى ختام قصيدة أرسلها إلى أخيه لما سمح له بالخروج إلى الجيزة للنزهة :

أنا عبدك المخلوق منك وإننى لجميل ما أوليت ألف شكور[٣]

فإن آخر البيت يعيد إلى الذهن هذه العبارة التى يرددها المصريون فى التعامل : « ألف شكر » .

ومن هذا القبيل استخدام الشاعر لكلمة النباهة بمعنى الحصافة أو الذكاء مع أن معناها الفصيح السيّار الشهرة ؛ وكلمة شاطرة بمعنى ذكية أو حصيفة مع أن معناها الجارى الفصيح متعلق بالسرقة ، فالشاطر هو قاطع الطريق ، وذانك فى قوله يمدح أخاه :

ينال بالسيف ما تعيا السيوف به وبالنباهة ما يعيى ذوى الجيل[٤]

وفى قوله يصف ساقية الخمر من أرجوزة :

شاطرة ساحرة اللسان[٥]

ومن هذا القبيل أيضا المضاف الأول والمضاف إليه فى قوله متغزلا :

وَمَـــال بفـــرْدِ حاجبـــه وصدّ وكسر المقـــــــلا[٦]

أليس تعبيرا شعبيا « فرد الحاجب » هذا !

---

(١) الديوان ص ٣٢٤ .
(٢) الديوان ص ٢٧٧ .
(٣) الديوان ص ٢٠٩ .
(٤) الديوان ص ٣٤٠ .
(٥) الديوان ص ٤١٥ .
(٦) الديوان ص ٣٥٣ .

وتنتشر فى ديوان تميم صور بلاغية تتعلق بالنبات والنيل وغيرهما من مظاهر البيئة المصرية الطبيعية وغير الطبيعية ، تمثل انعكاسا جديرا بالتأمل ؛ فنحن حين نقرأ لتميم قوله يخاطب أخاه العزيز :

إنّا جميعاً تشاركنا دما وأبا ... كما تشاركت الأغصان بالثمر(١)

وقوله :

ولولاك لم نلق الغنى متبسطا ... ولم نجد الأيام طيبة النشر(٢)

وقوله :

كأن عصرك فى إشراق بهجته ... تفتحُّ الورد بين الروض والزهر(٣)

وقوله :

وكم نِعَم ناعمات الغصون ... لبسنا بظلك إظلالها(٤)

وقوله يصف نجوم الليل :

كأنما أنجمه الدوانى ... فى أفقه روضة أقحوان(٥)

وقوله يفخر بنفسه :

سأحمل ما بين المهالك حملة ... يعود بها روض المنى وهْو مُخصِب(٦)

حين نقرأ أمثال هذه الأبيات المشتملة على صور بلاغية تنتمى إلى عالم النبات — وأمثالها كثير فى الديوان — يحق لنا أن نرى فيها انعكاسا للبيئة ، وإن كان أكثر تلك الصور منتزعا من الرياض والبساتين ، فقلما نرى صورا بلاغية عن ظاهرة نباتية عامة أصيلة على غرار قوله فى أصابع الساقية التى تحمل خمرا :

تسعى بمحمرٍّ على عَنَم ... أطرافه العناب والبلحُ(٧)

والغريب أنه إذ مثّل أطراف أصابع الساقية بلحا ، فمدت الصورة يدا إلى البيئة ؛ شبهها بالعنّاب فمدت الصورة يدا أخرى إلى التراث .

---

(١) ديوان تميم ص ٢٢٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٠١ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٢١ .
(٥) المصدر السابق ص ٤١٤ .
(٦) المصدر السابق ص ٤٢ .
(٧) المصدر السابق ص ٩٦ .

وشأن الماء فى صور تميم البلاغية كشأن النبات . ولا عجب ، فمصر مزارع وبساتين ؛ وأمواه تنحسر فى النيل والترع والمجارى حينا ، وتطمُّ حينا فنغمر الوادى أيام الفيضان . ولذا كان للماء انعكاسه فى بيان تميم ؛ فكثر فيه كثرة ملحوظة على نحو لافت للنظر وغريب . ومن ذلك قوله لأخيه العزيز :

رضيتُ بحكم سابقة القضاء وإن أضحت تكدر صفو مائى[١]

وقوله لصديقه الحسين بن إبراهيم الرسى :

وظرفتَ حتى فقتَ كل مظرَّف ولطفتَ حتى فقتَ لطف الماء[٢]

وقولة يخاطب أباه :

إليك مدت رقابها العربُ والملك ماء عليك منسكب[٣]

وقوله يرثى أخاه عبد الله ، والشاهد ثانى البيتين :

أى أخلاقك الرضية يُرثَى ؟ رأيك العَضْب أم سناك المنيرُ؟
أم محيا يحول ماءُ النهى فيـ ـه وماءُ الحجا القراحُ النميرُ[٤] !

وقوله من نسيب يتصدر مدح العزيز :

رقة خصْر ولين محتضن كرقة الماء إذْ صفا وجرى[٥]

وقوله فى مطلع قصيدة موجهة إليه :

حبذا طيب يومنا الممطور بفناء المختار ماءَ السرور[٦]

وقوله فى جواد افتتح به مدح أخيه العزيز :

فكأنما يقق البياض بوجهه ماء بدا متدافعا فى جدول[٧]

ومثل هذا كثير فى شعر تميم[٨] كثرة تسوِّغ عدَّه انعكاسا لبيئة الماء : جداول وترعا وأنهارا ، وفيضانا غامرا وجه الأرض إبان الفيضان . ومما يدعم عدَّه كذلك

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣١ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٥ .
(٤) ديوان تميم ص ١٤٩ .
(٥) المصدر السابق ص ١٥٨ .
(٦) المصدر السابق ص ١٦٢ .
(٧) المصدر السابق ص ٣١٣ .
(٨) أنظر على سبيل المثال ديوان تميم ص ١٥٠ البيت ١٣ من الصفحة ، ص ١٨٩ البيت ٣ ، ص ٢٠٤ البيت ٥ ، ص ٢٣٤ البيت ١٠ ، ص ٢٨٠ البيت ٤ ، ص ٤٥٢ البيت ٩ .

الغرابةُ الماثلة فى الصور فى الشواهد الأول والثالث والرابع والسادس والأخير . والغرابة فى الشاهد الرابع يشوبها فساد ذوق الشاعر .

وثم فارق بين استخدام تميم للماء فى الصور البلاغية تلك واستخدامه له فى قوله متغزلا :

آه مما جال من ماء الصبا فى وجنتيك[١]

وقوله أيضا :

وماذا الذى فى صحن خدك جائل ؟ أماءُ جمال جائل فيه أم خمر[٢] ؟

فاستخدام الماء استخداما بيانيا على هذا النحو مقروناً بالوجه مألوف ، ومنه قول عمر بن أبى ربيعة متغزلا :

وهى مكنونة تحير منها فى أديم الخدين ماء الشباب[٣]

إلا أن بعض صور تميم البلاغية المستمدة من البيئة غايةٌ فى الطرافة ؛ فهى شديدة الاتصال بها ؛ تذكر متأملها بما أستوعبتْ حبات المسبحة التى إذا أدنيتها من ناظرك أرتك منظرا مختزنا فيها .

ومن ذلك قول تميم فى أفتكين الثائر الذى هزمه العزيز :

ورام الخلاص وكيف الخلاص وقد بلغ الماء أعلى الزبى[٤] !

ففى شطره الثانى معظم المثل العربى : « بلغ السيل الزبى » . وكان فى وسع تميم أن يضع كلمة « السيل » مكان « الماء » ، فيستقيم الوزن والمعنى ، ويسلم له المثل . لكن نفسه التى ألفت الوادىَ المنبسط وماءَ النيل قد أملت عليه أن يحل الماء محل السيل . وكأنما الصورة صدى لمقياس النيل وقد بلغ الفيضان مداه . والمقياس شىء يعرفه تميم خير المعرفة ، وقد أشار إليه فى شعره[٥]

وقال تميم يصف الناعورة . وهذا من شعره المصرى تحقيقا لأنه قيل فى فترة متأخرة من حياته :

---

(١) ديوان تميم ص ٣٠٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٠١ .
(٣) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص .
(٤) ديوان تميم ص ١١ .
(٥) انظر ديوان تميم ص ١٤٠ .

كأنما الكيـــزانُ فى بئرهـــا هام ملـوك فى نواويسهـــا(١)

أى أن كيزان الناعورة تشبه رؤوس الملوك الراقدين فى القبور . والملوك المقصودون هنا هم الفراعنة الذين بقيت أجسامهم المحنطة لم تبلها الأيام . ولا نعجب من قول تميم ، ونظن أن آثار المصريين وجثثهم ظلت مطمورة حتى طلع عليها العصر الحديث ؛ فإن بعض تلك الآثار والجثث قد كشف فى العصور الوسطى ، وكان يعرف بالمطالب(٢) . فهذا تشبيه أصيل المصرية .

وقال تميم يصف البدر والنجوم ، وهذا من شعره المصرى على وجه التحقيق :

والبدر منتصب فى وسط أنجمه كأنه ملك فى وسط موكبه(٣)

وهكذا شبه تميم البدر بالملك ، والنجوم حوله بمن يحف بالملك من الجند والشعب . وهذا التشبيه منتزع من البيئة المصرية التى لم تعرف المواكب كما عرفتها فى أيام الفاطميين .

ولقد اشتهرت مصر فى الماضى بصناعة أنواع من النسيج من بينها الشروب ، وكانت تصنع فى القاهرة وتنيس ودمياط . قال المقريزى عن تنيس : « وبها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا »(٤) وقد وجدت الشروب طريقها إلى بيان تميم ، فقال وهذا من شعره المصرى المحقق :

وقد حجب الغيم الهلال كأنه ستارة شرْب خلفها وجه من أحب(٥)

فالهلال يشف عنه الغيم كوجه الحبيب يلوح من وراء الشرب الرقيق .

وقال أيضا فى يوم أنس جلس يشرب فيه مع إخوانه ، وهذا شعر مصرى بقرينة الشرْب :

كأن الشمس فيه عروس خوف تزف إليهم فى ثوب شرب(٦)

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٤٦ .
(٢) مروج الذهب ص ٣١١ ، الخطط جـ ١ ص ٤٠ .
(٣) هامش الديوان ص ٧٦ .
(٤) ديوان تميم ص ٧١ .
(٥) المصدر السابق : ص ٦٢ .
(٦) المصدر السابق : ص ٦٦ .

أى كأن الشمس فى ذلك اليوم عروس فى هودج ، تلبس ثوبا من نسيج الشرب . وفى هذا البيت صورة لظاهرة مازالت باقية فى مصر إلى اليوم وهى استخدام الهودج فى نقل العروس من بيت أبيها إلى بيت زوجها يوم الزفاف . ومما يستحق الذكر أن الشرب قد تسلل إلى شعر الشريف العقيلى ، وظهر فى بيانه[١] .

حـ ــ بيئة مصر وانتحاءتان فى شعر الشاعر

فى شعر تميم صور للبيئة المصرية كما مر بنا . ولا يهمنا وصفه فى هذا المجال ، لأن أى شاعر عابر يستطيع أن يصف النيل أو الشمسة أو الاحتفالات . والذى يهمنا ما فى وصفه من الدلالات على مصريته .

تحدث الشاعر عن النيل مرارا ، ويلاحظ على أحاديثه ما يلى :

أولا : أنه يتحدث عن النيل حديث الآلف لا الغريب ، فلا يستعمل اسم الإشارة ، ولا نجد عنده مثل قول نصيب :

فبشر أهل مصر فقد أتاهم مع النيل الذى فى مصر نيل[٢]

فهذا الشاعر لم يألف النيل . وفى بيته دلالة نفسية على غربته تتمثل فى « الذى فى مصر » . أتراه ظن أن المصريين سيختلط عليهم الأمر ، فلا يدرون أشبه عبد العزيز بن مروان بنيلهم أم شبهه بنيل العراق ! إن الأمر راجع إلى نفس الشاعر التى لم تألف النهر .

ثانيا : أن الشاعر يصف النيل وصفا يستغرق أبياتا ، وقد يرسم له صورة جزئية عابرة فى معرض هذه القطعة أو تلك ، كقوله :

يارب ليل بتّه ناعما بين ربا المختار فالجسر
أخرج فيه من صبا لصبا وأستحث الخمر بالخمر
وعذبة الألفاظ معشوقة ساحرة الأوتار والشّعر
راجحة الأرداف ممكورة طوع الصبا مرهفة الخصر

---

(١) انظر ديوان الشريف العقيلى ص ٣٨ ، ٧٣ ، ١٣٣ .
(٢) أبو الفرج : الأغانى جـ ١ ص ١٣٥ .

كأنما البدران فى وجهها ... فهى سماء الشمس والبدر
فلم أزل أشرب من كفها ... وأجتنى الشهد من الثغر
حتى تضعضعتُ وفى بعض ما ... بلحظ عينيها من السكر
والبدر قد مدَّ على نيله ... منطقة من خالص التبر(١)

ومثل هذا الذكر العابر معظمه فى الخمريات(٢) . وإذا رجعنا إلى خمرية « أسكر » ، ووصف الشُّربْ يوم النيروز — وقد مرا بنا — رأينا مثلين . وهذا الذكر العابر ذو دلالة ، فقد عودنا الشعراء أن يلتفتوا إلى الرياض والأزهار والنجوم(٣) فى شعرهم الخمرى فيذكروها ، وها هو تميم يجعل النهر المصرى قسيما لهذه العناصر التقليدية فى شعر الخمر والمتع .

وفى ديوان تميم ظاهرة تستوقف النظر ؛ فقد ذهب فى الغزل مذهبا طريفا ، فنظم مقطوعات غزلية كثيرة على لسان الشقق(٤) والستائر(٥) ، كما نظم مقطوعات أخرى على لسان الجوارى وأمر بكتابتها على عصائبهن(٦) . ولابد من المبادرة إلى القول : إن احتمال مغربية شيء من هذه المقطوعات يعود إلى الظهور ثانية ، فيعترض الحديث ، لكن هذا الاعتراض قد سبق تضعيفه . فإذا ملنا إلى أن هذا القطع مصرية ، فإنها تكون ذات دلالة معينة ، وليست تعبيرا عن جنسية الشاعر وأهوائه ، وذكرا لماعون بيته فقط . فقد اشتهرت مصر فى كل عصورها بالنسيج ، وتفوقت فيه تفوقا عظيما ، ولا سيما عصر الفاطميين(٧) الذين عنوا بالنسيج عناية فائقة ؛ فنشطت المناسج فى كل أرجاء مصر كتنيس والإسكندرية وشطا دمياط ودبيق والفرما فى الشمال ، والبهنسا ودميرة وإخميم وأسيوط فى الجنوب(٨) . والدليل على عظم هذه الصناعة

---

(١) ديوان تميم ص ٢١٥ .
(٢) انظر ديوان تميم ص ٦١ ، ١٦٩ ، ٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٤ .
(٣) أنظر على سبيل المثال ختام قصيدة الخمر بذكر الأجرام السماوية فى ديوان أبى نواس برواية حمزة بن الحسن الاصبهانى ص ٢٤٦ ، ٣١٨ .
(٤) ديوان تميم ص ٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٣٢١ ، ٣٩٩ .
(٥) المصدر السابق : ص ١٩١ ، ٣٩٦ .
(٦) المصدر السابق ص ١٢٤ ، ٢٣٨ ، ٣٤٣ ، ٤٣٥ .
(٧) الدكتور زكى محمد حسن كنوز الفاطميين ص ١١٠ .
(٨) المصدر السابق : ص ١١٥ .

مبالغة المؤرخين فى ذكر الضرائب التى كانت تفرض عليها فى أيام تميم نفسه[١] . بل لقد كان لبعض الأمراء مناسج خاصة[٢] . وقد نشط الفاطميون صناعة النسيج فى صقلية كما قلنا[٣] . ثم إنهم عرفوا باستخدام الخطّ فى زخرفة النسيج وغيره[٤] . وتحت تأثير التفوق الذى كان لمصر الفاطمية فى صناعة المنسوجات كانت البداية لدراسة اقتصادية لأنواع الصناعات المصرية هى الحديث عن صناعة النسيج[٥] . وقد ذكر عمارة اليمنى متحسرا تلك الكسا[٦] التى كان يوزعها الفاطميون ، وذكر معها تنيس فى قوله :

وكسوة العام فى الفصلين قد درست ... ورث منها جديد عندهم وبلى[٧]
ثم الطراز بتنيس التى عظمت ... منه الصلات لأهل الأرض والدول[٨]

وقد تركت هذه الظاهرة الاقتصادية أثرها فى عالم الخرافة ، فراح المصريون يحكون أن امبراطور الروم ناشد الخليفة الفاطمى أن يقبل منه مائة مدينة رومية ويدع له تنيس وحدها ، ولكن الخليفة أبى[٩] . فمالها لا تترك أثرها فى عالم الأدب . نعم لقد عرف الأدب العربى شعرا كان يكتب على النسيج وغيره ، ولكن هذا الشعر المكتوب كان يقال على لسان الشاعر المتغزل ، أو على لسان الجارية التى تتزين بالنسيج أو تلبسه[١٠] . أما تميم فلم يكفه أن يقلد هذين النوعين ، فأضاف نوعا ثالثا وهو إنطاق النسيج وإجراء الغزل على لسانه . ولا أعرف لهذا النوع الثالث نظيرا ، وكأنما هو انتحاءة غزلية خاصة أملتها عليه البيئة المتفوقة فى صناعة النسيج ، الغنية بالشقق والستائر وغيرها من المنسوجات .

---

(١) انظر هذا البحث ص
(٢) الدكتور زكى محمد حسن كنوز الفاطميين ص ١١٨ .
(٣) انظر هذا البحث .
(٤) الدكتور زكى محمد حسن كنوز الفاطميين ص ٢٥٢ — ٢٥٦ .
(٥) الدكتور راشد البراوى : الحالة الاقتصادية ص ١٢٦ .
(٦) انظر حديث الكساوى فى خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٠٩ — ٤١٣ .
(٧) المصدر السابق : جـ ص ٤٥٩ .
(٨) المصدر السابق : جـ ١ ص ٤٩٦ .
(٩) الدكتور زكى محمد حسن كنوز الفاطميين ص ١١٥ .
(١٠) انظر هذا البحث ص .

هذه آثار البيئة المصرية فى ديوان تميم ، ظهرت فى شعره طابعا ولغة وانتحاء ، فاتسم شعره بشى من الظرف ، ولانت عبارته وتلونت بما أحاط بها ، وفرض النيل نفسه على شعره الخمرى ، وأغراه نسيج مصر بإنطاق الشقق . وكان تميم حريا أن يتأثر بالبيئة المصرية أكثر مما تأثر ، لو لم يعش فى المغرب أكثر عمره ، ولو لم يكن هذا العمر قصيرا قصرا كفَّ الشاعر عن الإبداع مبكراً جداً .

الفصل الثانى
الزينة فى شعر تميم

عاش تميم فى قرن شاع فيه التكلف فى عبارة الشعر والنثر معا ، إذ فشت فيها ألوان البيان والبديع ، فأكثر الشعراء من التشبيه والاستعارة كالوأواء الدمشقى ، وأفرطوا فى الجناس كالبستى ، وأخذ الكثير منهم بالطباق وغيره من المحسنات . واشتط بعضهم فتجاوز التحسين إلى التلاعب كما صنع الصاحب والحسن الهمذانى اللذان جعلا ينظمان قصائد تخلو الواحدة منها من حرف من حروف الهجاء[1] . وجارى الناثرون الناظمين فى حلبة التحسين . وإذا كان السّجع فى النثر يرجع إلى أيام الخليفة المقتدر فإن ابن العميد ــ وهو من أدباء القرن الرابع ــ قد أضاف الطباق إلى النثر فيما أضاف ، ونهج الصاحب نهجه فسجع وجانس ، وطابق واقتبس من القرآن الكريم ، وصنع الخوارزمى صنيعه[2] .

وثم رأى يذهب إلى أن رسائل القرن الرابع هى ذروة ما تمحض عنه الفن الإسلامى ، وأنها تغنى عن التحف الزجاجية والمعدنية فى الدلالة على ما كان للمسلمين من تقدير للجمال[3] . ويرد الدارسون ماطرأ على عبارة الأدب فى القرن الرابع إلى ما عرفته الحياة من بهرجة ، وما طرأ على الثقافة من تعقيد ؛ فكما تأنق الناس فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن تأنقوا فى التعبير ، وكما أوغلوا فى التفكير وعقده أمثال ابن سينا وابن الهيثم تعقد التعبير[4] .

---

(١) الثعالبى : اليتيمة جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) انظر مقدمة رسائل الصاحب .

(٣) متز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٣٩٩ .

(٤) الدكتور شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٩٧ وما بعدها ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٣٥ ــ ١٣٦ .

وكانت بيئة تميم آية فى الزخرف وغاية فى التعقيد . وكيف ننسى قصور الفاطميين وجنانهم ؟ وكيف ننسى ارتباط الإسماعلية بالعلم ، وعناية الخلفاء الفاطميين بالثقافة ولا سيما المعز ؟ وكيف ننسى فنية السيدة تغريد وابنها العزيز ، وابنها تميم الذى كان يعشق الرياض ويذهِّب ثمارها ويكتب عليها الشعر ، كما كان يزين جدران قصوره وستائره بالشعر الطريف ؟ .

ثم إن تميما كان واسع الثقافة كما يدل شعره ولا سيما الشيعى منه . ونقرأ له هذا البيت فى وصف الحصان :

مرتبـــط الرجـــل بما يراه كاللفـظ ملتفـا به معنـاه[١]

وهذه الأشطر فى وصف الحصان أيضا :

مرتبـط الحافـر بالظلمـان وبالمهـا والأتـن فى الغيطـان

مثل ارتباط اللفظ بالمعانى[٢]

فنعلم أنه على علم بمشكلة اللفظ والمعنى ، وهى مشكلة عويصة مازالت موضع أخذ ورد إلى اليوم .

ويقول تميم مرة فى غزله :

شبهتها بالبـدر فاستضحكت وقابلت قولى بالنكـر[٣]

ويقول أيضا :

إنى وإن فقت من يجرى إلى أمد معى برقة تبيينـى وتشبيهى[٤]

فيدلنا ــ وشعره يُغْنى ــ على أنه من أصحاب التشبيهات .

وليست الزينة فى ديوان شاعرنا وقفا على التشبيه وحده ، بل تشمل محسنات بديعية أهمها إلى جانب التشبيه الطباق ومراعاة النظير والجناس والسجع والتطريز .

---

(١) ديوان تميم ص ٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٤١٨ .
(٣) ديوان تميم ص ١٦١ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٥٤ .

أ ـ التشبيه

التشبيه موجود فى الشعر العربى قبل أن يأتى عصر التكلف ، وفى الكتابة العلمية ، وفى أحاديث العامة كبارا وصغارا . فهو وسيلة من وسائل التعبير تقوم على إدراك علاقة تماثل قائمة بين طرفين . غير أنه فى ديوان تميم يُعد لونا من ألوان الزينة ؛ لأن تميما لم يتناوله كما يتناوله الناس . ألا اقرأ قوله :

(ألا سقيا لى قهوة ذهبية ... وقد ألبس الآفاق جنح الدجى دعجْ)
كأن الثريا والظلام يحفها ... فصوص لجين قد أحاط بها سبج
(كأن نجوم الليل تحت سواده ... إذا جنّ زنجى تَبَسَّم عن فلج)
كأن رقيق الغيم والبدر تحته ... زجاج على كف من الصبح منتسج
كأن عمود الصبح فى غُبَّر الدجى ... صفيحة سيف قد تصدا من المهج
فقم وأدر أقداح خمر كأنها ... إذا برزت تذكى أوائلها سُرُج
كأن عليها من صفاء أديمها ... خلال العزيز العز أو نشرها الأرج
وتحسبها فى الكأس رقة فهمه ... وإن لم يكن فى أنه غيرها خلَجْ(١)

وأنظر كيف أكثر من كلمة كأن وضمن بيتين أول أحدهما كأن . لقد تعمد الشاعر أن يرى علاقات بين الأشياء ، فأخرجته كثرتهما عن حدود المعتاد وهو يصنع ذلك كثيرا فى شعره .

وليس تتابع التشبيهات وحده هو السبب فى عدّ التشبيه زينة فى شعر تميم ، ولكن الطرافة والتركيب فيه سببان آخران فى عدّه كذلك أيا كان العدد . ومن ذا الذى يقرأ قوله :

نظرت إلى النيل فى مده ... بموج يزيد ولا ينقصُ
كأن معاطف أمواجه ... معاطف جارية ترقص(٢)

ولا يرى فى هذا التشبيه زينة متعمدة ؟ ومن ذا الذى يقرأ قوله على لسان المحبوبة :

قالت : الورد والمدامة والبد ... ر رضانى ولون خدى وجهى(٣)

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦ .
(٢) ديوان تميم ص ٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٥٣ .

ولا يعد هذا التشبيه المركب زينة تعمدها الشاعر ؟ . فلا بدع أن يقف القدماء عند تشبيهات تميم ، وأن يعدوه من المشبهين[١] .

تميم وابن المعتز : عرف تميم عبد الله بن المعتز خير المعرفة ؛ وقد اضطرته السياسة إلى مناقضته . وحمله الإعجاب على معارضته وذكر اسمه أكثر من مرة[٢] . وكان التشبيه شائعا فى القرن الرابع ، بل كان ابن هانىء الأندلسى نفسه يشبِّه . وكيف ننسى نصه الذى كرر فيه كله « كأن » عددا كبيرا من المرات[٣] ؛ وقد قرن القدماء تشبيه تميم بابن المعتز مع ذلك ، وكانو على حق ؛ فإن للشاعر المتقدم تأثيرا خاصا فى تشبيهات المتأخر وإن لم ننفِ مسايرته للتيار المعاصر . يقول الحصرى إن تميما كان « يحتذى مثال ابن المعتز ، ويقف فى التشبيهات بجانبه ، ويفرغ فيها على قالبه ، ويتتبعه سلوك ألفاظ الملوك[٤] » . وكأنما يقصد الحصرى ترف التشبيه بألفاظ الملوك . فلقد كان ابن المعتز يشبه تشبيهاً مترفا كقوله يصف الهلال .

انظر إلى حسن هلال بدا ... يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة ... يحصد من زُهْر الدجى نرجسا[٥]

فما شبه الشاعر الأجرام إلا بما فى حوزته . وكان تميم يعيش فى قصور الخلافة أيضا ؛ فعرف الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وألف النرجس والسوسن والياسمين وسائر الأزاهير ، فجعل ما عرف وما ألف عناصر فى تشبيهه . اسمعه يقول :

وأنجم الظلماء لم تَبَدِّدِ ... كأنها لآلىء لم تعقد
سابحة فى فلك من عسجد ... وتارة تسبح فى زمرد
سبح المدارى فى أثيت أجعدِ ... كأنما شعراه إذ لم تخمد
جمانة فى كف عبد أسود[٦]

---

(١) ابن الآبار : الحلة السيراء ص ١٣٢ . انظر زهر الآداب للحصرى جـ ٣ ص ١٧٤ .
(٢) انظر ديوان تميم ص ٨٠ ، ص ٤٢١ .
(٣) ديوان ابن هانى ص ٤٤٥ .
(٤) الحصرى : زهر الآداب جـ ٣ ص ١٧٤ .
(٥) ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ١٢٢ .
(٦) ديوان تميم ص ١٣٤ .

فأنت ترى فضة ابن المعتز فى كف العبد الأسود الذى تصوّره تميم ، وترى إلى جانبها اللؤلؤ والذهب والزمرد . وإذا كان ابن المعتز قد حمل الهلال بالعنبر مرة[١] فقد قال تميم عن النجوم :

كأنها تحت الـــرواق الأخضر تسبح فى باطيـــة من عنبر[٢]

وإنك لتجد التشبيهات التى من هذا النوع كثيرة فى شعر تميم .

وكثيرا ما يلتفت تميم إلى النجوم فى آخر قطعه الخمرية فيشبهها بشىء ما ، كأن يقول :

حبذا طيب يومنـــا المأنـــوس بين شدو الغنا وحث الكؤوس
من مدام بها يعيش التصابى وتـــداوى معلـــلات النفـــوس
غربت فى الشفاه ماء ولكن طلعت فى الخدود مثل الشموس
وكأن النجوم فى غسق الليـ ـل جمان يلوح فى آبنـــوس[٣]

والالتفات إلى الأجرام السماوية فى شعر الخمر موجود عند أبى نواس ، أما الالتفات إليها وتشبيهها بالأشياء فنجد له أمثلة عند ابن المعتز ، منها !

أتانى والإصباح ينهض فى الدجى بصفراء لم تفسد بطبخ وإحراق
وناولـــنيها والثريـــا كأنها جنى نرجس حيّا الندامى بها الساق[٤]

فكأن تميما يقلد ابن المعتز فى الختام .

وفى ديوان شاعرنا بعض أبيات قائمة على التشبيه أخذها برمتها من ابن المعتز . ففى القطعة الحيمية التى كرر فيها « كأن » بيتان لابن المعتز[٥] . ولما هم تميم بوصف بركة الحبش قال :

---

(١) ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ١٦٦ .
(٢) ديوان تميم ص ٢٣٩ .
(٣) ديوان تميم ص ٢٤٨ . انظر كذلك ص ٦٢ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٢٤٨ . .الخ
(٤) ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ٥٥ . انظر كذلك جـ ص ١٧ ، ٣٢ .
(٥) انظر ديوان ابن المعتز جـ٢ ص ١٠٩ .

(كأن البركة الغنـــاً إذا ما غدت بالماء مفعمـــة تموج)
(وقد لاح الصخى مرآة قين قد انصقلت ومقبضها الخليج)
. ترى قمر الدجى قمرا حذاه طلوعـــا مالـــه فيها يروج
فلا تعصِ الصبا فى لبس لهو فإن الدهر ذو شغب لجوج(١)

والبيتان الأولان ينسبان إلى ابن المعتز فى ديوانه(٢) .

ب ــ سائر المحسنات

الطباق كثير فى شعر تميم ، يطالعك منذ الصفحة الأولى بل إنه أول الديوان :

أعـــذلا ومـــا عذلتنـــى النهى ولا طرد الحلم عنى الصبا(٣)

ففى الشطر الأول طباق سلب ، وفى الشطر الثانى طباق ايجاب ؛ لأن الحلم وهو الأناة أو التعقل عكس الصبا أىْ الطيش أو الجهل . ومن أمثلته قوله يمدح :

مفترق الحالـتين مجتمـع الـــ آراء فى سلمهـا وهيجاهـــا(٤)

وقول يتغزل فى الساقية .

وطافت بها هيفاء مخطفة الحشا معاطفها سلم وألحاظها حرب(٥)

وقوله يهنىء أخاه بمولود :

أعدتَ به الدنيا ولوداً ولم تزل عقيما وأنسيت الزمان به الغدرا(٦)

والأمثلة كثيرة جدا .

وفى شعر تميم مراعاة النظير ، منه فى العزل :

وقـــد أومض من ثغـــر ك لى برق بلا رعـــد
بروق غيمهـــا منك فروق الشعـــر الجعـــد
وغصْن القـــدّ قد أثمـ ر رمانـــا من النهد(٧)

---

(١) ديوان تميم ص ٩٠ .
(٢) ديوان ابن المعتز جـ ٢ ص ١٠٩
(٣) ديوان تميم ص ٧ .
(٤) ديوان تميم ص ٣٦ .
(٥) المصدر السابق ص ٤٦ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٣٦ .
(٧) المصدر السابق ص ١٢٣ .

فإنه لما قرن بياض الأسنان بالبرق ذكر الرعد وقرن الشعر بالغيم . ثم عاد فقرن القد بالغصن وجعل النهود رمان الغصن . وفى الديوان أمثلة متعددة كالمذكور(١) . وقد طال نفس الشاعر فى مراعاة النظير فى قوله :

سقـــنيها من عصير الـــــ ... حسن بالطـــرف الكحيـــل
لا عصير الكـــرم والنخـــــ ... ل ولا بنت الـــــعُسُول
إن شرب الـــراح من ثغـــ ... رك مأمـــــــولى وسولى
قهـــــــــوة كرمتها فى ... روضة الخد الأسيـــــــل
سُتِـــــرتْ عنكـــــم فنبـ ... ـتُ عليها بفضولى
ليس لى منها خمار ... غير تفنيـــــد العـــــذول(٢)

فالشاعر فى هذه الأبيات يسأل الحبيب أن يسكره بجمال عينيه لا بخمر العنب أو البلح . ثم يلتفت إلى فمه فيجعل ريقه خمرا كرمتها الشفتان فى بستان الخد . ويتحول إلى أصحابه فيفخر عليهم باهتدائه إلى تلك الخمر الخفية التى لا خمار لها إلا صداع العذل .

الجنـــاس .

فى ديوان تميم جناس كثير كقوله :

مُنـــىً ولـــو بالسلام منعمـــة ... ثم اخلطى ما منـــنتِ بالمن(٣)

وهو مولع باللعب بأعلام الأماكن كقوله :

السكر فى أسكر عندى وقار ... فاخلع بها للهو عنكَ العذار(٤)

وقـــوله :

فكم كربة فى كربلاء شديدة ... دهاهم بها للناكـــثين كيـــاد(٥)

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٥ ، ٢٣٩ ، ٢٨٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣٤ . انظر كذلك ص ١١٠ .
(٣) ديوان تميم ص ٤٣٧ .
(٤) المصدر السابق ص ١٦٩ .
(٥) المصدر السابق ص ١١٨ . انظر كذلك ص ٩٠ ، ٢٥٢ .

وقوله :

سأدفع بالراح جيش الهموم وما عال نفسى وما غالها[١]

وقوله :

على أن لى عزمات إذا تنوهضن هضن طوال القنا[٢]

وقد نجد فى شعر تميم الجناس التام كالبيت :

لام عذار فما أميلحه أخاف عينى عليه من عينى[٣]

أى أن الشاعر يخاف على العذار العين من عينه أى الإصابة من عينه .

ومثله قوله لصديقه الرسى وقد رحل إلى قريه الحى :

شوقنا مذ رحلت للحى حى ليس تخبوله وإن بنت نار[٤]

هذا ، ولقد قال مسلم بن الوليد

موف على مهج ، واليوم ذو رهج كأنه أجل يسعى إلى أمل[٥]

وفى هذا البيت تشابه بين نهاية مهج ورهج ، وأجل وأمل ، والبلاغيون مختلفون حول تسمية هذه الزينة . ومهما يكن الاصطلاح فهى ضرب من السجع . وقد سماها كذلك بعض البلاغيين[٦] . وقد أكثر ابن هانىء الأندلسى من هذه الزينة فى شعره[٧] . وأمثلتها فى شعر تميم عديدة ، منها قوله عن الزمان :

فصار أعجز من ميت وأبعد من فوت ، وأصمت من عود بلا وتر[٨]

وقوله مفتخرا بنسبه :

آل النبىّ ، وأبناء الوصىّ ، وإخـ وان النجىّ ، وسادات الكرام وفا[٩]

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٣١ .

(٥) ديوان مسلم ص ٦ .

(٦) يحيى بن حمزة : الطراز جـ ٣ ص ٩٧ .

(٧) ديوان ابن هانى ص ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٧٣ ، ٣٤٩ ، ٥٣٩ على سبيل المثال .

(٨) ديوان تميم ص ٢٢٣ .

(٩) ديوان تميم ص ٢٨٠ . انظر كذلك ص ٢٢٣ ، ٢٧٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٠ .

وقد يعقد السجع أكثر فيقول :

أبرق مبسمه أنسى ولؤلؤه ؟ أم قدُّه مائلا طورا ومعتدلا ؟
أم لفظه عجلا ؟ أم خده خجلا ؟ أم طرفه كحلا ؟ أم لحظه ثملا ؟
أم صده رجلا ؟ أم دمعه خضلا ؟ أم شعره رجلا ؟ أم خطوه كسلا
أم كبره صلَفا ؟ أم لينه ترفا ؟ أم خصره هيفا ؟ أم ردفه ثقلا[١]

وثم لون آخر من الزينة اسمه التطريز ، يرجع إلى ما قبل القرن الرابع ، وفى شعر أبى نواس وابن الرومى شىء منه[٢] . وفى اليتيمة أمثلة متعددة له ، ومن بينها :

قول ابن لنكك :

شموعك والكئوس مع الندامى نجوم فى نجوم فى نجوم[٣]

وقوله :

وخالك فى عذارك فى الليالى سواد فى سواد فى سواد[٤]

وعند تميم نص واحد فيه تطريز ، ولكنه أطول نص وجدته من هذا النوع ، وهو :

تمتع بالمسرة والشباب فقد برز الربيع من الحجاب
فحبك والزمان وأنت فيه شباب فى شباب فى شباب
فحىّ على المدام بكف ساق يدير الخمر من بَرد عِذاب
يدير بريقه ويديه خمراً شراب فى شراب فى شراب
كأن يديه حاكت وجنتيه بنار يُصطلَى منها لهاب
يداه ثم وجنته وقلبى شهاب فى شهاب فى شهاب
إذا ما أكثر العذال فيه وزاد علىّ ترديد العتاب
عداوتهم وعذلهم جميعا سراب فى سراب فى سراب
لعمرك إنما الدنيا عروس حُلَاها الغيث من تحت النقاب
بنفسجها ونرجسها وورد خضاب فى خضاب فى خضاب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٥ . انظر كذلك ص ٢٧١ .
(٢) انظر الطراز لحمزة بن يحيى العلوى جـ ٣ ص ٩١ . ونهاية الأرب للنويرى جـ ٧ ص ١٤٨ .
(٣) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥ .

فأهرق من دم الإبريق راحا ... فإن الغيث ممنوع السحاب
فإبريقي وكأسي والغوادى ... سحاب فى سحاب فى سحاب
فتم الشرب إن الصحو عزم ... وللنيروز حظ فى الشراب
فرأيك ثم شربك والغواني ... صواب فى صواب فى صواب[1]

(١) ديوان تميم ص ٥٧ — ٥٨

الفصـــل الثـالث

شعر تميم : ما له وما عليه

قال ابن خلكان : « وكان تميم المذكور فاضلا شاعرا ماهرا ... وأشعاره كلها حسنة[1] » . وهذه الشهادة بحسن أشعار تميم كلها شهادة مبالغ فيها ؛ فشعره لا يخلو من المساوىء ، كشأن الشعراء جميعا ، وشأن الناس فيما يعملون . وعلينا الآن أن نتامل محاسنه ، ونرى مساوئه .

أ ــ محاسن فى شعر تميم

لقد عاش تميم فى ظل خلافة مجيدة ؛ ناجحة السياسة ، بارعة الحكم ، وافرة الثراء ، آخذة بالعلم والأدب . فوجب على تميم المدح ، واتسعت أمامه مذاهبه . ومن الطريف أن المبالغة فى المدح ــ وهى من سمات هذا الموضوع ــ تُعدّ بعدا عن الصدق ، ويعدُّها الشيعة صدقا إذا تعلقت بالإمام مثل العقل الكلى ، الذى لا تنفد أفضاله ولو كان البحر مدادا .

وكانت البيئة المصرية من خير البيئات روعة وجمالا ، رأى تميم فيها النيل ، والوادى البهيج ، والمدن العظيمة كالقاهرة والإسكندرية ، وما فيها من منارة وقصور وفنون ، وما يدور فيها من احتفالات متّصلة . ورأى فى البيئة السماء الصافية الزرقة الأخاذة ، والشمس السافرة ، والقمر الساطع والنجوم الزاهرة ، فحق له أن يصف . ومن الطريف أن العزيز كان من هواة الصيد ، وأن بازياره قد ترك لنا كتابا فى البيزرة عبر إلينا القرون ، فلا عجب أن يكون للطرد نصيب فى شعر تميم .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢١ .

وكان تميم خميرا جنسيا ، فصادف بيئة كثيرة الأديرة والخمارات ، شديدة المرح والمجون ؛ فأعانته على ما يحب ، وكبه سوء حظه على الخمر والجنس ، فاستعدت نفسه للفيض بالشعر الخمرى والغزل . ومن الطريف أن يعثر الباحثون على لوح من المرمر فى أطلال المهدية ، نقش عليه أمير فى يده كأس ، وتقف أمامه فتاة ذات مزمار[١] ! وهكذا التقى الرسم وشعر تميم فى الجمع بين الخمر والغناء .

وكان تميم ماجد العرق ، واسع العلم ، رصين الأدب ، قوى الجنان ؛ فاستمد فخره من هذا الجانب من واقعه ، كما استمد شكواه من الجانب المظلم من ذلك الواقع . وكان كثير الإخوان ، محبا للشعراء ، محبوبا لديهم ؛ فأتيح لديوانه حظ موفور من الإخوانيات .

وهكذا وجد شاعرنا بلاطا كذلك الذى أتيح لجرير والبحترى والمتنبى وسائر المادحين ، ورزق وسطا مترفا كوسط ابن المعتز ، وبيئة جميلة كبيئة الصنوبرى ، وسيق إلى مجتمع كمجتمع أبى نواس ، وولد لأسرة أورثته مجدا يفوق مجد أبى فراس ، وضيقا كذلك الذى لازم المتنبى ؛ فعلت نغمة الصدق فى مديحه ، ووصفه ، وشعره فى الخمر ، وغزله ، ومراسلته ، وفخره ، وشكواه ، وإن تأثر فى بعض هذه الفنون بما قيل فيها من الشعر ، وإن جنح أحيانا إلى التقليد . وإن إضرابه عن افتتاح المديح بالوقوف على الأطلال لضرب من الصدق الفنى .

والحيوية من الخصائص الشعرية القوية فى شعر تميم . فقد دارت فى ذهنه أفكار ، فأجراها على لسان غير الناطق حين تغزل ومدح ووصف . ومن مظاهر الحيوية أن يخلع الشاعر على موضوعه عواطفه . من ذلك قوله يصف فوارة :

شهدت عليه بقلة الصبر ... وعظيم ما يلقى من الهجر
فوارة حسدت مدامعه ... وهمولها فجرت كما تجرى
لكن بدت بمدامع يقق ... وبكيت قَبْلُ بأدمع حمر[٢]

(١) دوزكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٩٧ .
(٢) ديوان تميم ص ٢١٦ .

وفى قرن تميم حفل الشعر بوصف المواعين والأطعمة . وإن المرء ليسمع فى بعض الشعر الذى قاله المأمونى ما تقوله السيدات فى المطبخ[١] . ويضيق ذرعا به وبكشاجم ويحس أنهما قد أدخلا الشعر فيما لا يعنيه ، ويشتد ضيقه من حديثهما عن المأكولات ، ويخيل إليه أن الحاجة إلى الطعام تريد أن تنافس الحاجة إلى الجنس فى الأدب . ويصف تميم الشمعة والناعورة ، والطعام أحيانا ، ولكنه يهرب جاهدا من الوصف الجاف بما يحاول خلعه على الموصوف من الحيوية . وتقل عنده أوصاف مستحدثات الحضارة ، ويقل جدا حديثه عن الطعام ، وينعدم عنده وصف أمثال الجردل والليف اللذين وصف أمثالهما المأمونى . وكأنما كان تميم ينفر من ذلك الانحطاط الفنى ؛ والدليل أنك تقرأ حديثه عن الأديرة فتجده لا يكاد يصف ظواهرها الإنشائية ، وينصرف إلى الحديث عن أهوائه .

وتقرأ شعر تميم فتحس سهولة عبارته ، ووضوح معانيه . فلا يشبع المهجور من الألفاظ فى ديوانه إذا استثنينا الأرجاز التى تقبل ذلك . ولا يتفشى فى قصائده غموض أو التواء أو عنت . ولا يشين شعره ولوع بالمحسنات ، أو اصطناع للعلوم . وخير ما يدل على بساطه شعره أول قصيدة مدح بها أخاه[٢] ، وأرجوزته النونية ، والكثير من إخوانياته كقوله :

إن تكن قد سلوتَ عما عهدنا ... واطّرحت السؤال لما بعدنا
فأنا حافظ لعهدك راع ... لك ما عشت إن حضرنا وغبنا
ما تعرفتَ حالنا بكتاب ... مثلما يفعل المحب المعنى
لا ، ولا رحت حين غبنا ثلاثا ... تشتكى وحشة التفرق منا
خير أهل الوفاء ذو الحفظ بالأف ... عال لا من يقول : إنا وإنا[٣]

ومن طبيعة النفس أن تمل الرتوب ، وتحب التنوع . ويمتاز ديوان تميم بظاهرة التنوع ؛ فقد نظم الشاعر شعره فى ثلاثة عشر بحرا ، هى : الكامل والخفيف والبسيط والوافر والمجتث والطويل والسريع والمتقارب والمنسرح والرمل والمديد والهزج والرجز[٤] . ومن الطريف أن يلاحظ الزجاج ندرة استعمال البحرين :

---

(١) الثعالبى اليتيمة جـ ٤ ص ١٠٢ .
(٢) ديوان تميم ص ١٠٠ .
(٣) عبد المنعم خفاجة فن الشعر جـ ص ١٧ .
(٤) انظر فهرست القوافى فى آخر الديوان .

المقتضب والمضارع ، وأن ينكرهما الأخفش[١] ، وألا يذكر الخليل بحر المتدارك فى بحور الشعر[٢] . فكأن تميما قد خاض جميع البحور المجمع عليها ، وهجر حسه ما كان موضع نزاع . وكما تنوعت بحوره تنوع رويه ؛ فشمل حروف المعجم إلا الثاء والخاء والذال والغين والواو . وقلما يكون الحرف من هذه رويا . ومعروف أنْ ثَمَّ علاقة بين الوزن والموضوع ، فلا يصلح أى وزن كل الصلاح لأى موضوع . وإذْ تراوح تميم بين شتى الأبحر أتاح الفرصة لملاءمة القالب للموضوع ، وتخلص من الرتوب الموسيقى أيضا .

وتنوعت أساليب تميم فاستخدم الأسلوب المباشر ، والأسلوب غير المباشر : القصة والحوار والإنطاق ، وهذه خطة تطرد الملل . وتنوعت فنونه كذلك ؛ فعالج شعر الخمر والغزل والمدح والوصف والفخر والشكوى والحكمة والرثاء والهجاء والإخوانيات . وجعل لجل هذه الفنون أنصبة وافرة من شعره . ويرمى الشعر العربى دائما بأن المدح يشغل جانبا كبيرا منه ، وهو فن ثقيل على النفس لشيوع التكلف والكذب فيه . ولم يطغ المدح على ديوان تميم . وتمتاز مدائح تميم بأن للناظم حظا كبيرا منها أنفقه فى شعر الخمر والغزل والفخر وغير ذلك . وقد طعم الشاعر المدح بالمعانى الشيعية ، فأدخل على فن المديح جزءا غريبا غيرَّ الكل . وقد تستنكر هذه اللهجة لعلة دينية ، ولكن التغيير الذى أحدثته مصدر ارتياح فنى .

ب ــ مآخذ

استعار تميم من الشعراء تقاليد أدبية كذكر الخمر فى المديح ، أو استعمال الأساليب المختلفة كالقصة والحوار والإنطاق ، وتلك استعارات لا غبار عليها . ولكن ما قد يؤخذ عليه هو الذى يسميه البلاغيون السرقات . فقد نظر تميم إلى معانى القدماء والمعاصرين ، وغيرها قليلا أو كثيرا ، وأدمجها فى شعره . وقد تقدم كثير مما فى ديوانه من هذا القبيل . ومن العدل أن نضع الشاعر فى إطاره الزمنى عندما ننظر فى هذه المسألة . فالسرقة ــ كما هو معروف أصبحت طريقة شائعة فى القرن الرابع ،

---

(١) عبد المنعم خفاجة جـ ٢ ص ١٧ .

(٢) حاشية المصدر السابق ص ٢٨ .

تنبه لها النقاد ، وألفوا فيها كتبا خاصة كالموازنة[١] . ويأبى ابن وكيع الشاعر المصرى إلا أن يسهم فى تعقب السارقين ؛ فألف كتابا فى سرقات المتنبى[٢] . ويدل الجزء المطبوع من الموازنة على كثرة ما سرق أبو تمام والبحترى قبل عصر تميم . لذلك يقول مؤلفها عن أبى تمام : « ومع هذا فلم أر المنحرفين عن هذا الرجل يجعلون السرقات من كبير عيوبه ، لأنه باب ما يعرى منه أحد من الشعراء إلا القليل[٣] » . أما عبد العزيز الجرجانى فيرى أن السرقة داء قديم ، وأن الإنصاف يقتضى ألا نشتد مع المتأخرين بسببها[٤] . ونقرأ فى اليتيمة أن السرى الرفاء كان حسن السرقة[٥] ، ونقرأ فى ديوان السرى نفسه شكاوى متعددة من سطو الخالديين والملحى وغيرهما على ما يمتلكه صاحب الديوان . وإذا كان الأمر كذلك فتميم ليس بدعا وقد سرق الفحول قبله وفى عصره . ولكن ما قد يؤخذ عليه بشدة إنما هو تقمصه لشخصية المتنبى ، وتقليد نغمته تقليدا معيبا كما رأينا . غير أن هذا التقمص قد حدث فى أول حياة الشاعر الفنية ؛ والدليل أنه جلى فى القصائد التى مدح بها المعز . فلما ذهبت أيام المعز وجاءت أيام العزيز أحس تميم كيانه ، وهجر التقمص والاعتماد المعيب . وعندما كان يعارض المتنبى كان يظهر شخصيته . وإذا رجعنا إلى قصيدة تميم التى مطلعها :

ما قالـه أوه لفقـده واهـا كمستـريح لقولـه آهـا[٦]

وقارناها بقصيدة المتنبى التى مطلعها :

أوه بديـل من قولـه آهـا لمن نأت والبديـل ذكراهـا[٧]

نجد الشاعر المصرى متأثرا تأثرا عاما بالمتنبى . وتأثر تميم فى هايئته لا يعاب ؛ لأنه يقف فيها من أبى الطيب وقفة الند . ولا أدل على ظهور شخصيته من أنه لم يتقيد بأغراض المتنبى التى سبقت المديح ، فقد تغزل المتنبى وفخر . وتغزل تميم ، ثم

(١) الدكتور شوقى ضيف الفن ومذاهبه ص ١٧١ .
(٢) الدكتور محمد كامل حسين فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٥٢ .
(٣) الآمدى : الموازنة ص ١١٥ . انظر كذلك ص ٢٥٠ .
(٤) الجرجانى الوساطة ص ١٦٦ .
(٥) الثعالبى اليتيمة جـ ١ ص ٤٥٣ .
(٦) ديوان تميم ص ٣٤ .
(٧) ديوان المتنبى جـ ٢ ص ٤٩٨ .

ذكر الخمر ، ثم افتخر ؛ فأضاف عنصرا جديدا يحبه هو ، ويردده فى مدائحه . وانظر كذلك قصيدة تميم التى مطلعها :

دليل على أن سوف يرديه ما لقى بأنك لوقد شئت بقياه ما بقى[١]

فإنها معارضة لقصيدة المتنبى التى مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى وللشوق ما لم يبق منى وما بقى[٢]

فستجد استقلال تميم وشخصيته .

وقد عارض شاعرنا رائية أبى نواس المشهورة التى أنشدها فى مصر بين يدى الخصيب ، وانتزع بعض صورها وألفاظها ، ولكنه احتفظ بشخصيته على هذا النحو : افتتح أبو نواس مدحته بالغزل ، ثم انتقل إلى المدح ، ثم تحول إلى وصف سفره إلى مصر ، ثم عاد إلى مدح الخصيب . أما تميم فقد بدأ بالغزل ، ثم افتخر ، ثم مدح العزيز ، ثم هنأه بالعيد ، ثم وصف الاحتفال والخطبة وورع الخليفة ، ثم تحدث عن وفائه لأخيه وإنعامه عليه ، ثم أشار إلى الوشاة ، وذكّر الخليفة بأنه أخوه الودود ، وختم بالصلاة على الممدوح . فليس هناك تشابه فى ترتيب الأغراض الرئيسية فى القصيدتين . وفى كل أجزاء ليست فى الأخرى ؛ فعند أبى نواس محاورة بينه وبين امرأة لعلها زوجته ، ووصف لرحلته ، وليس مثل ما تقدم عند تميم . وعند شاعرنا وصف الاحتفال بالعيد وخطبة المنبر ، وجزء يدور حول علاقته بالممدوح ، ولا نرى شيئا مما تقدم عند أبى نواس . وثم اختلاف آخر فى جزئيات الغزل والمديح اللذين اتفق فيهما الشاعران . فأبو نواس يتحدث عن جارته المحبوبة التى تبخل عليه ، ويقف أبوها الغيور بينها وبين الشاعر ، ويذكر أنه لا يستسلم لكل عاطفة ، وإنما هو محب ثاقب النظر كالعقاب . ويمدح الخصيب بالشجاعة والكرم والإخلاص للخليفة . أما تميم فيتحدث فى غزله عن رحيل من يحب عنه ، ويصف محاسن الراحلات ، ويتحدث عن عفته ، ويمدح أخاه مدحا مصطبغا بالدين والتشيع . ومما

---

(١) ديوان المتنبى ص ٢٨٨ .

(٢) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٤٥٧ .

مدحه به الشجاعة ، ولكنها الشجاعة التى فى خدمة الدين . ومما يستحق أن يذكر أن الشاعر لم يمدح أخاه بالكرم فى قصيدته هذه . وليس هناك شك أن اختلاف الظرفين قد أدى إلى اختلاف بعض العناصر فى كلتا المدحتين . ولكن اختلاف الغزل فيهما لا يرجع إلى الظروف ، ثم إن الاختلاف — مهما يكن سببه — علامة استقلال تحسب لتميم .

وفى شعر تميم بعض الحشو كما فى قوله يمدح أباه :

والذى جل أن يساوى بشمس ... أو ببدر التمام عند التمام
والذى عم بالجدا والعطايا ... والنوال الجزيل كل الأنام
والذى يرتجى لدين ودنيا ... والمصفى من كل عيب وذام[1]

فطرف البيت « عند التمام » لا داعى له ، ويكفى من « الجدا » و « العطايا » و « النوال » كلمة واحدة ، ومن « العيب » و « الذام » « العيب » أو « الذام » . ولا ننسى أن هذه الأبيات من الشعر الذى قيل فى أول حياة الشاعر الفنية . وفى الديوان أمثالها .

وثم لون آخر من الحشو يتمثل فى تكرار المعنى الواحد فى ثنايا القصيدة الواحدة . وفى الديوان قصائد أضربها هذا اللون من الحشو . ومن أبرزها تلك التى مطلعها :

وخمر ترشفت سلسالها ... وأجريت فى الشرب جريالها[2]

وفيها يمدح الشاعر العزيز بالشجاعة والكرم والبهاء ، يطرق المعنى منها ثم يدعه ، ثم يعود إليه .

ومن الأمثلة قوله أولا :

وفرغت نفسى من الغانيات ... وصيرت فى المجد إعمالها
بأبيض كالبدر طلق اليدين ... تسابق جدواه سؤالها
هو البحر تغرق أمواجه ... بحار النوال ونوالها
هو الليث ينسيك أهواله ... زئير الليوث وأهوالها

---

(١) ديوان تميم ص ٣٦٦ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٩٥ .

ثم قوله ثانيا :

ترى البدر والبحر فى سرجه ولـــيث الحروب ورئبـــالها

فقد قرن الخليفة بالبدر والبحر والليث فى أبيات ثلاثة ، ثم عاد فقرنه بالأطراف المذكورة فى بيت واحد ، وزاد الطين بلة بذكر كلمة الرئبال مع أن ذكر الأسد يكفى . والحق أن القصيدة التى منها الأبيات السابقة متهالكه ، يبدو عليها الارتجال ، فلعل الشاعر قالها مستعجلا ؛ فإنها لا تشبه جملة شعره الذى قاله فى أيام العزيز . وتشبهها فى الضعف إلى حد ما المخمسة لما فيها من حشوا أيضا[1] .

وفى الديوان نصوص ينتابها لون ثالث من الحشو يتمثل فى الزيادات الضارة ، فقد قال تميم يصف الناعورة مرة :

ناعـــــورة أنت أنين الهوى لما شكت حر وساويسهـــا
أنـــينها صرة تدويرهـــا ودمعهـــا ماء قواديسهـــا[2]

فأفاض الحياة على الناعورة الجامدة ، فجعلها ذات نفس أتعبتها وساوس الحب ، فجعلت تئن ، ثم عاد فسلب الناعورة الحياة لما ذكر الصرير وماء القواديس .

وفى الديوان لون رابع من الحشو يبدو إذا نظرنا إلى الديوان نظرة شاملة ، وهو تكرير المعنى الواحد فى نصوص مختلفة تكريرا كثيرا مملا كأحاديث الشجاعة والكرم ، وأحاديث البياض وسواد الشعر وعظم الأرداف . ولكن هذا الحشو ليس عيب تميم وحده .

وتميم يجيد التخلص فى المديح إجادة فائقة ، فلا يضيق القارىء بانتقاله من الشعر الذى يتناول أهواءه إلى الشعر الدائر حول المديح . ولكنه يضيق بانتقاله — فى عدة نصوص — من غرض إلى غرض ؛ لأن الشاعر لم يستطع التخلص الحسن . وهذا مثال :

عتبتْ فانثنـــى عليها العتـــابُ ودعا دمع مقلتيها انسكـــابُ
وسعت نحو خدهـــا بيـــديها فالتقـــى اليـــاسمين والعنـــاب
رب مبدٍ تعتُّبا جعل العتْ ب ريـــاءً وهمه الإعتـــاب

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٨ .
(٢) ديوان تميم ص ٢٤٥ .

فاسقنيها مدامة تصبغ الكأ ... س كما يصبغ الخدود الشباب
ما ترى الليل كيف رق دجاه ... وبدا طيلسانه ينجاب
وكأن الصباح فى الأفق باز ... والدجى بين مخلبيه غراب
وكأن الجوزاء سيف صقيل ... وكأن الدجى عليها قراب(١)

فلا صلة بين الأبيات الثلاثة الأولى وبقية النص . وفى ديوانه نص آخر أوله :

ناعورة أنت أنين الهوى ... لما شكت حر وساويسها

يصف فيه الناعورة والروض والخمر والساق ثم ينتقل إلى هجاء الأمويين . ولم يستطيع هنا أيضا أن يوفق بين أغراضه فى القصيدة .

ويحاول تميم أن ينتقل من موضوع إلى موضوع فى بعض النصوص فيتضارب شعره . والبائية التى ناقض بها ابن المعتز مما وقع فيه التضارب . يقول فيها :

فعوجا على أرج مونق ... أنيق الدساكر معشابها
نعل ما بين حوذانها ... وطيب ثراها ولبلابها
بصفراء شابت ولم تحتلم ... وأنخلها طول أحقابها(٢)

ثم يمضى فى الحديث عن الخمر والساقية ، ويقول بعد ذلك :

دعانى فلست بمستحسن ... لطرق المجون وآدابها !

ويتضارب شعر مرة أخرى حيث يقول :

ياعذبة الوصل والصدود ويا ... أعبق ثغرا من ابنه الدن
ولم أذقه ولا سمعت بمن ... ذاق ولكنه كذا ظنى
بلى تعشقتها بلا حرج ... كان وقبلتها ولا أكنى !(٣)

ولا يمكن أن يقال إن مثل هذا التضارب يحدث عفوا ، فالعمد ظاهر . ويمكن أن يفسر بأن الشاعر كان يأخذ بالرجوع المعروف فى البلاغة قبل عصره ؛ فقد ذكر ابن المعتز الرجوع فى كتابه « البديع »(٤) ، ومثل له بقول عبد الرحمن القس :

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصروا ... ملامكم ، فالهجر أعفى وأيسر

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩ .
(٢) ديوان تميم ص ٧٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٣٦ .
(٤) ابن المعتز : البديع ص ٦٠ .

ومهما يكن السبب فتضارب أقوال تميم يحسب عيبا . وما كان أوفق ابن المعتز لو أنه لم يعد الرجوع محسنا بلا قيد ؛ فقد كان فى وسع القس أن يضرب بالحروف « بل » بدل أن يرجع هذا الرجوع المعيب .

وقد يدع تميم اللغة المألوفة ، ويتناول غيرها . وقد لحظ محققو الديوان أن تميما يؤنث ما اعتدنا تذكيره كما فى قوله :

ولما تقابـــلت الجحفـــلان وعاد كجنح الظلام الضحى[١]

أو يعدى اللازم كما فى قوله :

وقد هزم الأسد حتى انتهاك فلمـــا رآك غدا لا يرى[٢]

أو يفك المدغم بلا علة كما فى قوله :

تضادد الحسن فى أبشارهن بما تمت لهن به الأوصاف والجمل[٣]

وهذه كلها من قبيل الضرورات الشعرية ولكنها شاذة . وأشاروا إلى حذفه أن المصدرية[٤] ، وأخذه بلغة طىء فى استعمال مثل « خفى » مفتوح الفاء[٥] ، واستبداله اللذى باللذين[٦] ، وحذفه الواو فى بيناه[٧] . وأخذوا عليه ذكر صور من الأفعال غير معروفة[٨] ، وألواناً من الاشتقاق والجمع غير قياسية[٩] ، وأشاروا إلى استعماله اللغة المعروفة بلغة أكلونى البراغيث[١٠] .

---

(١) ديوان تميم ص ٩ ، ٢٢ ، ٤٩ ، ٧٤ .
(٢) المصدر السابق ص ١١ ، ٣٠٦ . انظر كذلك ص ٣٦٤ .
(٣) ديوان تميم الحاشية ص ٣٤٧ ، ٣٨٦ .
(٤) نفسه ص ١٦١ . انظر كذلك ص ١٥٩ ، ٣٢٦ ، ٣٩٨ .
(٥) المصدر السابق ص ١٠٧ . انظر كذلك ص ١٥٩ .
(٦) المصدر السابق ص ٣٤١ .
(٧) المصدر السابق ص ٢١ .
(٨) المصدر السابق ص ٢٠ ، ٨٧ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ٣٢١ .
(٩) المصدر السابق ص ١٢٨ ، ٢٩٧ ، ٣٤٧ ـ ٢٣٩ ، ٢٩٧ .
(١٠) المصدر السابق ص ٥٤ . انظر كذلك ص ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٤٢ ، ٢٦٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٧ ، ٣٧٦ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

ومن انحرافات تميم الأخرى استعماله إلاك بدل إلا إياك ، وإنى وأنت بدل إنى وإياك ، وأسكر بدل أشد إسكارا ، وكبرى بدون استيفاء شروط التفضيل ، وما أبيض بدون استيفاء شروط التعجب ، والأمات بمعنى الأمهات ، ويشكوان فى محل يشكوا(١) .

ومما قد يؤخذ على الشاعر اثبات همزة الوصل ، والوقوف على الاسم المنصوب المنون بالسكون ، وحذف فتحة الاسم المنقوص المنصوب ، والفعل المنصوب المعتل الآخر بالواو أو الياء .

ويجب أن نذكر أن ما أخذه المحققون على الشاعر وما أخذته شائع فى دواوين غيره من الشعراء ؛ فالمتنبى لا يراعى التذكير والتأنيث ، ويستعمل لغة أكلونى البراغيث(٢) . بل لقد اجتمع استعماله للذ بمعنى الذى وهو بمعنى هو فى بيته :

لولا لم تكن من ذا الورى الَّذمنك هو عقمت بمولد نسلهـا حواء(٣)

ومن المعروف أن المتنبى كان يتعمد الشذوذ . أما الوقوف على الاسم المنصوب المنَّون بالسكون ، وذكر همزة الوصل فمما شاع فى أشعار المحدثين . والوقوف على الاسم المنصوب المنون بالسكون هو لغة ربيعة . ومهما تكن انحرافات تميم فإنها لا تشين شعره شينا كبيرا . ويدل الديوان على أنه كان متمكنا من علوم اللغة العربية .

تلك محاسن فى شعر تميم وهذه مساوىء فيه . ولن يغنينا ما تقدم عن القول : لقد أجاد تميم شعر الخمر والغزل والمدح والوصف ، ونجح فى الفخر والشكوى بعض النجاح ، ولم يبرز فى الحكمة والهجاء ، ولم يحسن الرثاء لشيوع التكلف فيه . ومن خير شعره عموما الكثير من الحواريات ، والكثير من مدائح العزيز كتلك التى مطلعها :

ما قال أوه لفقده واهـا كمستريح لقولـه آهـا(٤)

وتلك التى مطلعها :

جاريـة مرهفـة القـد ظالمة مظلومـة الخد(٥)

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ ، ٢٦٣ ، ٢٣٠ ، ١٦٤ ، ٢٥٦ ، ٢٨ ، ٣٦٨ .
(٢) الدكتور شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٥١ — ٢٥٧ .
(٣) ديوان المتنبى جـ ١ ص ٢١ .
(٤) ديوان تميم ص ٣٤ .
(٥) نفسه ص ١٠٠ .

والتى مطلعها :

دليل على أن سوف يرديه ما لقى . . بأنك لو قد شئت بقياه ما بقى[١]

وتلك التى غاظت داعى الدعاة . ومنه الأراجيز ولا سيما تلك التى مطلعها :

يارب ليـــل عاطـــر الأردان من نسم النرجس والسوسان[٢]

وهذه الأرجوزه الموسيقية لا تعد من أروع شعر تميم وحده ، بل تعد من أروع الشعر العربى .

وقد عرف القدامى قدر تميم فقرنوه بابن المعتز . قال عنه ابن الأبار : « شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع . وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس ، غزارة علم ، ومعاناة أدب ، وحسن تشبيه[٣] » . وثمة شهادات أخرى كهذه[٤] . ولا شك أن تميما قد تأثر بابن المعتز فى شعره ، ولكن الحق يقضى أن يقال : إن الشاعر المتأخر قد سبق المتقدم فى جوانب من شعره كالنقيضة الرائية مثلا ، وتخلف عنه فى جوانب أخرى . وإذا حكمنا على شعر تميم المأثور عددناه من الشعراء المجيدين ، وإذا حكمنا على شاعريته أمكن عدها من الشاعريات الممتازة ؛ بدليل نفحاتها الرائعة ، وبحسبان ما كان ينتظر منها لو أن الشاعر عاش فترة بعد سن السابعة والثلاثين ؛ فقد عصفت بها ريح الموت وهى فى بدايات التوهج .

---

(١) نفسه ص ٢٨٨ .

(٢) نفسه ص ٤١٤ .

(٣) ابن الآبار الحلة السيراء ص ١٣٢ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢١ ، زهر الآداب جـ ٣ ص ١٧٤ ، مقدمة محققى الديوان .

الخاتمـــة

تأثر شعر تميم بأخلاقه ، ومكانته الاجتماعية ، وباستيطانه مصر ، كما تأثر بالمذهب الذى تمسكت به أسرته وبقراءاته الواسعة . وكان من أثر أخلاقه التى عرفناها أنْ جعل للخمر والغزل نصيبين وافرين من ديوانه . وافتن فى أساليبهما ومعانيهما وأجاد أيما إجادة ؛ فهذان اللونان من الحديث يوافقان هواه . وكان من أثر أخلاق الشاعر — إلى جانب مكانته الاجتماعية — أن راح يفخر بنفسه فخرا تجاوز حدود المعقول أحيانا .

وكان من أثر مكانته الاجتماعية وحدها أن عرف القصور وزخارفها ، والحدائق وأزهارها والف الذهب والفضة وأمثالهما ؛ وتعوَّد أن يشم العطور والطيوب صباح مساء .. فأزدانت عبارته بالمحسنات وتألقت فيها المعادن النفسية ، وضاعت فيها الروائح الزكية . وكان لمكانته الاجتماعية أثر آخر ظهر فى قلة مدائحه إلى حد ما ، وانصرافها كلها إلى أبيه وأخيه .

وقديما قيل : « إن شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه[١] » .. ويقال اليوم إن مصر تمصِّر الوافدين وتهضمهم . وقد شغل تميم بوطنه الثانى عن الأول ، فلم يتعرض لشىء من حوادث المغرب المعاصرة قط . بل إنه لم يذكره إلا مرتين اثنتين فى ديوانه كله[٢] . ولعله فعل ذلك فى آونتيْن كان صدره ضيقا فيهما بسبب اشتداد أخيه معه ، فاضطره واقعه المؤلم إلى الهرب إلى صباه . وقدَ تأثر تميم فى ظرفه بالمصريين . وما كان له إلا أن يتأثر بهم وهم المشهورون بالظرف والمشهود لهم به فى كل زمان ومكان ، كما تأثرت عبارته بالبيئة المحيطة فلانت واستوت وتسربت إلى بيانها بعض العناصر الأصيلة المصرية ، ودخلتها بعض العناصر العامية وإن لم تتضح اتضاحها فى شعر الشريف العقيلى[٣] . وكان لتفوق مصر الباهر فى صناعة النسيج أثره فى غزل تميم ، فأكثر من الغزل الذى كان يكتب على الشقق والستائر والعصائب ، وأنطق الأنسجة إنطاقا لم نعرفه لأحد قبله فكان هذا الإنطاق لونا طريفا من الغزل ؛ أغرته به مصر التى تفوقت فيها صناعة النسيج . ولم يقنع النيل من تميم بأن يصفه وصفا يستطيعه الشعراء العابرون ، فراح تميم يذكره فى شعر المتع إلى جوار العناصر التقليدية ذكرا له مغزاه النفسى .

---

(١) المقريزى — الخطط جـ ١ ص ٩٠ .

(٢) ديوان تميم ص ٣٥ ، ٤٢٩ .

(٣) انظر ديوان الشريف العقيلى ص ٩٢ . انظر كذلك ص ١٠٤ ، و ص ١٥٠ ، و ١٩٩ .

وكان من أثر المذهب الذى اعتنقته ورعته أسرته أن تحدث عن تاريخ الحزب الشيعى ، وتغنى بآماله وردد عقائده . فقد افتخر فى معرض حديثه ذاك بأجداده ، وذرف الدموع على الشهداء ، وعرض بالأعداء القدامى والمعاصرين . وراحت أحلام الدولة المهدية تراوده ، ولكن أحلام بغداد كانت أشدها اعتيادا ووضوحا . ونمضى فى قراءة فخره بعلىٍّ أو رثائه للحسين أو لهجه ببغداد فلا يستغلق علينا ما يقول ، ولكن مدحه لأبيه وأخيه ليس كذلك إذ يظل مستغلقا ما لم يفهم فى ضوء العقائد الإسماعيلية . هذا ولكم قرأ تميم من الشعر فى شتى الأزمنة والأمكنة . ولقد ظهر لقراءاته الواسعة تلك صدى فى شعره فتأثر بابن المعتز فى بيانه ، وتأثر بأبى نواس والمتنبى والبحترى فى بعض فنونه ، واقترض معانى وأساليب من هذا الشاعر أو ذاك أو هذه المدرسة أو تلك . ولم يؤثر ابن هانىء فى شعره تأثيرا ذا بال لأن كلا كان يجرى فى واد .

مصادر البحث ومراجعه

أ ــ المخطوطات

ابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى) :

١ الحلة السيراء ــ نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ٢١٩ .

ابن فضل الله العمرى (القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى » :

٢ مسالك الأبصار نسخة مصورة بدار الكتب رقم ٢٥٩ معارف عامة .

القاضى النعمان بن محمد بن منصور :

٣ تأويل دعائم الإسلام ــ نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٢١ .

٤ المجالس والمسايرات ــ نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ .

ب ــ بحثان مكتوبان بالآلة الكاتبة

ابراهيم الجافى :

٥ القيان وأثرهن فى الأدب فى العصر العباسى الأول . نسختان موجودتان بمكتبة جامعة القاهرة، رقمهما ٩١٠٢ ، ٩١١٦ .

ــ الدكتور ــ حسن أحمد محمود :

٦ دولة بنى زيرى ــ بحث تقدم به للماجستير .

المصادر والمراجع العربية المطبوعة

الآمدى (الحسن بن بشر) :

٧ الموازنة مصر ١٩٥٤ م

ابن الأثير (على بن محمد)

٨ أسد الغابة فى معرفة الصحابة مصر ١٢٨٠ هـ

٩	الكامل فى التاريخ	مصر ١٣٠١ هـ
—	ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى) :	
١٠	النجوم الزاهرة	طبعة دار الكتب
—	ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) :	
١١	طوق الحمامة	مصر ١٩٥٠ م
	ابن حجر شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى :	
١٢	الأصابة فى تمييز الصحابة	مصر سنة ١٣٢٧ هـ
	ابن حوقل (أحمد بن حوقل)	
١٣	صورة الأرض	ليدن ١٩٣٠ م
—	ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) :	
١٤	العبر وديوان المبتدأ والخبر	مصر ١٢٤٧ هـ
—	ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم)	
١٥	وفيات الأعيان	مصر سنة ١٢٩٩ هـ
—	ابن الرومى (على بن العباس بن جريج)	
١٦	ديوان ابن الرومى	مصر سنة ١٩٠١٧ هـ
—	ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه)	
١٧	العقد الفريد	مصر ١٩٤٠ — ١٩٥٣م
—	ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن)	
١٨	التاريخ الكبير	الشام ١٣٢٢ هـ
—	ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد)	
١٩	شذرات الذهب	مصر ١٩٥١ م
—	ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم)	
٢٠	الشعر والشعراء	ليدن ١٩٠٢ م
—	ابن قيس الرقيات (عبيد الله بن قيس الرقيات)	
٢١	ديوان ابن قيس الرقيات	فينا ١٩٠٢ م
—	ابن المعتز (عبد الله بن المعتز)	
٢٢	البديع	لندن ١٩٣٥ م
٢٣	ديوان ابن المعتز	مصر ١٨٩١ م

٢٤	فصول التماثيل	مصر ١٩٢٥ م
—	ابن نباتة (جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن بن أبى الحسن بن عبد الرحيم)	
٢٥	ديوان ابن نباتة	مصر ١٩٠٥م
—	ابن النبيه (أبو الحسن على بن محمد بن الحسن)	
٢٦	ديوان ابن النبيه	مصر ١٣١٣ هـ
—	ابن هانىء الأندلسى (أبو الحسن محمد بن هانىء)	مصر ١٣٥٩ هـ
٢٧	تبيين المعانى فى ديوان ابن هانىء[1]	مصر ١٣٥٩ هـ
٢٨	ديوان ابن هانىء	بيروت ١٨٨٦م
—	ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام)	
٢٩	سيرة ابن هشام	١٢٩٥ هـ
—	ابن وكيع (أبو محمد الحسن بن على بن وكيع)	
٣٠	ديوان ابن وكيع	مصر (طبعة مكتبة مصر) د.ت
—	أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى)	
٣١	ديوان أبى تمام	بيروت ١٣٢٣ هـ
—	أبو العتاهية (اسماعيل بن القاسم)	بيروت ١٩٠٩ م
٣٢	ديوان أبى العتاهية	بيروت ١٩٠٩ م
—	أبو الفرج (على بن الحسين بن محمد)	
٣٣	الأغانى	مصر — طبعة ساسى
٣٤	مقاتل الطالبيين	النجف ١٣٥٣ هـ
—	أبو نواس (الحسن بن هانىء)	
٣٥	ديوان أبى نواس (رواية حمزة بن الحسن الأصبهانى)	مصر ١٨٩٨ م
٣٦	ديوان أبى نواس[2]	مصر ١٩٥٣ م
—	أبو هلال العسكرى (الحسن بن عبد الله بن سهل)	
٣٧	كتاب الصناعتين	مصر ١٣٢٠ هـ
—	أحمد أمين	مصر ١٩٤٥ م

(١) هذه الطبعة المعتمد عليها وعند استخدام طبعة بيروت سنة ١٨٨٦ ينص على ذلك .

(٢) هذه الطبعة هى المعتمد عليها وعند استعمال طبعة سنة ١٨٩٨ ينص على ذلك .

(م ١٦ شعر تميم بن المعز)

٣٨	ظهر الإسلام	مصر ١٩٤٥ م
—	أحمد السكندرى وآخرون	مصر ١٩٣٦ م
٣٩	المفصل في تاريخ الأدب العربى	مصر ١٩٣٦ م
—	الأخطل (غياث بن غوث بن الصلت)	بيروت ١٨٩١ م
٤٠	ديوان الأخطل	بيروت ١٨٩١ م
—	امرؤ القيس (امرؤ القيس بن حجر)	
٤١	ديوان امرىء القيس	مصر ١٩٣٩ م
—	أمين الخولى	
٤٢	فى الأدب المصرى : فكرة ومنهج	مصر ١٩٤٣ م
—	بالنثيا (آنخيل جنثالث)	
٤٣	تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الدكتور حسين مؤنس)	مصر ١٩٥٥م
—	البحترى (الوليد بن عبيد بن يحيى)	
٤٤	ديوان البحترى	القسطنطينية ١٣٠٠ هـ
—	البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن أبى مصعب)	
٤٥	المغرب فى ذكر بلاد المغرب	الجزائر ١٩١١ م
—	البهاء زهير (زهير بن محمد بن على)	
٤٦	ديوان البهاء زهير	مصر ١٣١١هـ
—	تميم بن المعز (أبو على تميم بن معد بن اسماعيل)	
٤٧	ديوان تميم بن المعز	مصر ١٩٥٧م
—	الثعالبى (عبد الملك بن محمد بن اسماعيل)	
٤٨	يتيمة الدهر	دمشق د.ت
—	الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)	
٤٩	رسائل الجاحظ	مصر ١٣٤٤ هـ
—	الجرجانى (على بن عبد العزيز بن الحسين)	
٥٠	الوساطة بين المتنبى وخصومه	صيدا ١٣٣١ هـ
—	جرير بن عطيه	
٥١	ديوان جرير	مصر ١٣١٣ هـ
—	الدكتور جميل سعيد	
٥٢	تطور الخمريات فى الشعر العربى	مصر ١٩٤٥ م
—	حافظ ابراهيم	

٥٣	ديوان حافظ	مصر ١٩٤٨ م
—	حسان بن ثابت	
٥٤	ديوان حسان بن ثابت	ليدن ١٩١٠ م
—	الدكتور حسن ابراهيم	
٥٥	المعز لدين الله (بالاشتراك مع الدكتور طه شرف)	مصر ١٩٤٧ م
٥٦	الفاطميون فى مصر	مصر ١٩٣٢ م
٥٧	تاريخ الإسلام السياسى	مصر ١٩٣٥ — ١٩٤٦ م
—	الدكتور حسين مؤنس	
٥٨	فتح العرب للمغرب	مصر ١٩٤٧ م
—	الحصرى (ابراهيم بن على بن تميم)	
٥٩	زهر الآداب	مصر ١٩٢٥ م
—	الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد)	
٦٠	ديوان الخنساء	بيروت ١٨٩٦ م
—	الخوارزمى (أبو بكر محمد بن عباس)	
٦١	رسائل الخوارزمى	القسطنطينية ١٢٩٧ هـ
—	الخيام (غياث الدين أبو الفتح عمر بن ابراهيم)	
٦٢	رباعيات الخيام (ملحقة بديوان أحمد رامى)	طبع دار العودة — بيروت
—	الداعى — (الداعى ثقة الإمام علم الاسلام)	
٦٣	المجالس المستنصرية (تحقيق الدكتور محمد كامل حسين)	مصر ١٩٤٧م
—	الدكتور راشد البراوى .	
٦٤	الحالة الاقتصادية فى مصر فى عهد الفاطميين	مصر ١٩٤٨ م
—	الدكتور زكى محمد حسن	
٦٥	كنوز الفاطميين	مصر ١٩٣٧ م
—	السرى الرفاء (أبو الحسن السرى بن أحمد)	
٦٦	ديوان السرى الرفاء	مصر ١٣٥٥ هـ
—	سليم حسن	
٦٧	أدب الفراعنة	مصر ١٩٤٥ م
—	الدكتور السيد مصطفى غازى	

٦٨	الأخطل شاعر بنى أمية	مصر ١٩٥٧م
—	الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف	
٦٩	مصر فى فجر الإسلام	مصر ١٩٤٧م
٧٠	مصر فى عصر الإخشيديين	مصر ١٩٥٠م
—	السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)	
٧١	حسن المحاضرة	مصر ١٩٦٠م
—	الشاب الظريف (محمد بن سليمان بن عفيف الدين)	
٧٢	ديوان الشاب الظريف	بيرون ١٢٨٧ هـ
—	الشابشتى (أبو الحسن على بن محمد)	
٧٣	الديارات	بغداد ١٩٥١ م
—	الشريف العقيلى (أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة)	
٧٤	ديوان الشريف العقيلى	مصر د.ت
—	الدكتور شوقى ضيف	
٧٥	التطور والتجديد فى الشعر الأموى	مصر ١٩٥٢م
٧٦	الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	بيروت ١٩٥٦م
٧٧	الفن ومذاهبه فى النثر العربى	بيروت ١٩٥٢ م
—	الصاحب (أبو القاسم اسماعيل بن أبى الحسن عباد)	
٧٨	رسائل الصاحب	مصر ١٩٤٧ م
—	الصولى (أبو بكر محمد بن يحيى)	
٧٩	أشعار أولاد الخلفاء	مصر ١٩٣٦م
—	الطبرى (محمد بن جرير)	
٨٠	تاريخ الأمم والملوك	مصر ١٩٢٦ م
—	طرفة بن العبد	
٨١	ديوان طرفة	شالون ١٩٠٠ م
—	عباس محمود العقاد	
٨٢	عمر بن أبى ربيعة	مصر ١٩٤٣ م
—	عبد العزيز سيد الأهل	
٨٣	عبد الله بن المعتز : علمه وأدبه	بيروت ١٩٥١ م
٨٤	النكتة المصرية	بيروت ١٩٤٨ م
—	الدكتور عبد اللطيف حمزة	

٨٥	الحركة الفكرية فى مصر	مصر ١٩٤٧ م
٨٦	بعض بذور الشخصية المصرية — مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد الثانى سنة	١٩٥٣ م
—	العماد الاصفهانى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبى الرجاء)	
٨٧	جريدة القصر وجريدة أهل العصر — قسم مصر	مصر ١٩٥١ م
—	عمر بن أبى ربيعة (عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة)	
٨٨	ديوان عمر بن أبى ربيعة)	مصر ١٣٣٠ هـ
—	الفرزدق (همام بن غالب بن صعصعة)	
٨٩	ديوان الفرزدق	مصر ١٩٣٦ م
—	القرمانى (أبو العباس أحمد جلبى يوسف بن أحمد)	
٩٠	أخبار الدول وآثار الأول	بغداد ١٢٨٢ هـ
—	كشاجم (محمود بن الحسين)	
٩١	أدب النديم	مصر ١٢٩٨ هـ
—	الكميت بن عدى	
٩٢	هاشميات الكميت	مصر ١٩١٢م
—	لجران (إميل لجران)	
٩٣	شعر الاسكندرية (ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة)	مصر ١٩٥٢ م
—	المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله)	
٩٤	رياض النفوس (الجزء الأول)	مصر ١٩٥١م
—	المؤيد فى الدين (هبة الله موسى بن عمران)	
٩٥	ديوان المؤيد فى الدين (تحقيق الدكتور محمد كامل حسين)	مصر ١٩٤٩م
—	المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)	
٩٦	الكامل فى الأدب	ليبزج ١٨٦٤ م
—	متز (آدم متز)	
٩٧	الحضارة الإسلامية (ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريده)	مصر ١٩٤٠ م
—	المتنبى (أبو الطيب أحمد بن الحسين)	
٩٨	ديوان المتنبى	مصر ١٩٣٠ م
—	الدكتور محمد صقر خفاجة	
٩٩	شعر الرعاة	مصر د . ت
—	محمد عبد المنعم خفاجة	

١٠٠	فن الشعر	مصر ١٩٥٠ م
—	الدكتور محمد كامل حسين	
١٠١	فى أدب مصر الفاطمية	مصر ١٩٥٠ م
١٠٢	فى الأدب المصرى الإسلامى	مصر د.ت
١٠٣	طائفة الإسماعيلية	مصر ١٩٥٩ م
١٠٤	نظرية المثل والممثول	مصر ١٩٤٨ م
١٠٥	بين التشيع وأدب الصوفية فى عصر الأيوبيين والمماليك — مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة المجلد الخامس عشر — الجزء الثانى — مايو ١٩٥٣	
—	محمد نجيب البهبيتى	
١٠٦	تاريخ الشعر العربى حتى القرن الثالث الهجرى	مصر ١٩٥٠ م
—	مروان ابن أبى حفصة	
١٠٧	شعر مروان بن أبى حفصة	مصر ١٩٧٣ م
—	المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)	
١٠٨	مروج الذهب	مصر ١٣٥٧ هـ
—	المعرى (أحمد بن عبد الله بن سليمان)	
١٠٩	سقط الزند	مصر ١٣٢٤ هـ
—	المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد)	
١١٠	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	ليدن ١٨٧٧ م
—	المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)	
١١١	المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	مصر ١٣٢٦ هـ
١١٢	اتعاظ الحنفا	مصر ١٩٤٨ م
—	منصور العزيزى	
١١٣	سيرة الأستاذ جوذر (تحقيق الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة)	مصر ١٩٥٤ م
—	الميدانى (أبو الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيم)	
١١٤	مجمع الأمثال	مصر ١٢٨٤ هـ
—	النعمان بن محمد	
١١٥	دعائم الإسلام (الجزء الأول)	مصر ١٩٥١ م

١١٦	الهمة فى آداب أتباع الأئمة (تحقيق الدكتور محمد كامل حسين)	مصر ١٩٤٨ م
—	النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)	
١١٧	نهاية الأرب	مصر — طبعة دار الكتب
—	الوأواء (محمد بن أحمد)	
١١٨	ديوان الوأواء	ليدن ١٩١٣ م
—	الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى)	
١١٩	الموشى فى الظرف والظرفاء	مصر ١٩٥٣ م
—	ولسون (جون ولسون)	
١٢٠	الحضارة المصرية (ترجمة الدكتور أحمد فخرى)	مصر ١٩٥٦ م
—	ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله)	
١٢١	معجم الأدباء	مصر ١٩٣٦ م
١٢٢	معجم البلدان	مصر ١٩٠٦ م
—	يحيى بن حمزة العلوى	
١٢٣	الطراز	مصر ١٩٠٧ م
—	يحيى بن سعيد	
١٢٤	تاريخ يحيى بن سعيد	بيروت ١٩٠٩ م

المراجع الأجنبية

The Encyclopeadia of Islam . ١٢٥

The Cambridge Medlieval History, Cambridge university press, 1933 ١٢٦

Tvanov ١٢٧

Aguide to Ismaili literature, ldnon, 1933

Lane Poole(Stanly) ١٢٨

A History oF Egypt, London, 1901

O'Leary (Delacy) ١٢٩

A short History of The Fatimid Khalifate, London, 1923

الفهـــرس

مقـــدمة ..... ٣ ـ ٦

الفصل الأول : الحياة العامة ..... ٨ ـ ٥٥

الفصل الثانى : حياة تميم

الباب الثانى : ..... ٥٧ ـ ٩٩

الفصل الأول : قصة الحرب ٥٧

الفصل الثانى : المعتقدات ٧٩

الباب الثالث : ..... ١٠١ ـ ١٩٤

الفصل الأول : سكر الخمر ١٠٣

الفصل الثانى : الغـزل ١٢٦

الفصل الثالث : المـــدح ١٤٧

الفصل الرابع : سائر الموضوعات ١٦٦

الباب الرابع : ..... ١٩٦ ـ ٢٣٥

الفصل الأول : أثر البيئة المصرية فى شعر تميم ١٩٧

الفصل الثانى : الزينة فى شعر تميم ٢١٤

الفصل الثالث : شعر تميم : ماله وما عليه ٢٢٤

الخـــاتمة : ..... ٢٣٧ ـ ٢٣٨

مصادر البحث ومراجعه : ..... ٢٣٩ ـ ٢٤٩

الفهـــرس : ٢٥٠

تم الطبع بمطبعة جامعة القاهرة
والكتـــاب الجـــامعى
المـــدير العـــام
البرنس حمودة حسين عمر

رقم الايداع ٣٠٤٦ / ١٩٩١

الرقم الدولى الموحد للكتاب ٨ ـ ٠٠٣ ـ ٢٢٣ ـ ٩٧٧

(مطبعة جامعة القاهرة ٩٨٢ / ١٩٩٠/ ٢٠٠٠)